اقتران الحقائق الإلهية بالمشاهد الطبيعية
في القرآن الكريم

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية
(2016/7/3328)

خربيط، صلاح صبار
اقتران الحقائق الالهية بالمشاهد الطبيعية فس القرآن الكريم/ صلاح صبار خربيط
عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع2016
(   ) ص
ر. ا. : (2016/7/3328)
الواصفات: اعجاز القرآن// الكون
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعتبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية آخرى.

ISBN 978-9957-96-253-1



دار غيداء للنشر والتوزيع
تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله
تلفاكس : 5353402 6 962+
ص.ب : 520946 عمان 11152 الأردن
مجمع العساف التجاري - الطابق الأول
خلوي : 95667143 7 962+
E-mail: darghidaa@gmail.com

اقتران الحقائق الإلهية بالمشاهد الطبيعية
في القرآن الكريم

الدكتور

صلاح صبار خريبط

الطبعة الأولى

2017 م – 1437 هـ

الآية القرآنية

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1]

وقال تعالى: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾[2].

(1) سورة يونس: 3.
(2) سورة الاحقاف: 1 – 3.

الفهرس

الفصل الثالث

حقيقة القدرة الإلهية

الفصل الرابع

حقيقة العلم الإلهي

المقدمة

الحمد لله الذي أجرى السحاب، وأنزل على عبده الكتاب، والصلاة والسلام على الهادي إلى الصراط المستقيم محمد ﷺوعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فمما لا شك فيه أن منهج القرآن الكريم في عرض الحقائق الكبرى منهج لا يجارى ولا يبارى، والمتتبع لأسلوب القرآن في بناء الإيمان بهذه الحقائق، وتكوين الأمم يستيقن أن التعرف على الطبيعة وما فيها من أسرار وعبر، هو المنهج القويم لإقامة الدين الحق، المبني على أسس من القطع واليقين، وإقامة الدنيا الحارسة لهذا الدين.

ففي رسالة نوح – عليه السلام- كان هذا العرض من المشاهد، وهذا التساؤل الواضح الدلالات.

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾[1].

إنها لفتة قوية إلى ما في الطبيعة من خيرات مسخرة للناس بأمر الله. وعندما مضت دهور على سير القافلة البشرية في التاريخ، وانطلاقها مع الزمن، جاء الخطاب نفسه، والمعاني نفسها على لسان نبينا محمدﷺ.

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ ﴾[2].

إن عرض القرآن الكريم لهذه المشاهد من أجل التعريف بالحقائق الإلهية الكبرى، وإن معرفة الله تعالى لا وسيلة لها إلا النظر في هذا الكون.

---

(1) سورة نوح: 13-20.

(2) سورة إبراهيم: 31-34.

والقرآن الكريم في منهجه هذا يبني الأفراد والأمم بطريقتين:

الأولى: صوغ الأنفس على معرفة الله، واستشعار عظمته، والتهيؤ لملاقاته.

والثانية: الأحكام المحددة التي فصّلها، وطلب من عباده القيام بها في أحوالهم الخاصة، وفي شؤون الأسرة والمجتمع.

ولذلك كان منهج القرآن الكريم في التعريف بالحقائق الإلهية، كحقيقة وجوده تعالى ووحدانيته وتنزيهه وقدرته وعلمه، يجعل المشاهد الطبيعية مجالاً تتجلى فيه هذه الحقائق وشاهداً عليها من أجل استشعار هذه الحقائق والإيمان بها لمجرد النظر في هذه الطبيعة المنظورة، وهو بهذا المنهج يستهدف دعم اليقين، وتثبيته في أعماق النفوس

للقرآن الكريم في هذا المجال منهج متميز، سيكون محور هذه الدراسة إن شاء الله. وهذا غالباً ما يجده المتتبع ظاهراً جلياً في السور المكية إذا ما استثنينا بعض المواضع القليلة في السور المدنية، والتي تخص بعض الحقائق وليس جميعها، لأن هدف القرآن في هذا العهد هو تصحيح فكري على نطاق واسع.

لأن صورة الإلوهية وقت نزول القرآن في بعض الأديان وأهل الجاهلية دون ما ينبغي بكثير للذي خلق فسوّى وقدّر فهدى.

إن القرآن الكريم يتحدث عن حقيقة الإلوهية فيشعرنا بأن قدرته وراء النواة التي تتكون نخلة، وهي في الوقت نفسه وراء الفجر الذي يشقّ الظلمة ليتحول نهاراً مبصراً.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾[1].

وعلى هذا الأساس ينهض الإيمان الحق، وعلى ضوء تلك المعرفة لهذه الحقيقة تحيا العلاقة بالله، لأنها إحساس بوجوده، وملاحظة لصفاته، ومتابعة لآثاره.

وهذا ما دفعني إلى أن أركز جهودي في دراسة هذا الموضوع، على تبيان المقاصد والمعاني التي ارتبطت بمشاهد الطبيعة في القرآن، فكانت هذه المشاهد في القرآن تتسم بأهداف تتصل بالإنسان وتكوينه الفكري.

وتوجد هناك دراسات سابقة لكنها ليست بالمنحى الذي قصدته، منها: رسالة دكتوراه تقدم بها الدكتور حامد صادق قنيبي إلى كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر في القاهرة سنة 1978م، وعنوانها (المشاهد في القرآن الكريم – دراسة تحليلية وصفية–) وهو يختلف في منهجه عن منهجي، حيث عكف الباحث على الدراسة

---

(1) سورة الأنعام: 95-96.

الوصفية والفنية للمشاهد المنظورة ومشاهد الآخرة حتى استغرق غالب الرسالة[1].

وكذلك كتاب (الطبيعة في القرآن الكريم) للدكتور كاصد ياسر الزيدي، وهو دراسة لمفهوم الطبيعة في الحضارات الأولى والفلسفة والجاهلية، ومفهوم الطبيعة بين كتب الأديان السماوية والقرآن الكريم، ثم عقد باباً تحت عنوان: الطبيعة وتحقيق المقاصد والأغراض القرآنية[2]. ومنهج بحثه هذا يختلف عن منهجي في الدراسة أيضاً، إذ أن كتابه يمكن أن يعتبر دراسة مقارنة لمفهوم الطبيعة.

لذا جاءت هذه الدراسة في ضوء القرآن الكريم، وكان هو محورها، وكنت أحاول أن أتفهم روح النص القرآني مستعيناً بالتفاسير المختلفة قديمها وحديثها، كتفسير الطبري والزمخشري، والرازي، والبيضاوي، وأبي حيان، وابن كثير، والقاسمي، وفي ظلال القرآن... وغيرها، مستبعداً كل ما هو طارئ على النص القرآني من تأويلات مستبعدة أحياناً، مخالفة لما ثبت ثبوتاً قاطعاً في علم الانسان.

واستعنت ببعض الكتب العلمية لمحاولة بيان ما بين هذه المشاهد والواقع العلمي المعاصر من صلات.

وأما خطتي في الكتاب فلقد كانت على النحو الآتي:

قسمت الكتاب بعد هذه المقدمة إلى تمهيد وأربعة فصول وخاتمة.

أما التمهيد: وهو تعريف بالمصطلحات الواردة في عنوان البحث يتضمن ثلاث نقاط:

الأولى: مفهوم الاقتران.

الثانية: مفهوم الحقائق.

الثالثة: مفهوم الحقائق الإلهية.

وأما الفصل الأول: فخصصته لكتب حقيقة وجود الله تعالى وقد قسمته إلى ثلاثة مباحث، كل مبحث يتناول مجالاً من المجالات وبحسب عرضها في السياق، وكالآتي:

المبحث الأول: الطبيعة السماوية والأرضية.

المبحث الثاني: الطبيعة الأرضية.

المبحث الثالث: الظواهر الطبيعية.

وأما الفصل الثاني: فخصصته لبحث حقيقة الوحدانية والتنزيه، وقسمته الى أربعة

---

(1) الرسالة (549) صفحة، وتناول فيها الباحث تحت عنوان: الجوانب اليقينية للمشاهد الصفحات (215 – 238).

(2) الكتاب 534 صفحة، وتناول فيه الباحث تحت عنوان: في الحقائق الإلهية الصفحات (238 – 309) وقد خص بها بعض المواضع دون غيرها من الآيات، دون الربط بين هذه المشاهد، كونه لم يرتب هذه المشاهد حسب ترتيب السور في النزول.

مباحث:

المبحث الأول: الطبيعة السماوية والأرضية.

المبحث الثاني: الطبيعة الأرضية.

المبحث الثالث: الظواهر الطبيعية.

المبحث الرابع: تنزيه الخالق.

وأما الفصل الثالث: فخصصته لبحث حقيقة القدرة الإلهية، وقسمته إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الطبيعة السماوية والأرضية.

المبحث الثاني: الطبيعة الأرضية.

المبحث الثالث: الظواهر الطبيعية.

أما الفصل الرابع: فخصصته لبحث حقيقة العلم الإلهي، وقسمته إلى ثلاثـة مباحث:

المبحث الأول: الطبيعة السماوية والأرضية.

المبحث الثاني: الطبيعة الأرضية.

الظواهر الطبيعية.

ثم عقدت في نهاية الكتاب خاتمة أجملت فيها أهم عناصر الدراسة، وخلاصة ما توصلت إليه. وبعد فهذا جهدي في هذا الكتاب أرجو أن ينال القبول ولا أدعي فيه الكمال، ولا أريد أن أسرد ما كابدته تجاه الموضوع لأنني أؤمن بوجوبها على كل باحث يسلك هذا المسلك الشريف لكتاب الله عز وجل، وإن كنت أصبت فهو فضل من لدن حكيم حميد، وإن كانت الأخرى فحسبي أني قد اجتهدت وحاولت، وسبحان من له الكمال وحده عليه توكلت وإليه أنيب، وعليه سبحانه وتعالى قصد السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد

التعريف بالمصطلحات الواردة في العنوان

اولاً: مفهوم الاقتران

الاقتران مأخوذ من اقترن يقترن اقترانا، فهو مقترن، مزيد قرن يقرن قرنا، والقاف والراء والنون – كما يرى ابن فارس- أصلان صحيحان:

الأول – يدل على جمع شيء إلى شيء، والآخر: شيء ينشأ بقوة وشدة[1].

ويمكن ردهما إلى أصل واحد هو جمع شيء إلى شيء سواء ماثله أو لميماثله، وسواء كان الجمع مادياً أو معنوياً، فالاقتران كالازدواج في كونه اجتماع شيئين أو أشياء في معنى من المعاني.

يقال: قرن بين الشيئين: إذا جمع بينهما برابط، والرابط الذي يربط بين الأشياء القران والقرن، ويطلق على الحبل إذ يقرن به شيئان؛ ويطلق القرن: على جعيبة صغيرة، تضم إلى جعبة كبيرة [2].

فكلمة اقتران في اللغة تعني: الجمع، والاتحاد، والمصاحبة، والاتصال، وكل تصريفات الكلمة واشتقاقاتها ترجع إلى هذا المعنى الأصلي الجامع سواءً كان الجمع مادياً في قولهم: القرون من النوق المقرنة القادمين والخالفين، أو التي تقرن ركبتيها إذا بركت.

أو معنوياً: في قولهم: قرن الرجل أصحابه وأهل زمانه، مأخوذ من الاقتران. وسواءً ماثله أو لم يماثله.

وقد وردت مادة قرن ومشتقاتها في القرآن الكريم على عدّة معان:

---

(1) ينظر: مقاييس اللغة، لابي الحسين أحمد بن فارس (5/76-77). تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط2 دار الجيل، بيروت، 1420هـ-1999م.

(2) ينظر: مقاييس اللغة، أبي الحسين أحمد بن فارس (5/76-77).الصحاح، للجوهري (6/53-54) تحقيق د. إميل بديع يعقوب، د.محمد نبيل طريفي، ط1، دار الكتب، بيروت، 1420هـ-1999م المحكم والمحيط الأعظم، لابي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده (6/361-365) تحقيق: د.عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1421هـ-2000م؛ لسان العرب، لابن منظور(3/331-342) ط1، دار صادر، 1410هـ-1990م، القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (1232، 1233) تحقيق: الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني المصري، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1430هـ-2009م، تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي (35/273-286) تحقيق: د.عبد المنعم خليل إبراهيم، الأستاذ كريم سيد محمد محمود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1433هـ-2012م.

الأول: بمعنى المدة الزمنية أو الجيل أو الأمة من الأمم[1].
الثاني: بمعنى ذو القرون[2].
الثالث: بمعنى الإطاقة والتحمل[3].
الرابع: بمعنى الصاحب المقارن[4].
الخامس: ما جاء بمعنى الاقتران، حيث جاء هذا المعنى في مواضع متعددة[5]، والمعنى اللغوي للاقتران ملحوظ في هذه المواضع جميعها، على هدي السياق الذي وردت فيه.

والذي أعنيه بالاقتران في هذا البحث: أن الحقائق الإلهية حيثما تعرض تقرن، ويذكر معها غالباً مشاهد الطبيعة لتكون مجالاً واسعاً تتجلى فيه هذه الحقائق.

ثانياً: مفهوم الحقائق

تعريف الحقائق لغة: الحقائق: جمع، مفردها حقيقة، مأخوذة من الحق، وهو الثابت اللازم.

قال ابن فارس (الحاء والقاف أصل واحد، وهو يدل على إحكام الشيء وصحته. نقيض الباطل، ويقال حَقَّ الشيءُ وَجَبَ) [6].

والحقيقة: ما يصير إليه حَقُّ الأمْر وَوُجوبُه. وبلغ حَقَيقةَ الأمْر أي يقين شأنه.

وكما أن للحقيقة تعريفات عند أهل اللغة كذا لها استعمالات لها علاقة بالتعريف –موضوع البحث – ومن هذه الاستعمالات:

الأولى: تستعمل للشيء الذي له ثبات ووجود.

---

(1) ينظر: سورة الأنعام: 6 و سورة مريم: 74، 98، سورة ق: 36، سورة المؤمنون: 31، سورة يس: 31، سورة يونس: 13، سورة هود: 116، سورة الإسراء: 17، سورة طه: 51، 128.
(2) ينظر: سورة الكهف: 83، 86، 94.
(3) ينظر: سورة الزخرف: 13.
(4) ينظر: سورة النساء: 38، وسورة الزخرف: 36، 37، سورة ق: 23، 27، سورة الصافات: 51، سورة فصلت: 28.
(5) والمواضع هي قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ سورة إبراهيم: 49، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ سورة الفرقان: 13، وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ سورة ص: 3، وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ سورة الزخرف: 53.
(6) مقاييس اللغة (5/2).

الثانية: تستعمل في الإعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه كقولنا اعتقاد فلان في البعث والثواب والجنة والنار حق، قال الله تعالى: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[1].

الثالثة: تستعمل في العمل والقول فيقال فلان لفعله حقيقة إذا لم يكن مرائياً فيه، ولقوله حقيقة إذا لم يكن فيه مترخصاً ومستزيداً ويستعمل في ضده المتجوّز والمتوسع والمتفسح، وقيل الدنيا باطل والآخرة حقيقة تنبيهاً على زوال هذه وبقاء تلك[2].

فكلمة حقيقة في اللغة تعني: الإحكام، والثبات، والواجب.

تعريف الحقائق اصطلاحاً: تعني الحقائق في الاصطلاح: (الشيء الثابت قطعاً ويقيناً، يقال: حق الشيء، إذا ثبت وهو اسم للشيء المستقر في محله، فإذا أطلق يراد به ذات الشيء الذي وضعه واضع اللغة في الأصل)[3].

ويتضح من خلال التعريف أن مصطلح الحقيقة يستعمل في سياقات متعددة، بعضها علمية أو كونية، وأخرى لغوية أو لفظية، غير أن المعاجم تقدّم له تعريفاً يكاد ينطبق، من حيث المقوّم الجوهري، على تلك السياقات جميعاً، وسياق إيرادها هو الذي يحدد معناها، ولا يلزم اتفاقهما في مسمى الحقيقة أن تكون الحقائق المعنية في هذا البحث مثل هذه الحقائق.

فالحقيقة الكونية: هي كل ما ثبت أو يثبت ثبوتاً قاطعاً في علم الإنسان بالأدلة المنطقية المقبولة[4].

أما الحقيقة اللغوية فقد عرّفها أحمد بن فارس بقوله: (الحقيقة هي الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم ولا تأخير كقول القائل: أحمد الله على نعمه وإحسانه، وهذا أكثر الكلام)[5].

وقد عرّفها بعضهم بقوله: (الحقيقة اللغوية: هي حقيقة الألفاظ في دلالتها على

---

(1) سورة البقرة: من الآية 213.

(2) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني، تحقيق: إبراهيم شمس الدين (141)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2008م.

(3) التعريفات، للشريف الجرجاني تحقيق: محمد باسل عيون السود(95)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2009/3م.

(4) ينظر: من آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن الكريم، للدكتور زغلول راغب النجار (42)، دار المعرفة، بيروت، ط4، 1428هـ-2007م.

(5) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامهما، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق وتقديم: مصطفى الشّويمي (197)، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، 1382هـ - 1963م.

المعاني، وليست التي هي ذات الشيء، أيّ نفسه وعينه؛ فالحقيقة اللفظية هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة) [1].

العلاقة بين المعنى اللغوي وبين المعنى الاصطلاحي: بعد التعريف لكلمة الحقائق في اللغة، وفي الاصطلاح، يتضح أن بينهما مناسبة ظاهرة، لأن الحقائق في اللغة-كما أوضحت-تعني الثبات ومطابقة الواقع في قولهم: اعتقاد فلان في البعث والجنة والنار، وفلان لفعله حقيقة، ولقوله حقيقة.

ومن خلال هذه التعريفات حول مفهوم الحقيقة نستطيع القول: أن مفهوم الحقيقة في هذا البحث يراد به دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له، والمعنى القريب الذي يفهم مباشرة من الكلمة، وليست ذات الشيء وعينه.

ثالثاً: تعريف الحقائق الإلهية اصطلاحاً

على هدي مما سبق يمكن أن أعرف الحقائق الإلهية بقولي هي: (من الأمور الثابتة في نفسها، والتي يفرِضُ علينا الدينُ أن نؤمن بها، والتي جاءت بها النصوص القرآنية بأسلوب المخبر الواصف).

ويحسن بي أن أشرح هذا التعريف على النحو الآتي:

أما قولي (من الأمور الثابتة في نفسها) فإن الحقائق الإلهية هي إحدى ميادين العقيدة الإسلامية، فهي تختلف عن غيرها من الميادين التي جاءت بها الشريعة الإسلامية كالعبادات والمعاملات.

وقولي: (التي يفرِضُ علينا الدينُ أن نؤمن بها) فإن من المعلوم أن ميدان العقيدة الإسلامية باقسامها الثلاثة – ومنها هذه الحقائق- الإيمان بها واجب فرضه علينا الله سبحانه وتعالى ولا يجوز لأحد أن ينكر شيئاً منها[2] فالإيمان كل متكامل لا يقبل التجزئة، وأركان الإيمان أيضاً لا تقبل التجزئة، ومعلوم أن لكل ركن من أركان الإيمان شمولاً وله تفصيلات لا يعتبر الإيمان إيماناً إلا إذا صدّق بها كلياً.

ولذلك فإن الإيمان بهذه الحقائق ومعها أقسام العقيدة في هذا الميدان، شرط لصحة الأعمال وقبولها. وإلاّ فهي باطلة من الأساس، غير قابلة للتصحيح. لأنها تعد

---

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين نصر الله بن محمد ابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي (59/1)، القاهرة، نهضة مصر، 1959م، ينظر: مفتاح العلوم، لأبي يعقوب بن ابي بكر= السكاكي، ضبط وتعليق: نعيم زرزور (359)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ - 1983م.

(2) ينظر: لوامع الأنوار البهية، محمد بن أحمد السفاريني(263/2)، دار الخاني، الرياض، ط3، 1411هـ - 1991م.

الأصول التي ترتكز عليها العقيدة الإسلامية بطرفها الاعتقادي[1].

وقولي: (التي جاءت بها النصوص القرآنية) لأن إثبات هذه الحقائق وبيانها هو النص القرآني، وقد أقام القرآن الكريم الأدلة على هذه الحقائق كحقيقة وجوده ووحدانيته وتنزيهه وقدرته وعلمه، وبذلك تتميز العقيدة الإسلامية عن غيرها من العقائد، فهي قائمة بذاتها، مصدرها الرئيس القرآن الكريم، والثاني السنة النبوية المتواترة [2]–فهي مؤكدة لما جاء به القرآن الكريم في باب العقيدة- وموافقتها للعقل.

وقولي: (بأسلوب المخبر الواصف) إن النصوص التي جاءت لبيان هذه الحقائق، كانت مهمة الشرع الكشف عنها لأنها حقائق ثابتة في نفسها، لها وجود واقعي، وعليه كانت من باب الأخبار، عن الأمور الغائبة، ونحوها مما يدخلها الريب، والتي يستعمل الإيمان فيها ولا يتناول غيرها[3]، والأخبار لا تقبل النسخ، والواقع يخبر عنه أو يوصف، ولكنه لا يغير ولا يرفع.

فحقائق الألوهية كالوحدانية والقدرة والعلم والحكمة وصفاتها كلها حقائق ثابتة.

ليس للدين فيها دور يقوم به إلا الكشف عنها، والاستدلال عليها، والإقناع بها، فلا هو بالذي أنشأها، ولا بالذي يبدلها، أو يزيلها وينسخها.

ومن هنا قال علماء الأصول:

إن العقائد لا تقبل النسخ.

---

(1)ينظر: الشريعة، للآجري، تحقيق: محمد حامد الفقي (22)، أنصار السنة النبوية، لاهور، باكستان، الإسلام والاوضاع الاقتصادية، الشيخ محمد الغزالي(30)، دار الكتب الحديث، القاهرة، ط5، 1381هـ - 1961م، العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني، (68)، دار القلم، ط16، 1433هـ - 2012م.

(2) مذهب جمهور العلماء من أهل الفقه والنظر وجماهير المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المحدثين والأصوليين. على أن أحاديث الآحاد لا تثبت بها العقيدة الاسلامية بأقسامها الثلاث – الإلهيات والنبوات والأخرويات- وهي تفيد العمل بها دون العلم، أي: دون القطع. ينظر: السيف الحاد في الرد على من أخذ بحديث الآحاد في مسائل الاعتقاد، لسعيد بن مبروك القنوبي، (61-78)، مطابع النهضة، عمان، ط3، 1418هـ، روضة الناظر لابن قدامة وشرحها نزهة الخاطر العاطر، لابن بدران (261/1)، مكتبة المعارف، الرياض، ط2، 1404هـ - 1984م، لوامع الأنوار البهية (17-20).

(3) فالإيمان يتناول الحقائق والإخبار عن الحقائق، وليس لفظ الإيمان مرادفاً للتصديق، فإن التصديق يستعمل في كل خبر، فيقال لمن أخبر بالأمور المشهورة مثل: الواحد نصف الأثنين و السماء فوق الأرض، مجيباً: صدقت، وصدقنا بذلك، ولا يقال له آمنا بك. ينظر: كتاب الإيمان، ابن تيمية، (228) إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط5، 1416هـ - 1996م، كتاب الإيمان الوسط، ابن تيمية، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد (72)، المكتبة العصرية، لبنان، ط1، 2009م. وقد رجح هذا المعنى، في التفريق بين الإيمان والتصديق من المتكلمين الباقلاني في كتابه: إعجاز القرآن تحقيق: سيد أحمد صقر، (57-65)، دار المعارف، مصر.

ولا تتغير بتغير الزمان أو المكان.
ولا يسوغ أن تكون محلاً للاجتهاد[1].

(1) ينظر: التلويح على التوضيح، للتفتازاني (33/2)، مطبعة صبيح 1377هـ-1957م، أصول السرخسي، لابي سهل السرخسي (59/2)، تحقيق: أبو الوفا الأفغاني، دار المعرفة، بيروت (ب.ت)، المستصفى في علم الأصول، للغزالي (79/1)، مطبعة مصطفى محمد، ط، 1356هـ، الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، مطبعة صبيح 1347هـ.

الفصل الأول

حقيقة وجوده تعالى

الفصل الأول

حقيقة وجوده تعالى

مدخل..

لقد نهج القرآن الكريم في التعريف بحقيقة الألوهية، منهجاً قويماً يجعل مشاهد الطبيعة والحياة معرضاً رائعاً تتجلى فيه هذه الحقيقة.. تتجلى فيه بآثارها الفاعلة، وتملأ بوجودها وحضورها جوانب الكينونة الإنسانية المدركة..إن هذا المنهج لا يجعل وجود الله -سبحانه وتعالى- قضية يجادل عنها.

فالوجود الإلهي يفعم القلب البشري-من خلال الرؤية القرآنية والمشاهدة الواقعية على السواء – بحيث لا يبقى هناك مجال للجدل حوله. إنما يتجه المنهج القرآني مباشرة إلى الحديث عن هذا الوجود في الكون كله، وإلى الحديث عن مقتضياته كذلك في الضمير البشري والحياة البشرية.

لذلك نرى أن التركيز في المنهج القرآني ليس منصباً على إثبات "الوجود الإلهي" فهذا "الوجود" إنما بديهية من بديهيات الفطرة الإنسانية، تلك الفطرة التي خلقها الله نقية صافية لا تنطمس في الكيان البشري إلا إذا فسد بجملته فساداً لا يجدي معه البرهان الخارجي.

ولما كانت الفطرة البشرية بحاجة ذاتية إلى التدين، وإلى الاعتقاد بإله بل أنها حين تصح وتستقيم تجد في أعماقها اتجاهاً إلى إله واحد، وإحساسا قوياً بوجود هذا الإله الواحد ووظيفة العقيدة الصحيحة ليست إنشاء هذا الشعور، فهذا مركوز في الفطرة، ولكن وظيفتها هي تصحيح تصور الإنسان لإلهه، بعد أن ران على فطرته غبار و أدران الجاهلية في فترة ما. وتعريفه بالإله الحق الذي لا إله غيره[1].

فالقرآن الكريم في عرضه لحقيقة الألوهية يجعل الوجود كله معرضاً رائعاً تتجلى فيه هذه الحقيقة، تتجلى تارة في آثار المشيئة الإلهية المبدعة في الطبيعة ،الشاهدة بالوحدانية والفاعلية والعلم والحكمة، والتدبير والإحاطة، والتقدير في كل خلق وفي كل حركة. كما تتجلى هذه الحقيقة بآثارها المبدعة في الطبيعة، في آفاق السماء والأرض، وما بينهما من عناصر وما ينتج عنها من ظواهر.

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن، سيد إبراهيم قطب(1243/3) فما بعدها، دار الشروق، ط37، 1429هـ-2008م، مقومات التصور الإسلامي، سيد إبراهيم قطب (204) فما بعدها، دار الشروق، ط7-2010م.

والواقع أن القرآن الكريم عندما يجعل المشاهد الطبيعية، مجالاً للتعريف بحقيقة الألوهية، لم يكن لهذا الغرض فحسب، وإنما كان يقترن ببيان النعم الإلهية في الطبيعة، وبيان منافعها للإنسان. ذلك إنما هذه المشاهد كما أنها مجال للتعريف بهذه الحقيقة- وغيرها من الحقائق القرآنية – فهي أيضاً مجال للإنعام الإلهي المادي والمعنوي، تبعاً لتعدد جوانب المشاهد الطبيعية بين اليقينية والإنسانية، ومالها من دلالات سأبينها في ثنايا هذا الكتاب.

وقد عرض الكتاب المسطور كثيراً من المشاهد الطبيعية، لتحقيق أغراضه ومقاصده ولعل من أهمها التعريف بحقيقة الألوهية وحقيقة وجودها. فنراه مرة يعرض مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية معاً في سياق واحد، ومرة يعرض المشاهد الطبيعية الأرضية وحدها، ومرة يعرض الظواهر الطبيعية.

التي على أساسها قسمت المشاهد حسب ورودها في السياق القرآني وبحسب المجالات التي تظهر فيها هذه الحقيقة الى ثلاث مباحث:

المبحث الأول: الطبيعة السماوية و الأرضية.

المبحث الثاني: الطبيعة الأرضية.

المبحث الثالث: الظواهر الطبيعية العامة.

المبحث الأول

الطبيعة السماوية والأرضية

من المشاهد الطبيعية التي سيقت للتعريف بحقيقة الألوهية، ومقرونة بالنعمالإلهية، والتي عرضها القرآن الكريم في سياق واحد لا يمكن الفصل بينهما، فمنها المشاهد السماوية وما اشتملت عليه من عجائب الصنع، وإحكام في التدبير، والمشاهد الأرضية، وما اشتملت عليه من منافع لبني الإنسان، مضافاً إليها من ظواهر طبيعية كظاهرة الليل والنهار. ومن تسخير الشمس والقمر والنجوم، كلها مشاهد معروضة للأنظار، توحي للحس والوجدان بوجود الخالق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

جاءت هذه الآية للتعريف بحقيقة الألوهية، واستحقاقه سبحانه للألوهية بعد السياق الذي يتحدث عن قصة النشأة الإنسانية، وتصوير طرفي الرحلة بين آدم وابليس، ثم الحديث عن الاستكبار في اتباع الرسل وعرض التصورات الجاهلية والتقاليد التي يشرعها البشر لأنفسهم بلا إذن ولا شرع[2].

فيأتي هذا السياق في عرض مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية وظواهرها ليرد البشر إلى ربّهم، الذي خلق هذا الوجود وسخره، والذي يحكمه بنواميسه ويصرفه بقدره، والذي له الخلق والأمر وحده.

فالقرآن الكريم يتخذ من هذا الوجود مجاله الأول لتجلية الحقيقة الإلهية، وتعبيد

---

(1) سورة الأعراف: 54

(2) وهذا السياق يبدأ من قوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ) سورة الأعراف: 11، وينتهي بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة الأعراف: 35.

البشر لربهم وحده، وإشعار قلوبهم وكيانهم كله حقيقة العبودية[1].

والآية تعرض آثار هذه الحقيقة في الطبيعة (إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ) أي أن مالككم وخالقكم هو الذي خلق السماوات والأرض، فخالق الكون والإنسان واحد (فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ) من أيام الله تعالى التي لا يعلم مداها إلا هو سبحانه، لا من أيامنا الأرضية، فالمراد من اليوم معناه اللغوي، وهو مطلق الوقت[2] وما يذكره العلماء من أرقام لعمر الكون ليست سوى تخمينات وظنون قائمة على نظريات تخطئ أو تصيب، فقد تكون ست مراحل. أو ستة أوقات، فان المتعارف باليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن حينئذ[3].

وقد ذكر المفسرون أقوالاً متعددة حول هذه المسألة. فمنهم من قال إن هذه الأيام الستة قد تكون ستة أطوار. وقد تكون كأيام الآخرة، كل يوم كألف سنة. أو غير ذلك[4]. ولكنها على أية حال أيام من أيام الله الذي لا يعلم مداها إلا هو. والمهم أن الآية تؤكد حقيقة التدرج في الخلق، التي يقول بها العلماء في العصر الحاضر؛ فالله سبحانه ما خلق الخلق دفعة واحدة، إنما خلقه على مراحل وأطوار فصّل سبحانه بعضها في موضع آخرى، فقال: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[5].

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن: (1295/3).
(2) ينظر روح المعاني، الآلوسي (64/11)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
(3) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (342/1)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط5، 2011م، تفسير المنار، محمد رشيد رضا (295/11) دار المنار، القاهرة، 1373هـ -1954م، في ظلال القرآن (1296/3)، السماء في القرآن الكريم (155).
(4) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، (129/7)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1430هـ - 2009م، معالم التنزيل، البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن ومروان سوار (237/2)، دار المعرفة، بيروت ط3، 1413هـ - 1992م، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (220/2)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1420هـ - 2000م.
(5) سورة فصلت: الآية 9-11.

ولا شك أن لله سبحانه حكماً جليلة وكثيرة في التدرج في الخلق، فهو سبحانه قادر على إيجاد المكونات كلها دفعة واحدة، وفي مثل لمح البصر ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾[1] ومن غير أسباب ووسائل: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[2] ولعل من حكم التدرج في الخلق أن يعرفنا سبحانه بحقيقة الإلهية المتجلية في الطبيعة المنظورة، وأنه خلق الخلق بمحض إرادته واختياره، وأنه خلقه بمقتضى نواميس كونيه أبدعها، وليكون هذا الخلق مظهراً لصفتي علم الله وقدرته، فالقدرة صالحة لخلقها دفعة واحدة، لكن العلم والحكمة اقتضيا هذا التدرج كما أن فيه اعتباراً للناظر وحثاً على التأني في الأمور. مما ينفي وجود المصادفة في الخلق، كما يزعم الملاحدة الماديون[3].

ومن مجالات حقيقة وجوده تعالى وقدرته وعظمة إبداعه لنظام حركة الأفلاك وتوالي الليل والنهار، وتعاقب الفصول والشهور والأوقات(يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ) أن يغطي بقدرته الليل بالنهار، فالليل قبل النهار، ويعلم هذا من قوله تعالى: (وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ)[4] لأن المسلوخ منه يكون قبل المسلوخ[5] والأصل

---

(1) سورة القمر: الآية 50.

(2) سورة يس: الآية 82. يستثنى من هذه الميزة في الخلق، من خلق آدم بيديه سبحانه، حين قال في معرض توبيخه سبحانه لإبليس (قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ) سورة ص: ٧٥ والآية فيها ذكر لمظاهر تكريم، وعلامات تميز حظي بها آدم عليه السلام. ولا يلتفت في هذا المقام إلى من سعى إلى إنكار هذه الميزة وتفريغها من مضمونها بتفسيره لليد في الآية بالقدرة هروباً من إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، كالزمخشري وغيره. ينظر: الكشاف، للزمخشري (80/4)، دار الكتاب، بيروت، ط3، 2012م. ولا يتعذر على منصف أن يثبت لله هذه الصفات مع تزينه سبحانه عن المشابهة والمماثلة في ضوء قوله تعالى: (لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ)سورة الشورى:11.

(3) ينظر: أنوار التنزيل (341/1)، التحرير والتنوير، الشيخ محمد بن طاهر بن عاشور (161/8)، الدار التونسية للنشر، من موضوعات سور القرآن الكريم – تفسير سورة الأعراف – عبد الحميد محمود طهماز (59 - 60) دار القلم دمشق، ط11412هـ - 1992م.

(4) سورة يس: الآية 37.

(5) ينظر: روح المعاني (136/8)، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (655)، القاهرة، ط5، 1395ه-1975م، يقول الرماني: (نسلخ مستعار وحقيقته: يخرج =

ظلام الليل ونور النهار طارئ عليه.

وأن الله تعالى جعل الليل يغشى النهار أي يتبعه ويغلب على المكان الذي كان فيه ويستره حالة كونه يطلبه حثيثاً أي مسرعاً والمعنى أنه يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء[1].

والنتيجة التي يمكن استخلاصها من هذا العرض السريع لخلق الكون المشهود في ضخامته وفخامته، وما فيه من نواميس تضبط حركته، في هذه الدورة الدائبة: دورة الليل يطلب النهار في هذا الفلك، ومشهد الشمس والقمر والنجوم هي قوله تعالى: (أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ). أي هو الذي خلق الأشياء كلها، وهو الذي صرفها حسب إرادته؛ وجملة (أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ) مستأنفة استئناف التذييل للكلام من أول الآيات لإفادة تعميم الخلق والتقدير: لما ذكر آنفاً ولغيره[2]. فأتبع التعريف-بحقيقة وجود الله- بما يجاري الجمل الاعتراضية حال الكلام مما يلائم و يناسب ذلك تعريفه بقوله: (أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ) فأعلم باعتراضه لخلق ذلك كله وتصرف أمره في الجميع بما شاء، ثم أخبر بتعاليه وعظمته فقال: (تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ) فصرح بما هو فذلكة التقرير ونتيجته[3]. ثم أتبعها بآية تأمر العباد بالدعاء والتضرع إليه مذكرة باستصحاب الخوف، وتلك حال الموقنين، بعد معرفة حقيقة وجوده.

وفي مقام آخر عرض القرآن الكريم بعض المشاهد السماوية الباهرة، وما هي عليه من نظام دقيق، وتناسق بديع، وما فيها من مظاهر التدبير في الخلق، وظواهر النعمة على البشر، فالبروج في السماء والشمس والقمر، وظاهرة الليل والنهار وتعاقب أحدهما مكان الآخر، فيهما الكفاية للتعريف بالخالق القادر الحكيم وحقيقة وجوده.

قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾

=

منه النهار والاستعارة أبلغ لأن السلخ إخراج الشيء مما لابسه وعُسر انتزاعه منه لالتحامه به، فكذلك قياس الليل)، النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني (82)، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول، القاهرة، دار المعارف، 1955م.

(1) ينظر: تفسير المنار (453/8).

(2) ينظر: الكشاف (85/2)، التحرير والتنوير، (69/8).

(3) ينظر: ملاك التأويل، ابن الزبير الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح (499/2)، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط3، 2011م، أنوار التنزيل (342/1).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴾[1].

لقد ندب الله– سبحانه- إلى رؤية صنعته وقدرته وحكمته في هذا الفرد من مخلوقاته[2]. وعند استحضار السياق الذي وردت فيه الآيات نجد أنها جاءت بعد عرض لاستكبار واستخفاف المتبجحين والمتطاولين، الذين دعوا إلى عبادة الرحمن (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا) فهم يزعمون أنهم لا يعرفون اسم (ٱلرَّحۡمَٰنُ) ويرد على تطاولهم هذا بتمجيد الله سبحانه، والتعريف بحقيقته في آياته. فإنهم كانوا متجاهلين عن معرفته فضلاً عن كفر نعمته، فجاءت الآيات لتعرفهم بالخالق بعد أن تجاهلوه، وتذكرهم بنعمه التي كفروا بها. بعرض هذه المشاهد المقرونة بالنعم الحاصلة منها.

قال الرازي: (إن المراد إنكارهم لله لا للاسم، لأن هذه اللفظ عربية، وهم كانوا يعلمون أنها تفيد المبالغة في الإنعام، فكان قولهم (وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ) سؤال طالب عن الحقيقة)[3]. فكانت الآيات لبيان هذه الحقيقة- حقيقة الألوهية- في هذا المجال من الطبيعة.

وقال البقاعي: (ولما ذكر حال النذير الذي تبدأ به السور في دعائه إلى الرحمن الذي لو لم يدع إلى عبادته إلا رحمانيته لكفى، فكيف بكل صفة جمالوجلال، فأنكروه، اقتضى الحال أن يوصل به إثباته بإثبات ما هم عالمون به من آثار رحمانيته... راداً لما تضمنه إنكارهم من نفيه فقال: (تَبَارَكَ) أي ثبت ثباتاً لا نظير له (ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ) التي قدم أنه اخترعها(بُرُوجٗا) وهي الكواكب السيارة كالمنازل لأهلها سميت بذلك لظهورها)[4].

والبروج في هذه الفخامة هنا تقبل في الحس ذلك الاستخفاف في مقولة

---

(1) سورة الفرقان: الآية 61 – 62.

(2) ينظر: التفسير القيم، محمد بن أبي بكر ابن القيم، جمعه أويس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفقي (375)، مكة المكرمة، مطبعة السنة المحمدية، 1949م.

(3) مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (479/8)، إعداد وتحقيق: مكتب دار إحياء التراث، بيروت، ط1، 1429هـ - 2008م.

(4) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي(333/5)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1430هـ - 2009م، ينظر: أنوار التنزيل (146/2)، روح المعاني (39/19).

المشركين (وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ) ؟ فهذا شي من خلقه ضخم هائل عظيم في الحس وفي الحقيقة؛ وفي هذه البروج تنزل الشمس ويسميها (سِرَٰجٗا) لما تبعث به من ضوء إلى أرضنا وغيرها وما فيها القمر المنير الذي يبعث بنوره الهادئ اللطيف.

والآيات تعرض كذلك مشهد الليل والنهار وهما آيتان مكرورتان ينساهما الناس، وفيهما الكفاية (لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا) ولولا أن جعلهما كذلك يتعاوران الناس، ويخلف أحدهما أخاه، ما أمكنت الحياة على ظهر هذا الكوكب، بل لو أن طولهما تغير لتعذرت كذلك الحياة[1]. يقول الامام الطبري فيما يرويه عن ابن زيد: (لو لم يجعل الله الليل والنهار خلفة لم يُدْرَ كيف يُعمَل. فلو كان الدهر ليلاً كله كيف يدري أحد كيف يصوم، ولو كان الدهر نهاراً كله كيف يدري احد كيف يصلي)[2]. فالليل والنهار من آيات الله الدآلة على وجوده وعظمته، كما إنهما من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى.

ولا يخفى ما في كلمة (أَرَادَ) وتكريرها من دلالة على أن بواعث الهدى والإيمان، نابعة أيضاً من نفس الإنسان ومن كسبه واختياره، ولا بد للإنسان مع هذه البواعث، من توفيقه تعالى وهدايته ورحمته[3].

وعلى هذا فلذكر التذكر والشكر للناظر في هذه المشاهد المعروضة أهمية كبيرة في التأمل فيها، وعرفان إحسان المحسن، وآثارها العملية لمن التزم هذا التوجيه القرآني، ولذلك قال ابن عاشور: (اللام في (لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ) لام التعليل وهي متعلقة بـ (جَعَلَ)، فأفاد ذلك أن هذا الجعل نافع لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا... فتفيد الآية معنى: لينظر في اختلافهما المتفكر فيعلم أن لابد لانتقالهما من حال إلى حال مؤثراً حكيم)[4]. وقوله: (أَن يَذَّكَّرَ) راجع إلى كل ما تقدم من

(1) ينظر: في ظلال القرآن (2576/5)، والخلفة: هي الحالة التي يخلف عليها الليل والنهار كل واحد منهما الآخر، ينظر: الكشاف (221/3)، أنوار التنزيل (146/2).
(2) جامع البيان (622/5).
(3) ينظر: من موضوعات سور القرآن الكريم،تفسير سورة الفرقان، عبد الحميد محمود طهماز، (48)، القلم، دمشق، ط1، 1412هـ - 1992م.
(4) التحرير والتنوير (65/19).

المشاهد، بأن يتذكر آلاء الله ويتفكر في صنعته فيعلم أنه لابد من صانع حكيم[1].

ولما كان العلم بهذه الحقيقة ومعرفتها يقتضي العبادة وشكر المنعم الذي يكون قولاً وعملاً، ناسب أن يأتي لفظ (شُكُورًا) في التعقيب على هذه المشاهد، والذي يفيد في هذه الآية (الشكر بالقول والعمل)[2]. وهي حقيقة الشكر بعد حصول المعرفة[3].

وهكذا نجد القرآن الكريم يلون بين مجالات التعريف بحقيقة وجود الله. فيكون مجاله مرة السموات والأرض معاً، ومرة بالسموات والأرض وما بينهما من عناصر مضافاً إليها الظواهر الطبيعية وما فيها من النعم، لأن من عرف الخالق عن طريق آثاره في هذه الطبيعة ومظاهر ربوبيته، لا بد أن يربط بين النعمة الحاصلة منها وبين المنعم.

وقد يتفرع عن مجال السموات والأرض من أجل التعريف بهذه الحقيقة، إلى ما في العالم العلوي من آيات بينات دالة على هذه الحقيقة. فالشمس بضيائها الوهاج، والقمر بنوره الأخاذ، آيتان من آيات الله معروضتان للأنظار نراها كل يوم وليلة، ننساهما لطول الألفة ونفقد وقعهما في القلب بطول التكرار، مشهدان يردنا القرآن إليهما، فلو تأمل الإنسان تأمل المعتبر، لعلم أنهما لم يخلقا عبثاً، ولم يكونا صدفة، بل إنهما خلقا وفق حقائق ثابتة. وأن كل هذا النظام، وكل هذا التناسق، وكل هذه الدقة، لابد لهما من موجد أوجدهما.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[4].

---

(1) ينظر: مفاتيح الغيب (408/8) ، أنوار التنزيل (146/2).

(2) من أسرار البيان القرآني، د. فاضل صالح السامرائي (16)، دار الفكر، عمان، ط1، 1430هـ - 2009م. وقد بين أستاذنا الدكتور استعمال القرآن للمصدر، معللاً ذلك بأنه: في مقابلة الكفور – وهو على وزنه – من غير ذكر سبب ورود لفظ (شُكُورًا) في هذا الموضع دون غيره، ينظر: كلامه مفصلاً في كتابه (16-17) وما ذكرته يحتمل أن يكون المقصد الأول من اختيار اللفظ، كونه من مقتضيات التعريف، على نهج القرآن الكريم في عرض الحقائق الإلهية. والله أعلم

(3) ولذلك قال ابن القيم في بيان حقيقة الشكر في العبودية بأنه: (ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناءً واعترافاً. وعلى قلبه شهوداً ومحبة. وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة)، مدراج السالكين. ابن القيم، صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي (4/2)، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2004م.

(4) سورة يونس: 5.

قال الرازي: (اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على الإلهية، ثم فرع عليها صحة القول بالحشر والنشر، عاد مرة أخرى إلى ذكر الدلائل الدالة على الإلهية. واعلم أن المتقدمة (يعني المتقدمة على هذه الآية) في إثبات التوحيد والإلهية، هي التمسك بخلق السموات والأرض، وهذا النوع اشارة إلى التمسك بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع)[1].

وقال ابو حيان: (لما ذكر الدلائل الدالة على ربوبيته، من إيجاد هذا العالم العلوي والسفلي، ذكر ما أودع في هذا العالم العلوي من هذين الجوهرين النيرين المشرقين فـ(جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ)، أي: ذات ضياء؛ أو مضيئة...(وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا)، أي: ذا نور، أو منوراً...)[2].

والآية فيها استدلال على الإلهية ممزوج بالامتنان على المحجوجين به لأن الدليل السابق-أي الآية الثالثة-كان متضمنا لعظيم أمر الخلق وسعة العلم والقدرة بذكر أشياء ليس للمخاطبين حظ للتمتع بها. وهذه الآية تضمنت أشياء يأخذ المخاطبون بحظ عظيم من التمتع بها وهو خلق الشمس والقمر على صورتها وتقدير تنقلاتهما تقديراً مضبوطاً[3].

إن استحضار الجو العام الذي نزلت فيه هذه الآية يقوي تفهم الآراء المتقدمة، فقد نزلت في العهد المكي، وكان تركيز المنهج القرآني في هذا العهد على توحيد الربوبية، والتعريف بربوبيته تعالى، سيما أن أسم الرب تعالى تكرر في هذه السورة في أربعة وعشرين موضعاً. لست ممن يعول على الأرقام، في الوصول إلى المعاني، بيد أني أرى فيها متكأ للقول بأن التعريف بربوبيته تعالى من مقاصد السور، ومن أغراضها العامة، حتى غدا الحديث عن حقيقة الألوهية وتعريف الناس بربهم الحق، وتصحيح كل ما دخل على العقيدة الفطرية الصحيحة، الموضوع الأساسي للسورة [4].

والسنن الطبيعية التي تلازم الشمس والقمر، دليل على أن وراءها قوة مدبرة، يضاف إلى ذلك أن فيهما دليلاً على بطلان مذهب من عبد هذه الأجرام أو شيئاً منها، وحسبنا في هذا المقام دليل واحد من أدلة كثيرة تلكم هي: قصة خليل الرحمن وأبي

(1) مفاتيح الغيب (539/4).
(2) البحر المحيط، محمد بن يوسف ابو حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض (129/5)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1428هـ - 2007م.
(3) ينظر: التحرير والتنوير (93/5-94).
(4) للاستزادة والتعرف على موضوع السورة ومقاصدها، ينظر: نظم الدرر (411/3)، مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور، برهان الدين البقاعي، تحقيق د. عبد السميع محمد حسنين (165/2)، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1408هـ-1987م، في ظلال القرآن (1755/3)، التحرير والتنوير (78/5).

المسلمين في قصته مع الكواكب، فحين رأى أبو الأنبياء، أفول القمر أولاً والشمس ثانياً، والتغيرات التي تلازمها؛ التي يقضي العقل بأنها حوادث تحتاج إلى مؤثر واجب الوجود، وأثبت لهم أن الرب تعالى– الذي هو واجب الوجود– غير هذه الإجرام السماوية التي يؤلهونها، بدليل أفولها وتغيرها المشاهد بالحس، وندع القرآن الكريم يعرض لنا التدبر الذي يتبع المشاهد حتى تنطق له بسرها المكنون: (وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[1].

منهج القرآن ابتداءً هو تصحيح ما علق في الفكر البشري من انحرافات، ومادته الأساسية في هذ التصحيح هي المشاهد الطبيعية المنظورة، وقد تمثلت عملية التصحيح بأسمى صورها في محَّاجة إبراهيم– عليه السلام-ورده على قومه، وكيفية توظيف ذلك، لخدمة الدعوة إلى الله، وطريقة التعامل مع الآخر المختلف عقدياً.

يقول ابن جزُئْ في تفسير هذه الآيات (ذلك يقتضي محاجَّة وردّاً على قومه، وذلك أنهم كان يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن يبين لهم الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى أن هذه الأشياء لا يصح أن يكون واحداً منها إلهاً؛ لقيام الدليل على حدوثها، وأن الذي أحدثها ودبّر طلوعها وغروبها وأفولها هو الإله الحق وحده)[2].

---

(1) سورة الأنعام: 75 – 79.

(2) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزُيْ الكلبي الغرناطي (14/2)، دار الفكر، ينظر: الكشاف (32/2)، مفاتيح الغيب (78/4)، أنوار التنزيل (308/1)، وقوله: (هَٰذَا رَبِّي) في المواضع الثلاثة يؤكد كونه جازماً موقناً بعدم ربوبية غير الله وإنما قالها على جهة الفرض لإقامة الحجة على قومه، ومن باب استعمال النصفة أيضاً مع الخصوم، وشهادة القرآن له بالبراءة من ذلك، فقد نفى كون الشرك الماضي عن إبراهيم في قوله :(وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ) سورة البقرة: ١٣٥، في عدة آيات. ينظر: أضواء البيان، الشنقيطي، إشراف: بكر عبد الله أبو زيد (237/2)، منشورات المجمع الفقهي الإسلامي، جدة، دار الفؤاد للنشر والتوزيع، (908)، دفع إيهام الاضطراب، =

يفهم – على هدي من هذا – أن أبا الأنبياء قد عرف حقيقة الألوهية من خلال آثارها المتجلية في عناصر الطبيعة السماوية، الشمس والقمر والكواكب في طلوعها وأفولها، واطمئنانه لهذه الحقيقة التي يبحث عنها كما أنه وظّف المنهج التجريبي لإبطال معتقدات قومه، على أساس أن انطلاق النفس من المحسوسات إلى المجردات، أمر يستجيب لمبدأ التدرج في الإدراك الذهني، بخلاف الاقتصار على المجردات فإنه لا ينفع مع الماديين، إضافة إلى أن الزوال مشعر بضعف الزائل وعدم صلاحيته أن يتخذ إلهاً، بخلاف الباقي الدائم.

فخلص بعد تلك المناظرة على أنها حادثة مربوبة مسخرة طائعة لموجدها المنزه عن سمات التغير والحدوث ووجوب الاعتقاد بربوبية الله وحده.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في ختام الآية: (وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ) أي: يستدل به ليكون من الموقنين، واليقين عبارة عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة[1]. فأفادت الآية مع خاتمتها آثار الدعوة إلى التفكر وماله من أهمية من ربط بين الرؤيا للوصول إلى الحقيقة التي يرمي إليها القرآن وهي حقيقة وجود الله تعالى.

وعلى هذا التفسير تكون هذه الآيات موافقة في هديها، للآية التي نحن بصدد الحديث عنها، والتي تضمنت التعريف بالإله الخالق، وجعل مشاهد الطبيعة مجالاً واسعاً لهذا التعريف والدلالة التي تحملها هذه الآيات في أن توجيه الأنظار إلى هذا المجال مغرق في القدم.

ومع ثبات القرآن الكريم على التفريق المستمر بين الضياء والنور[2]. إلاّ أنه لم يكن مجتمعاً في آية واحدة إلا في هذه الآية من سورة يونس.

وهذه الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جسم ملتهب، مشتعل، مضيء بذاته، وبين سقوط هذا الضوء على جسم مظلم بارد وانعكاسه نوراً من سطحه، لم يدركه العلماء إلا في القرنين الماضيين، ولا يزال في زماننا كثير من

=

للشنقيطي (241)، الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، ابن المنير الاسكندري (32/2) بهامش الكشاف.

(1) ينظر: أنوار التنزيل : (432/2).

(2) ينظر: الآية 15من سورة نوح (وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا) والآية: 61 من سورة الفرقان: (تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا) ومعها الآية: 1من سورة الأنعام، والآية: 13 من سورة النبأ والآية: 20 من سورة البقرة.

الناس لا يدركونه[1]، ويرى بعض الباحثين أن الضياء أعلى مرتبة من النور، وكأنّ نور القمر يتجلى فيه ضياء الشمس، فهو مظهر لتجلّيه، ولذلك كان دونه في الاسم وفي الحقيقة[2]. باعتبار أن النور الصادر من القمر أصله من ضياء الشمس، والضياء أقوى من النور.

ولعل من موجبات تقديم (الشمس) على (القمر) في جميع المواضع التي ذكرا فيها مجتمعين يعود إلى هذه الأهمية وهذا الرتبة، فالشمس أكثر أهمية من القمر دون شك، فضلاً عن أنه بينها وبين القمر علاقة سببية، إذ هي السبب في ضوئه[3].

لذا ناسب أن تكون خاتمة الآية قال تعالى: (لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ) فالمشاهد المعروضة في الآية بحاجة إلى العلم لإدراك التدبير الكامن وراء هذه المشاهد والمناظر.

وهذا التفسير يلقي بظلاله على سر التعبير القرآني بـ(ضِيَآءٗ) الشمس و(نُورٗا) القمر، فقد فرق القرآن الكريم بينهما في هذه الآية الكريمة دون غيرها.

ولا يتسع المقام لتفصيل القول في هذا الموضوع، فإنه أفرد في كتابات مستقلة، وحق له هذا، وإني لست الآن بصدد بيان علم الفلك، ولا إني أبين أمثال هذا لأوضح به إعتقادي، ولكني أورد أمثاله لبيان أن البحث عن أشكال الأرض وأوضاعها والسموات ونجومها، وكل عناصر الطبيعة وظواهرها لا ينافيه القرآن، كما يعلمه من تدبره حق تدبره.

على هدي من هذا يتقوّى ما سبق عرضه من حقائق قرآنية تأتي في ثنايا آيات العقيدة، دون غيرها من المواضع، يمثل دعوة ملحة لأن تكون القواعد التي وضعها المفسرون، التي تعد وليدة استقراء أنجزه العلماء، أن يظل مفتوحاً؛ ليستوعب قواعد تنشأ عن حركة العلم المعاصر-وفق أصول التفسير وضوابطه-وتكون وليدة تفاعل

---

(1) ينظر: السماء في القرآن الكريم (506).

(2) ينظر:المشاهد في القرآن الكريم، دحامد صادق قنيبي، (37)، متتبة المنار' الأردن، ط1، 1984م. وهذا التفسير يتفق مع الواقع الذي يتمثل في المسافة بين هذه الأجرام وبين الأرض، التي يسقط عليها هذا الضياء نهاراً والنور ليلاً، فالشمس تبعد عن الأرض ثلاثة وتسعون مليون ميل تقريباً، في حين يبعد القمر أربعون ومائتا ألف ميل تقريباً. فهو دونها في الحقيقة بالنسبة لبعده عن الأرض. ينظر: العلم يدعو للإيمان، أ. كريسي موريسون، (55) ترجمة: محمود صالح الفلكي، ط6، القاهرة، دار النهضة، 1971م، الله والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل (25-27)، الناشرون العرب– القاهرة، 1971م، مع الله في السماء، أحمد زكي، (161) وما بعدها، القاهرة، دار الهلال. د.ت.

(3) ينظر: التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، ابن الزملكاني، تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي (150)، مطبعة العاني– بغداد، ط1، 1383هـ-1964م.

علماء التفسير مع حقائق الكون، والترجيح بنتائج العلم التي ارتقت إلى مستوى الحقيقة التي تدعمها التجربة، والتحرز من إقحام الفرضيات والآراء، من أجل تنقية كتب التفسير مما علق بها من توجيه لبعض الآيات الكونية مخالفاً للحقائق العلمية.

وبهذا تكون الآية قد عرضت مشاهد طبيعية للتعريف بالإله الخالق وحقيقة وجوده مقرونة بالإنعام الإلهي على الإنسان، فقد خلقه من التراب المظلم، وأنار له الوجود وجعله كله نوراً، مضافاً إليها ما لم يذكر هناك من الحقائق.

وفي موضع آخر يلفت القرآن الكريم النظر إلى السموات والأرض، لتعريف الناس بحقيقة الألوهية، يعرضها في أضخم المجالات في الطبيعة المنظورة، فهو يلفت النظر إلى السموات بنجومها وكواكبها وأفلاكها، وإلى هذا التناسق العجيب بين عناصر الطبيعة السماوية.

وهو أيضاً يلفت النظر إلى هذه الأرض الممتدة الفسيحة، وما عليها من جبال شامخة وأنهار جارية، وأشجار مثمرة، ثم قرن معها أضخم الظواهر الناشئة عن السموات والأرض وفق تدبير مقصود وهي ظاهرة الظلمات والنور. ليجعل منها مجالاً لتعريف الناس وحقيقة وجوده، يهدف القرآن من هذا التعريف، تعبيد الناس لربهم الحق.

قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[1].

فالذي خلق السموات والأرض هو الله، وهو المتفرد بالألوهية فيهما على السواء، فهو سبحانه يستحق الحمد لأنه خلق السموات والأرض، فإنه سبحانه بين موجب استحقاقه للحمد بقوله تعالى: (ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ) فإيجاده تعالى للموجودات كافٍ في استحقاقه تعالى للحمد فكيف بما يتفرع عليها من فنون النعم المنوط بها مصالح العباد في المعاش والمعاد[2]. فهو كقوله تعالى: (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)[3].

---

(1) سورة الأنعام الآية: 1.

(2) ينظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود العمادي (104/2)، دار إحياء التراث، بيروت، (ب.ت).

(3) سورة فاطر: الآية: 1، وينظر: الآية: 1 من سورة سبأ، فقد بينت استحقاقه سبحانه الحمد لأنه =

والحمد لا يكون إلا للفاعل المختار، فخلقه سبحانه للسموات والأرض كان بمحض مشيئته وإرادته، فكان قوله (ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ) تصريح بأن المؤثر في وجود العالم فاعل مختار، خلقه بالقدرة والمشيئة[1].

فإن مشهد السموات والأرض، على ما هما عليه من بديع الصنع والإحكام، وظاهرة الظلمات والنور مجالات تتجلى فيها حقيقة وجوده -سبحانه- وأحقيته بالحمد والثناء.

وقد بين الرازي وجوهاً في دلالة ما في السموات والأرض على وجود الله سبحانه أهمها: من تقدير هذه الأجرام بمقادير معينة، لا زيادة فيها ولا نقصان، وترتيب أجزائها ترتيباً معيناً، واختصاص كل فلك بمدار معين وتوجيه حركتها توجيهاً معيناً، ووقوع كل منها في حيز معين من الفضاء[2].

وهذا التفسير يتسق مع الجو العام الذي نزلت فيه السورة، والموضوع الأساس الذي تدور حوله، فقد نزلت في العهد المكي، حين كان المشركون من أهلها يتخذون مع الله آلهة أخرى، وموضوعها الرئيس قضية العقيدة الإسلامية ممثلة في قاعدتها الأساسية وهي حقيقة الألوهية والبيان الرائع لهذه الحقيقة في مجالها الواسع، ومشاهد الطبيعة أوسع هذه المجالات[3].

ولما كانت هذه المشاهد في الآية الكريمة تجمع بين عناصر الطبيعة وظواهرها، اختلفت الألفاظ في كل مشهد، فكانت كل كلمة تتناسب والمقام الذي قيلت فيه فجاء اللفظ (خَلَقَ) للسموات والأرض، ولفظ (وَجَعَلَ) للظلمات والنور (فإنّ في الخلق ملاحظة معنى التقدير، وفي الجعل ملاحظة معنى الانتساب، يعني كون المجعول مخلوقاً لأجل غيره أو منتسباً إلى غيره)[4].

(فالفعل (خَلَقَ) أليق بإيجاد الذوات، والفعل (وَجَعَلَ) أليق بإيجاد أعراض

=

مالك السموات والأرض ومدبر لهما، والآية: 1 من سورة الكهف، فقد بينت استحقاقه الحمد سبحانه أيضاً على إرساله الرسل لهداية عباده وإنزاله الكتب.

(1) ينظر: مفاتيح الغيب: (5/4).

(2) ينظر: مفاتيح الغيب: (6/4).

(3) للتعرف على موضوع سورة الأنعام. ينظر: مصاعد النظر (118/2)، في ظلال القرآن: (2 /1004)، التحرير والتنوير(123/3)، الوحدة الموضوعية في سورة الأنعام، رسالة دكتوراه، دكتور عباس عوض الله عباس، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان.

(4) التحرير والتنوير (126/3).

الذوات وأحوالها ونظامها)[1].

ويرى بعض المفسرين أن الآية فيها رد على الثنوية من المجوس القائلين بأن النور والظلمة يقومان بذاتهما، كما يزعمون أنهما هما المدّبران[2]. وبذلك يمكن القول أن الآية الكريمة تمثل رداً على الزعم الوثني والفلسفي القديم، الذي يرى بقدم العالم كما يرى بقدم الأنواع، فوق ما دلت عليه الآية من حقيقة وجود الله سبحانه. فكل ما سوى الله تعالى مخلوق محدث مسبوق بالعدم، والله سبحانه هو القديم الأول الخالق المبدع ﷻ.

وهذا المعنى ينتظم مع منهج القرآن الكريم في عرضه لحقيقة الألوهية، حين يبدأ بنبذ تصورات الإنسان الفكرية الخاطئة، التي أدت إلى فساد فطرته.

وهذا التفسير يلقي بظلاله على اختيار خاتمة الآية واستبعاد ما صنعه الكفار: (ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ) أي استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح الآيات، فالذي يعدلوا به الذين كفروا، أو الذين كفروا هم الذين يعدلون به، والمراد يعدلون بالله في الإلهية[3].

أي: إنَّ التعقيب بالكفر يقّوي انصراف دلالة الآية على صور الانحراف عند هؤلاء؛ لأن من مظاهر كفرهم زعمهم أن النور والظلمة مدبران، كما يمكن أن تنصرف الدلالة لتشمل كل صور الانحراف في كل زمان ومكان؛ وإذا كانت النكت كما يقال لا تتزاحم، فإن صور الانحراف التي تشملها الآية لا تتزاحم أيضا وكلها محتمل في ضوء المناسبة والسياق.

وهكذا تضمنت الآية الكريمة الأصل الكبير الذي يقوم عليه اعتقاد المسلم

---

(1) التحرير والتنوير (127/3)، فقد فرق بينهما الزمخشري من قبل وذكر كلاماً مفصلاً. ينظر: الكشاف (5/2) وتابعه في التفريق بين اللفظين ابن المنير في حاشيته على الكشاف، حيث قال: (إن للخاطر ميلاً إلى الفرق الذي أبداه الزمخشري، ويؤيده أن (جعل) لم يصحب السموات والأرض، وإنما لزمتها الخلق في هذه الآية إلى السموات والأرض، والجعل إلى الظلمات والنور مصداق للمميز بينهما) الانتصاف (5/2) بهامش الكشاف.

(2) ينظر: أنوار التنزيل (381/2)، ملاك التأويل (14/1)، تفسير المنار (295/7).

(3) ينظر: الكشاف (5/2)، الانتصاف (5/2) بهامش الكشاف، التحرير والتنوير (128/3)، وقد بين الشيخ الشنقيطي أن (ثم) في الآية لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون، فهو سبحانه متفرد بصفات الكمال، والخالق للسموات والأرض والظلمات والنور وحده، وحده لم يشاركه في ذلك أحد كما قال: (مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا)سورة الكهف: 51، ينظر: أضواء البيان (213/2) كما أنها تفيد البعد والتحقير لما صنعه الكفار الذين يجعلون لله شركاء يعدلونهم به ويساوونه، ينظر: جواهر البيان، للشيخ صديق الغماري (33)، دار الكتب، بيروت، ط2، 1406هـ - 1986م.

الموحد، وهو التمييز بين صفات الخالق وصفات المخلوق، كما تضمنت الرد على جميع الملل والنحل الضالة التي كان منشؤها التصور الفاسد، وبهذا تكون الآية الكريمة قد أضافت ما لم يذكر في الآية السابقة عليها في نجوم التنزيل فما ذكر ههنا من مشاهد أكثر وأضخم.

والقرآن الكريم يبين لنا أن جعل السموات والأرض وما بينهما، من مجالات التعريف بالخالق وبيان حقيقة وجوده وربوبيته مغرق في القدم، وهو ديدن الرسل عليهم السلام، وقد نقل لنا إجابة موسى "عليه السلام" لفرعون، حينما سأله عن صميم دعواه، ولكن بتجاهل واستهزاء، وكيف انه أجابه بالتعريف بالخالق الذي يدعو إليه وهو الله سبحانه، وذلك في قوله: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[1]. فقد جمع في جوابه بأضخم عناصر الطبيعة وهي: السموات، والأرض، وما بينهما، من عناصر الطبيعة وظواهرها.

قال البيضاوي في تفسير الآية: (عرفه بأظهر خواصه وآثاره لما امتنع تعريف الأفراد إلا بذكر الخواص والأفعال وإليه أشار بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم موقنين الأشياء محققين لها علمتم أن هذه الإجرام المحسوسة ممكنة لتركيبها وتعددها وتغير أحوالها، فلها مبدئ واجب لذاته وذلك المبدئ لابد وأن يكون مبدأ لسائر الممكنات ما يمكن أن يحس بها وما لا يمكن وإلا لزم تعدد الواجب[2]، أو استغناء بعض الممكنات عنه وكلاهما محال ثم ذلك الواجب لا يمكن تعريفه إلا بلوازمه الخارجية لامتناع التعريف بنفسه وبما هو داخل فيه لإستحالة التركيب في ذاته)[3].

وكما عرض القرآن الكريم مشاهد السموات والأرض إجمالاً للتعريف بالخالق وحقيقة وجوده، فإنه عرضها في مواضع أخرى تفصيلاً، وبيان ما فيها من عناصر وظواهر، منها ظاهرة الليل والنهار، وإنزال الماء من السماء، وإنبات النبات في

---

(1) سورة الشعراء: 24.

(2) الأساس العقلي للشعور بوجود الله تعالى يقوم على ما تقرر في علم التوحيد من أن أقسام المعلوم ثلاثة "واجب" و "مستحيل" و "ممكن".

فالواجب يستحق الوجود في ذاته ولا يتصور عدمه.

والمستحيل يستحق العدم من ذاته ولا يتصور وجوده.

الممكن ما لا يستحق من ذاته عدماً ولا وجوداً، وإنما يستمد وجوده، إن وجد، من واجب الوجود وحده. ينظر: الاقتصاد في الاعتقاد، الإمام الغزالي (26)، بغداد، مكتبة الشرق الجديد، مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (3/9-10)، درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (3/336)، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، 1401هـ-1981م.

(3) أنوار التنزيل (2/153)، ينظر: مفاتيح الغيب (8/498-499).

الأرض، وتصريف الرياح، وقرن معها آيات الأنفس كما هي عادة القرآن الكريم في كثير من المواضع، ثم جعل هذه المشاهد خاصة بالمؤمنين ليصل بهم إلى درجة اليقين، بعد أن يعملوا عقولهم لتدبر هذه المشاهد التي توحي بحقيقة وجود الخالق القادر. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

قال الزمخشري: (إنّ المنصفين من العباد إذا نظروا في السموات والأرض النظر الصحيح، علموا أنها مصنوعة، وأنه لابدّ لها من صانع، فآمنوا بالله وأقرّوا، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى هيئة، وفي خلق ما على الأرض من صنوف الحيوان: ازدادوا إيماناً، وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس؛ فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدّد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بعد موتها. (وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ) جنوباً وشمالاً... عقلوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم)[2].

والملاحظ أن الآيات الكريمة في عرضها لمشهد السموات والأرض لم يكن الحديث عن الخلق، وهو عرض يختلف عن المواضع الأخرى التي تتحدث عن هذين العنصرين في الطبيعة.

يقول البيضاوي: (إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ) يحتمل أن يكون على ظاهره وأن يكون المعنى إن في خلق السموات لقوله: (وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ) ولا يحسن عطف ما على الضمير المجرور بل عطفه على المضاف إليه بأحد الاحتمالين، فإن بثه وتنوعه واستجماعه لما به يتم معاشه إلى غير ذلك دلائل على وجود الصانع)[3].

فالآية الكريمة تتحدث عن الآيات المبثوثة في السموات والأرض ولا تقتصر على الخلق، كما لا تقتصر على شيء دون شيء من المشاهد، ولا حاجة للتقدير فإن عدم التقدير أسلم، فالظاهر أن التخصيص بالخلق غير مراد في الآية (بل في السموات والأرض على الإطلاق والعموم، أي: في أي شيء نظرت منهما من خلق

---

(1) سورة الجاثية: 3-5.
(2) الكشاف: (216/4-217)، ينظر: مفاتيح الغيب (669/9)، البحر المحيط (43/8)، روح البيان (587/8).
(3) أنوار التنزيل (386/2).

وغيره من تسخير وتنوير وغيرهما)[1].

كما يلاحظ في هذه الآيات التي عرضت عناصر الطبيعة وما ينتج عنها وما هو ليس منها، عبرت عن ذلك بثلاثة مشاهد متباينة، قرنت تلك المشاهد بثلاثه مقاطع، تباينت كل منها بتباين المشهد المعروض. أولها: (لِّلْمُؤْمِنِينَ) وثانيها: (لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) وثالثها: (لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

وقد علّل الرازي هذا الاختلاف بقوله: (إن سبب هذا الترتيب أنه قيل إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل)[2].

وهذا الوجه الذي ذكره الرازي وغيره من المعاني التي يفيض بها النص ويحتملها، لكن هذا الاقتران بين مشاهد الطبيعة والأنفس لابد له من دلالة، كما أن تباين التعقيب في كل مشهد له أسباب دعت المناسبة إلى ذكره ليجعل منه القرآن الكريم الغاية من ذكر هذا المشهد، ومن مقتضياته. وقد أشار البقاعي إلى هذا المعنى ونسبه إلى الحرالي بأن: (آية النفس منبهة على آية الحس، وآية الحس منبهة على آية النفس... وغاية آية الآفاق الإيمان، وغاية آية النفس اليقين)[3].

وبهذا التفسير تكون هذه الآيات قد جمعت بين مجالات متعددة ومتباينة، منها ما هو من الطبيعة من عناصر وظواهر، ومنها ما هو ليس من الطبيعة، فأضافت على سابقاتها الكثير من المشاهد وفصّلت ما أجمل هناك، ولابد لهذا التلوين والبيان من أثر كبير في الإشعار بحقيقة وجود الله وعظمته.

وقد ناسب أن يأتي بعد هذه الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾فمن لم ينتفع بهذه الآيات فلا شيء بعده يجوز أن ينتفع به، وأي كلام لن يبلغ كلام الله في القرآن. وإن أي إبداع لن يبلغ إبداع الله في الكون، وإن أية حقيقة لن تبلغ حقيقة الله في الثبوت والوضوح واليقين[4].

وفي موضع آخر بين القرآن الكريم هذا الحق الذي أشارت إليه الآيات من سورة الجاثية وأكد عليه، كما ربط بين كتابي الله المتلو والمنظور، وهو ما أشارت إليه الآيات السابقة أيضاً، فإن خلق السموات والأرض، وما بينهما من عناصر

---

(1) البحر المحيط (43/8).
(2) مفاتيح الغيب (671/9)، ينظر: البحر (44/8) وقد عزا البيضاوي السبب في اختلاف المقاطع الثلاث لاختلاف الآيات في الدقة والظهور. ينظر: أنوار التنزيل (387/2)
(3) نظم الدرر (91/7).
(4) ينظر: مفاتيح الغيب (672/9)، في ظلال القرآن (3224/5)

وظواهر وتدبيرهما وفق هذا النظام الواضح، والتناسق العجيب لم يكن لهواً ولعباً، وإنما كان خلقهما متلبساً بالحق، الذي ينبغي أن يوحي بوجود الله، وبقدرته في هذا الخلق الضخم.

يقول سبحانه: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾[1].

قال البيضاوي: ((وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ)) إلا خلقاً ملتبساً بالحق، وهو ما تقتضيه الحكمة، وفيه دلالة على وجود الصانع الحكيم، والبعث للمجازاة، على ما قررناه مراراً)[2].

والآية الكريمة فيها تأكيد للعلاقة بين كتابي الله المسطور والمنظور، فكلاهما قائم على الحق والتدبير فتنزيل الكتاب (مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ) وهو مظهر للقدرة وموضع للحكمة. وخلق السموات والأرض وما بينهما متلبس بالحق (وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ) وبالتقدير الدقيق (وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) تتحقق فيه كلمة من خلقه، ويتم فيه ما قدره له من غاية.

وكلا الكتابين مفتوح، ومعروض على الأسماع والأنظار، ينطق بقدرة الله ويشهد بحكمته، ويدل على تدبيره، كما يدل كتاب الكون على □دق الكتاب المتلو، وما فيه من إنذار وتبشير، (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ)... وهذا هو العجب المستنكر في ظل الإشارة إلى الكتاب المنزل والكتاب المنظور![3].

فقد خلق الله السموات والأرض، وأنزل الكتاب بالحق، وعلى الناس ان يفيئوا إلى هذا الحق الذي أنزله الله تعالى حتى لا تفسد الأرض. عليهم ان يفيئوا إلى هذا الحق في عقيدتهم، فهو الذي يحميهم من فساد الت□ور وظلام الشكوك، وانحراف الطريق، عليهم أن يعلموا أن لا إله إلا الله وأن لو كان معه غيره، لفسدت السموات والأرض: (لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ)[4]. كما عليهم بتطبيق شريعته، والوقوف

(1) سورة الأحقاف: 1-3.
(2) أنوار التنزيل: (426/2).
(3) ينظر: في ظلال القرآن: (325/6).
(4) سورة الأنبياء من الاية :22

عند حدوده، وحمل الناس على ما يـ□لحهم(1).

لقد تضمنت الآيتان طرق التعريف بالخالق، وشهادته عليه، وهي الآيات القولية المتلوه، وهي أقواله وكلماته، وآيات الأفاق وهي أفعاله ومخلوقاته. فآيات الآفاق المخلوقة والنظر فيها، تدل على ما تدل عليه الآيات القولية المسموعة.

يقول ابن القيّم (فاعلم أن الله سبحانه –في الحقيقة– هو الدال على نفسه بآياته. فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نـ□ب لهم من الدلالات والآيات)(2).

وكتاب الكون يشهد بحقيقة الألوهية، فنظامه وتناسقه مما يشهد بوحدانية الـ□انع المدّبر ووجوده، ومشاهد الطبيعة معروضة للأنظار والقلوب وهي مجال للتعريف بهذه الحقيقة، وأن مجرد التأمل في آياتها ليقود الإنسان إلى الإيمان بالله، ويوحي له بحقيقة وجوده.

ولما كانت الغاية من عرض هذه المجالات -السماء و الأرض- ومقتضياتها هي عبادة الله وحده جاءت الآية التالية لهذه المشاهد، في توبيخ المشركين وعبادتهم للأ□نام والأوثان، والتي لم يكن لها تأثيرٌ في شيء من الأرض أو نـ□يب في خلق السموات حتى تستحق العبادة، وذلك في قوله تعالى: (قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ).

قال القاسمي: (قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ) أي: من الأوثان التي تعبودنها. (أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ) أي: أروني ما تأثير ما تعبدونه في شيء أرضي بالاستقلال، أو شيء سماويّ بالشركة، حتى تستحق العبادة. (ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ) تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقليّ، بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند علقيّ)(3).

وقد كثرت الآيات التي تتحدث عن خلق السموات والأرض، والحق الذي قارن خلقهما، فبين في بعض الآيات، إن ما في السموات والأرض من آيات بينات، وأن تدبر وتأمل هذا، عن إدراك ووعي، يوحي بأن هذا الوجود قائم على الحق، ثابت على الناموس وينفي فكرة المـ□ادفة، وهذه الحقيقة بينتها الكثير من آيات القرآن

---

(1) الخلافة في الأرض، أ.د. أحمد حسن فرحات، (36)، دار عمار للنشر، عمان، 2002م

(2) ينظر: مدراج السالكين (549/2)، التفسير القيم (195).

(3) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: أحمد بن علي، حمدي □بيح (322/8)، دار الحديث، القاهرة، 1424هـ - 2003م.

الكريم[1].

وإذا كان القرآن الكريم قد عرض مشاهد الطبيعة إجمالا وقرن إيجادها بهذا التناسق العجيب، بالحق، وبين أنهما لم يخلقا لهواً وعبثاً، من أجل التعريف بالخالق وحقيقة وجوده، فإنه في موضع آخر عرض مشهداً جامعاً للطبيعة السماوية والأرضية وبين الكثير من التفا□يل، للغرض ذاته. تتمثل في الماء النازل من السماء، وما ينبت في الأرض من الزرع والنخيل والأعناب، وما في الأرض من البحار والجبال والأنهار، وما ينتج من دورانها من ظاهرة الليل والنهار، وما فوقها من أفلاك وشمس وقمر ونجوم، كلها مشاهد منظورة ومقترنة بالنعم الإلهية تتجلى فيها حقيقة وجود الخالق وربوبيته.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ
تُسِيمُونَ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ
وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ
ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ
مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (١٤) وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ
أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٥) وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ (١٦) أَفَمَن
يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ

---

(1) ينظر: الآيات 73 من سورة الأنعام، الآية: 19 من سورة إبراهيم، الآية: 85 من سورة الحجر، الآية: 3 من سورة النحل، الآية: 44 من سورة العنكبوت، والآية: 8 من سورة الروم والآية: 8 من سورة ص، الآية 38 من سورة الدخان. وقد أحسن الشيخ محمد حامد الفقي إذ بين معنى الحق في هذه الآيات فقال: (والحق في هذه الآيات وغيرها معناه: الحقيقة الثابتة، يعني أن الله سبحانه اقتضت حكمته ورحمته وعدله: أن يخلق كل شيء في السموات والأرض على حقائق ثابته، وسخرها للإنسان لينتفع بها ويستفيد منها، ويتربى بها ويسمو ويعلو على مدارج الكمال، ما دامت باقية في نظره وتقديره وفهمه واستعماله على تلك الحقائق الثابتة) التفسير القيم (86) هامش (1).

رَّحِيمٌ ﴾[1].

سبقت هذه الآيات الحديث عن الإراداة الإلهية والإرادة البشرية فيما يخص الهدى والضلال، وإقامة الحجة على الخلق في بيان السبيل القاصد والسبيل الجائر.

في قوله تعالى: (وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ)[2]. فالسبيل القاصد هو الطريق المستقيم الذي لا يلتوي، والسبيل الجائر هو المنحرف المجاوز للغاية لا يوصل إليها، والله تعالى شاء أن يخلق الإنسان مستعداً للهدى والضلال، وأن يدع لإرادته أختيار طريق الهدى أو طريق الضلال[3]. وبعد هذا البيان جاءت هذه الآيات التي تبين الطريق إلى الله تعالى بآياته المنظورة.

يقول سيد قطب في تفسير هذه الآيات: (الماء ينزل من السماء وفق النواميس التي خلقها الله في هذا الكون، والتي يدبر حركاتها، وتنشئ نتاجها وفق إرادة الخالق، بقدر خاص من أقداره ينشئ كل حركة وكل نتيجة. (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ)... والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير، وهم يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما ينشئه على الأرض من حياة وشجر وزهور وثمار، وبين النواميس العليا للوجود، ودلالتها على الخالق... ومن مظاهر الحكمة والتدبير في الخلق، وظواهر النعمة على البشر في آن.. الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم... كل أولئك طرف من حكمة التدبير وتناسق النواميس في الكون كله، يدركون أصحاب العقول التي تتدبر وتعقل وتدرك ما وراء الظواهر من سنن وقوانين)[4]. ومن المشاهد التي عرضتها الآيات في الطبيعة الأرضية، مشهد البحر

---

(1) سورة النحل: 10-18.

(2) سورة النحل: 9.

(3) ينظر: مفاتيح الغيب (178/7)، الانتصاف (438/2)، بهامش الكشاف، أنوار التنزيل (539/1)، البحر المحيط (436/5) في ظلال القرآن (2162/4).

(4) في ظلال القرآن (21062/4-21063)، ومن العلماء الذين عدوا هذه الآيات في سياق التعريف بالخالق وإثبات وجوده تعالى: البيضاوي في تفسيره (540/1)، وابن الزملكاني في البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن (86/1)، تحقيق: د. خديجة الحديثي و د. احمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1394هـ - 1974م. وابن الزبير الغرناطي في ملاك التاويل (580/2)، والسيوطي في معترك الأقران في إعجاز القرآن (44/1)، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الثقافة العربية (ب.ت)، والخطيب الموصلي في تفسيره أولى ما قيل في آيات التنزيل (124/5)، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1392هـ - 1972م، وتابعهما في هذا الرأي أستاذنا الدكتور فاضل السامرائي في التعبير القرآني (221)، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ط1، 1989م، فضلاً عن أقوال العلماء السابقة واللاحقة، كما سيتبين، وفي هذا =

وما سخر الله فيه من منافع...حيث يستخرج اللؤلؤ والمرجان للزينة، وتجري فيه السفن، وتحمل الناس والمتاع من بلد إلى بلد...وفي مقابل البحر، وما فيه من النعم، هذه الأرض اليابسة، وما فيها من ايات...(وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)...فإلى جوار معالم الطريق التي يهتدي بها السالكون في الأرض من جبال ومرتفعات ومتعرجات ذكر النجم الذي يهدي في البر والبحر سواء[1]. والاهتداء بالنجوم يراد منه قريش، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم، والاعتبار ألزم لهم[2].

ولما كانت المشاهد تربط بين حقيقة وجود الخالق، وبين النعم الإلهية، من أجل بيان المقصد الأول –حقيقة وجوده تعالى– جاء التعقيب على كل مشهد من هذه المشاهد مبايناً للتعقيب على غيره من المشاهد. فمرة تختتم بقوله: (لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) ومرة (لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ومرة (لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)

قال السيوطي: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فجعل مقطع الآية التفكر، فإنّه استدلال بحدوث الأنواع المختلفة من النبات على وجود الإله القادر المختار و(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فجعل مقطع هذه الآية كأنه قيل إن كنت عاقلاً فاعلم أن التسلسل باطل فوجب انتهاء الحركات إلى حركة يكون موجدها غيرك وهو الإله القادر المختار و(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) كأنه قيل اذكر ما ترسخ في عقلك أنّ الواجب بالذات والطبع لا يختلف تأثيره، فإذا نظرت حصول هذا الاختلاف علمت أنّ المؤثر ليس هو الطبائع بل العقل المختار؛ فلهذا جعل مقطع هذه الآية التذكر)[3]. وبهذا يتبين أن هذه المشاهد المعروضة تنسجم فيها

=

رد على من جعل الآيات في سياق بيان قدرة الله تعالى، كما ذهب الشيخ عبد الكريم الخطيب، ينظر: تفسيره(270/14) دار الفكر العربي، القاهرة، 1967م، وتابعه في ذلك أحد الباحثين، ينظر: المشاهد في القرآن الكريم (231).

(1) ينظر: التفسير القرآني للقرآن (280/14).

(2) ينظر: الكشاف (440/2)، مفاتيح الغيب (991/7)، أنوار التنزيل (540/1)، البحر المحيط (467/5).

(3) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق: أحمد بن علي (258/2)، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1427هـ-2006م. وبهذا يتبين أن الفاصلة القرآنية تتناسق ومشاهد الطبيعة المعروضة، وتتناسب والغرض الذي ذكرت من أجله، وعليه لا يصح القول برعاية الفاصلة، وليس في =

النغمة مع الفكرة ويتعانق فيها التناسق الموسيقي مع المنطق الفطري[1].
وكما تجتمع النغمة مع الفكرة في هذه المشاهد، كذلك تقرن الآيات بين الجمال والفكرة، ففي قوله تعالى: (وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ) يشي التعبير بتلبية حاسة الجمال لا بمجرد الركوب والانتقال، وفي قوله تعالى: (وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ) لفتة إلى متاع الرؤيا وروعتها. وتحمل (الخاء) إلى الأذن صوت الفلك وهي تشق الماء وتفرق العباب[2]. والجمال في هذه المشاهد هو من المنافع المعنوية التي كثيراً ما تقترن مع المشاهد الطبيعية.
وهكذا نجد أن سياق الآيات الذي عرض هذه المشاهد المتباينة الكثيرة، وقرن معها النعم الإلهية المادية والمعنوية. فإنه يشير إلى المصادر الكونية للرزق، وإلى الاسباب الكونية له، ويشير إلى إعداد الأرض وإلى تسخير الشمس والقمر والنجوم والظواهر الكونية كلها لإعانة الحياة والأحياء. لذلك نجد القرآن الكريم يدلنا على أصل الرزق العام من مصادره، التي ليس للإنسان عليها من سلطان، إلا أن يسخرها الله له، ويعلمه كيف ينتفع بها بمعرفة سننها. وبذلك يكون القرآن الكريم قد خلص الفكر البشري من الأوهام والأباطيل التي يمكن أن يتصورها في قضية الرزق. ونبذ كل ما خالط الفكر البشري في سياق التعريف في بحقيقة وجوده تعالى.
ثم جاء التعقيب على هذه المشاهد وما فيها من نعم بقوله تعالى: (وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ) أي لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم، فضلاً على أن تشكروها، وأكثر النعم لا يدريها الإنسان، وأن هذه النعم التي عرضتها الآيات وراءها ما لا ينحصر ولا يعد[3].
وبهذا تكون هذه الآيات الكريمة قد عرضت الكثير من المشاهد بكونها مجالاً

=
القرآن كله كلمة تقدمت أو تأخرت لأجل الفاصلة وإنما المقدم في ذلك المعنى. ينظر: تفسير المنار (12/2) المعجزة الكبرى، الشيخ محمد أبو زهرة (323) دار الفكر العربي، القاهرة، 1970م.
(1) إن تحقيق الجوانب الفكرية للمشاهد الطبيعية في القرآن الكريم لم يكن بمعزل عن إعجاز القرآن وبلاغته، وقد أشار إلى ذلك الخطّابي بقوله: (...واعلم أنّ القرآن الكريم انما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الالفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني)، بيان إعجاز القرآن، للخطابي، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول (34)، دار المعارف، مصر، 1955م.
(2) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، (69) نهضة مصر، القاهرة، ط3، (ب.ت).
(3) ينظر: الكشاف (441/2)، البحر المحيط (468/5)، محاسن التأويل (378/6).

واسعاً تتجلى فيه حقيقة وجود الله تعالى، وما فيها النعم الإلهية، فأضافت على سابقتها إضافات كثيرة، وفصّلت الكثير، فكان هذا التفصيل مناسباً في هذه السورة التي تسمى سورة النعم.

وفي موضع آخر عرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية، من أجل التعريف بحقيقة الألوهية، فالقرآن الكريم يلفت الأنظار إلى هذه المشاهد المقرونة بالنعم على الإنسان، نعمة السكن في الأرض التي مهدها خالقها وجعلها كالفراش المبسوط. ونعمة الرزق الذي يتسبب من إنزال الماء من السماء وما يخرج به من الثمرات، وهذه النعم الظاهرة –السكن والرزق– هي قوام بقاء الإنسان، كلها تأتي في سياق واحد، يجعلها القرآن الكريم مجالاً تتجلى فيه حقيقة وجود الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

هذه الآية الكريمة سبقها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2]. وهو نداء لكل الناس لعبادة ربهم، ربهم الذي تفرد بالخلق، فوجب أن يتفرد بالعبادة، لعلهم ينتهون إلى الهدف من العبادة ويحققوه وهو التقوى، فلما أمر بعبادته سبحانه والأمر بالعبادة موقوف على معرفة وجوده، نبه إلى أمور مشاهدة يصل إليها كل عاقل بأول وهلة من دحو الأرض وما بعده من مشاهد، في سياق منبه على النعمة دالاً على الإله[3].

قال البيضاوي: (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا)... ومعنى جعلها فراشاً أن جعل بعض جوانبها بارزاً ظاهراً عن الماء، مع ما في طبعه الإحاطة بها، وصيرها متوسطة بين الصلابة واللطافة حتى صارت مهيأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة، لأن كرية شكلها مع عظم حجمها. واتساع جرمها لا تأبى الافتراش عليها. (وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً) قبة مضروبة عليكم، والسماء

---

(1) سورة البقرة: 22.
(2) سورة البقرة: 21.
(3) ينظر: مفاتيح الغيب (332/1)، نظم الدرر (56/1) يقول ابن كثير– رحمه الله-: استدل كثير من المفسرين في هذه الآية على وجود الصانع تعالى وهي دالة على ذلك، ينظر: مختصر ابن كثير: الحافظ عماد الدين ابن كثير: (85/1)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1410هـ-1999م.

أسم جنس يقع على الواحد والمتعدد)[1].
ثم ينتقل البيان من عناصر الطبيعة إلى ظواهرها، ظاهرة نزول الماء من السماء وما يخرج به من الثمرات الذي يعبر عنه القرآن بالرزق ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾وهي ظاهرة كثيراً ما يتردد ذكرها في مواضع من القرآن، كما يتكرر حدوثها كثيراً في الواقع، سيقت في هذا الموضع للتذكير بقدرة الله، والتذكير بنعمة الله، يجعلها القرآن مع غيرها من المشاهد مجالاً من مجالات متعددة تتجلى فيها حقيقة وجود الله. في معرض الدعوة إلى عبادة الله.
قال الطبري (...ذكر نعم الله علينا، لنتذكرها، لنعبده ونشكره ونخلص له. ذكر في هذه الآية أربع نعم غامرة عليا، تفضل الله بها تفضلاً منه: أولاً: الأرض فراشاً. ثانياً: السماء بناءً. ثالثاً: الماء النازل من السماء. رابعاً: النبات الخارج من الأرض. وهذه النعم كلها بيد الله، ومن فعله وحده سبحانه)[2].
وإظهاراً لإفادة العلم والتعريف بهذه الحقيقة فقد رتّب القرآن الكريم هذه المشاهد المتباينة أحكم ترتيب، فقدم ماهو أظهر دلالة وأقوى إفادة، ثم ذكر ما يليها من مشاهد وعناصر.
قال الرازي: (قدم الأرض لأن الأرض أقرب إلى الإنسان من السماء والإنسان أعرف بحال الأرض منه بأحوال السماء، وإنما قدم ذكر السماء على نزول الماء من السماء وخروج الثمرات بسببه لأن ذلك كالأمر المتولد من السماء والأرض والأثر متأخر عن المؤث، ولهذا السبب أخر الله ذكره عن ذكر الأرض والسماء)[3].
ولما كان هدف القرآن من التعريف بهذه الحقيقة وإتخاذ مشاهد الطبيعة مجالاً لها هو وجوب العبادة لله، ناسب أن يكون التعقيب على هذه المشاهد (فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) تعلمون أنه جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء. فالشرك بعد هذا العلم لا يليق. وفي تعقيب (وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) لما قبلها غاية التبكيت[4]. والتوبيخ، أي وحالكم أنكم من أهل العلم والنظر وإصابة الرأي، فلو

---

(1) أنوارالتنزيل (36/1)، ينظر: روح البيان (107/1). (ﺟﻌﻞ) هنا بمعنى تصبير الشيء على حالة دون حالة، ينظر: المفردات، الاصفهاني مادة (ﺟﻌﻞ)، الكشاف (4/2)، البحر المحيط (237/1).
(2) جامع البيان (154/1).
(3) مفاتيح الغيب (336/1)، ينظر: البحر المحيط، (239/1)، نظم الدرر (58/1).
(4) التبكيت: كالتقريع والتعنيف وبكّته بالحجة تكبيتاً غلبه، ينظر: نظم الدرر (58/1).

تأملتم أدنى تأمل أضطر عقلكم إلى إثبات موجود للمكنات منفرد بوجوب الذات[1].

وإذا كان القرآن الكريم قد فصّل بعد الإجمال -كما مر بيانه- في عرض مشاهد الطبيعة على مستوى أكثر من سورة في ترتيب النزول، فإنه يفصّل أيضاً على مستوى السورة الواحدة في الترتيب التوقيفي. فإن ما ذكر في الآية السابقة من مشاهد السماء والأرض وظاهرة نزول الماء، تم عرضه بأسلوب مفصّل في موضع آخر من السورة. عرض المشاهد السماوية وما اشتملت عليه من عجائب الصنع وإحكام التدبير، وبعده عرض المشاهد الأرضية وما اشتملت عليه من منافع لبني الإنسان، لما فيها من حيوان ونبات، ثم الإشارة إلى المشاهد الحاصلة بين السماء والأرض. كنزول الغيث لإحياء الأرض وإنبات الزروع والأشجار، وتصريف الرياح ومالها من أهمية في حياة الإنسان، واختلاف الليل والنهار، وما فيها من خير ونعمة. فجمعت الآية الكريمة ثمانية مشاهد، ثم جعلها القرآن مجالاً واسعاً تتجلى فيه حقيقة وجود الله سبحانه. وهذه المشاهد مع كونها مجالاً لبيان هذه الحقيقة فهي نعم إلهية، وهذا الإقتران له أثر كبير في الحس والوجدان. كما تجمع بين المنافع المعنوية والمادية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

عرض القرآن الكريم هذا الحشد من مشاهد الطبيعية بعد تقرير الوحدانية بقوله تعالى: (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ) وهو خطاب عام، والله سبحانه فرد في الإلهية لا شيرك له فيها ولا يصح أن يسمى غيره إلهاً، والمستحق منكم العبادة واحد لاشيرك له[3].

قال البيضاوي: (إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)إنما جمع السموات وأفراد الأرض، لأنها طبقات متفاصلة بالذات مختلفة بالحقيقة بخلاف الأرضين. (وَٱخْتِلَٰفِ

---

(1) ينظر: الكشاف (79/1)، مفاتيح الغيب (344/2)، أنوار التنزيل (138)، نظم الدرر (58/1)، في ظلال القرآن (47/1).
(2) سورة البقرة: 164.
(3) ينظر الكشاف: (161/1)، مفاتيح الغيب (150/2)، روح البيان (322/1)، محاسن التأويل (14/2).

ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ) تعاقبهما كقوله تعالى: (جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً)[1]. (وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ) أي ينفعهم... وتخصيص الفلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على عجائبه...(وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ) من الأولى للابتداء، والثانية للبيان.

والسماء يحتمل الفلك والسحاب وجهة العلو... واعلم أن دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدته من وجوه كثيرة)[2].

وبين هذه المشاهد عرضت الآية ما هو ليس من الطبيعة، فأشارت إلى ما يترتب على نزول الماء وإحياء الأرض بالنباتات من بث الدواب ونشرها في الأرض راعية، ثم عادت الآية بعرض ظواهر الطبيعية كظاهرة تصريف الرياح والسحاب.

قال الزمخشري: (فإن قلت: قوله: (وَبَثَّ فِيهَا) عطف على أنزل أم أحيا ؟ قلت الظاهر أنه عطف على أنزل داخل تحت حكم الصلة، لأنّ قوله: (فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ) عطف على أنزل، فاتصل به وصارا جميعاً كالشيء الواحد، فكأنه قيل: وما أنزل في الأرض من ماء وبثّ فيها من كل دابة. ويجوز عطفة على أحيا على معنى فأحيا بالمطر الأرض وبثّ فيها من كل دابة؛ لأنهم ينمون بالخصب ويعيشون بالحيا.(وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ) في مهابها: قبولاً، ودبوراً، وجنوباً، وشمالاً. وفي أحوالها: حارة، وباردة، وعاصفة، ولينة... (وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ) سخر للرياح تقلبه في لجو بمشيئة الله يمطر حيث شاء)[3].

وإذا كان الجمع في هذه المشاهد بين الآية والنعمة على العباد (أوضح لمن يتأمل، وأبهر لمن يعقل إذ التنبيه على ما فيه النفع باعث على الفكر)[4] فإن التفصيل الكثير عن عناصر الطبيعية وظواهرها له أثر كبير في توجيه الفكر للنظر في هذه المشاهد الضخمة. قال العلوي: (هذه تفاصيل لما ترك إيجازه وهو أن جميع الممكنات الموجودة كلها حاصلة بقدرة الله تعالى، ولكنه آثر الإطناب لما فيه من تقرير القدرة الباهرة، والحث على النظر في هذه الممكنات العظيمة التي لا دليل أعظم منها، ولا

(1) سورة الفرقان: من الاية 62.
(2) أنوار التنزيل (97/1).
(3) الكشاف (162/1)، البحر المحيط (639/1).
(4) البحر المحيط (642/1).

برهان أقوى من برهانها على وجود صانع لها محكم بصنعتها)[1].
يشهد لهذا المعنى قوله ﷺ: (لقد نزلت عليّ الليلة آية ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها: (إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بِمَا..) الآية كلها[2].

ولذلك جاء التعقيب على هذه المشاهد وما فيها من عجائب بقوله: (لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فإن كل هذه المشاهد المعروضة هي آيات خص بها أهل العقول، يتفكرون بها وينظرون إليها بعيون عقولهم[3].
وأن هذا التفصيل مهم جداً في الوصول إلى الحقيقة التي يرمي إليها القرآن وهي حقيقة وجود الله. كما أنه جاء في محله، في الآية الكريمة، لما سبقه من الإجمال في مطلع السورة، كما أن السياق الذي وردت فيه الآية ـوهو الخطاب العام- أقتضى هذا التفصيل.
وقد جعل السيوطي الإطناب في هذه الآية إطناب (البسط) لأنه تّم بتكثير الجمل، ووصفه بأنه أبلغ الإطناب، وعلله بأنه خوطب به الثقلان في كل عصر وحين، للعالم والجاهل والموافق والمخالف[4].
وهذا التعليل الذي ذكره السيوطي يتسق مع الجو العام الذي نزلت فيه السورة في العهد المدني، وكان فيها من اليهود والنصارى والمشركين، وهذه الفئات الثلاثة هم المخالفون لما أصابهم من إنحراف في التصور لحقيقة الألوهية. وعبارات السلف في شأن أسباب النزول تؤيد ذلك. كما يؤيده الآية التالية لها وهي قوله تعالى: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ) والأنداد أمثال من الأصنام. وقيل

---

(1) الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، تحقيق: بن عيسى با طاهر (282) دار المدار الاسلامي، ط1، بيروت، 2007م، ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشي (173)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1435هـ - 2014م.
(2) ينظر: الحديث كلاملاً في: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، الحافظ نور الدين الهيثمي، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، باب البكاء في الصلاة (140/139)، دار الكتب العلمية، بيروت، والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (94/1)، رقم الحديث (68)، المكتب الإسلامي، بيروت.
(3) ينظر: الكشاف (162/1)، مفاتيح الغيب (175/2)، أنوار التنزيل (98/1)، محاسن التأويل (15/2).
(4) ينظر: الإتقان في علوم القرآن (64/2).

الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم[1].

والآية الكريمة بينت أن من أحب من دون الله شيئاً، كما يحب الله تعالى: فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهو ند في المحبة، لا في الخلق والربوبية [2].

فإن صور الأنداد في كل عصر وحين تتكرر وصورها تختلف باختلاف هذه العصور، قد تكون أشخاصاً أو أشياء يرجون منها النفع ويحبونها محبة تقليدية جاهلية، وقد تكون أفكاراً أو تيارات ما أكثرها في زماننا، اتخذها الناس أنداداً في الحب والتعظيم.

أما المؤمن فمحبته تقوم على العلم الصحيح من معرفة الله، من خلال آثاره في هذه المجالات التي عرضتها الآية، معرفة حقية وجوده ووحدانيته، معرفة صحيحة واضحة، يتحول فيها إيمانه إلى حياة مليئة بالشعور الدائم من المحبة والعظمة لله.

وهذه المحبة عبرت عنها خاتمة الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ إشارة إلى فائدة المعرفة وثمرتها.

وهذه الآية التي تضمنت الكثير من مجالات الطبيعة التي تتجلى فيها حقيقة وجود الله سبحانه، واستحقاقه وحده خضوع ما في السموات والأرض من نواميس وآيات باهرة مما يدركها العاقل المتدبر. تمثل دعوة إلى النظر في هذه النواميس وهذه الآيات.

ويشير ابن بدران إلى أن الآية الكريمة أرشدت إلى النظر في عدة علوم[3].

أحدهما: علم الهيئة الذي يبحث في العلويات.

وثانيها: فن طبقات الأرض.

وثالثها: فن الحيوان بأجمعه.

ورابعها: علم الأحوال الجوية.

وبهذا تكون هذه الآيات قد فصّلت ما أجمل في أول السورة، فما ذكر ههنا من مشاهد أكثر بكثير من الموضع السابق من السورة، كما أنها ذكرت بعض المشاهد التي عرضتها الآيات من سورة النحل، وأضافت إليها بث الدواب على الأرض. وبهذا تبرز صور التناسب في الموضعين، في التفصيل بعد الإجمال في الترتيب التوقيفي للسورة، وصور التكامل في ترتيب النزول بين أجزاء الموضوع الواحد.

---

(1) ينظر: الكشاف(162/1)، مفاتيح الغيب(175/2)، أنوار التنزيل(98/1)، محاسن التأويل (18/2).

(2) ينظر: مدارج السالكين (226/2).

(3) ينظر: جواهر الأفكار ومعادن الأسرار، عبد القادر بن أحمد بن بدران، تحقيق: زهير الشاويش (421)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1420هـ.

المبحث الثاني

الطبيعة الأرضيـة

وكما لفت القرآن الكريم الأنظار إلى آيات الله في الطبيعة السماوية والأرضية معاً في سياق واحد، من أجل التعريف بحقيقة الألوهية، وجعلها مجالاً من مجالات التعريف، لفتهم إلى آياته في الأرض خاصة، فعرض عليهم المشاهد الأرضية مقرونة بالنعم الإلهية على الإنسان، مشيراً إلى الظواهر الطبيعية – كما هي طبيعة المنهج القرآني- في الإكثار من الإشارة إلى مصادر هذه النعم والموافقات في الطبيعة، من أجل الإدراك الواعي لهذه الحقيقة، ولم يكتفِ بعرض هذه النعم فحسب، بل راح يعرض الاختلاف في الثمار، كما يعرض الاختلاف في الطبيعة، والناظر يعرف الاختلاف العجيب في الثمرات، تميز كل نوع وكل صنف، كذلك اختلاف الألوان في الجبال والصخور منها القطع البيض والحمر ومنها الأبعد في السواد.

وأن هذا الجمال وهذا الأنسجام والتناسق في الألوان وفي الطبيعة، دال على ربوبية الله في الطبيعة، وهذه المشاهد والمظاهر معرض رائع تتجلى فيه حقيقة الألوهية، كما يوحي بوجود الخالق وعظمته.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾[1].

قال البقاعي في تفسير الآية: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ) أي الذي له جميع صفات الكمال (أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ) أي التي لا يصعد إليها ولا يستمسك عن الهبوط منها في غير أوقاته... ولما كان أمراً فائتاً لقوى العقول نبه عليه بالالتفات إلى مظهر العظمة فقال: (فَأَخْرَجْنَا) أي بما لنا من العظمة (ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ) أي: متعددة الأنواع، والألوان: أي الوان أنواعها وأصنافها وهيئاتها، فالذي قدر على المفاوتة بينهما وهي من ماء واحد لا يستبعد عليه أن يجعل الدلائل في الكتاب وغيره نوراً لشخص وعمى لآخر)[2].

---

(1) سورة فاطر: 27.
(2) نظم الدرر (220/6).

وينتقل البيان من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في ظاهرها (وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها. والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها. مختلف في درجة اللون والتضليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه، وهناك جدد غرابيب سود حالكة شديدة السواد[1].

والغربيب هو الذي أبعد في السواد وأغرب فيه، وهو تأكيد للأسود[2].

ولا شك أن جمال المخلوقات يدل على وجود خالقها وكمال حكمته ومشيئته لما فيه من دلالة على الإبداع والإحكام. وكثيراً ما نرى الآيات الكريمة تنبهنا إلى ظاهرة الجمال المبثوثة في الطبيعة كدليل على وجوده سبحانه ونعمته وفضله كقوله سبحانه: (وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [3]. لقد عقبت الآية التي تضمنت اختلاف الألوان ودلالتها على الجمال، آية أشارت إلى العلماء وأنهم هم الذين يخشون ربهم وهي قوله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)[4].

والآية وإن كانت تعني العالمين به -عز وجل- وبما يليق بصفاته الجليلة وأفعاله الجميلة لما أن مدار الخشية معرفة المخشي والعلم بشؤونه فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى له -عز وجل- كما يقول كبار المفسرين[5].

إلا أنها يمكن أن تنسحب أيضاً على العلماء ببعض ما في الكون من نظم ونواميس فإن التفكير فيها بتجرد وإخلاص يملأ القلب خشية من الله تعالى الذي أبدعها وأحكمها. كما أن في الآية إشارة ضمنية إلى أن سر ظاهرة اختلاف الألوان

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن (2942/5).

(2) وكان من حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك: أصفر فاقع إلا أنه أضمر المؤكد قبله والذي بعده تفسير للمضمر، وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على ذلك المعنى الواحد من طريقي الإظهار والإضمار جميعاً. ينظر: الكشاف (463/3)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، للنسفي (15/5)، دار مصر للطباعة، ط1، 1971م.

(3) سورة الأنعام: 99.

(4) سورة فاطر: 28.

(5) ينظر: جامع البيان (289/6)، إرشاد العقل السليم (151/4)، الجامع لأحكام القرآن (460/7).

يتطلب بحثاً علمياً متعمقاً، وهذا لا يقوم به إلا العلماء المتخصصون[1].

وإن العلم بدقائق هذه الظواهر التي عرضتها الآيات والتعرف على أسرارها يصل بالعالمين بها إلى مرتبة الخشية، بعد معرفة حقيقة وجوده تعالى حق المعرفة من خلال مخلوقاته[2]، وبهذا التفسير يكون من الوهم عند قراءة الآية المتقدمة أن ينصرف الذهن، إلى أن المعنيين بالآية يقتصر على علماء الدين دون سواهم، بل أن المعنى الثاني من المعاني التي يفيض بها النص ويدل عليها، ومن قال به فقد أصاب جزءاً من هداية النص القرآني. ولما كان مقام الخشية كما يقول ابن القيم: جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبويته [3] لذا جاء ترتيبه في النظم بعد التعريف بحقيقة وجوده تعالى.

وقد جاءت عبارة صاحب الظلال عند تفسير هذه الآيات كاشفة عن شيء من مقاصدها، متضمنة المعاني السابقة عندما شبه المخلوقات بكتاب كوني جميل، كلما قرأ الإنسان فيه ازداد خشية لله تعالى وتعظيماً فقال: (وهذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين، يفتحه القرآن ويقلب صفحاته ويقول: أن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله... يعرفونه معرفة حقيقية. يعرفونه بآثار صنعته. ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه. ومن ثم يخشونه حقاً ويتقونه حقاً، ويعبدونه حقاً)[4] وهذا مقتضى التعريف الذي عرضته الآية وهو وجوب العبادة لله.

والآية فيها بيان ما في اختلاف الألوان من نعمة عظيمة للناس، وتوجيه أنظارهم إلى تنوع الألوان وجمال هذا التنوع. وتوزعه بين الجوامد والاحياء، فضلاً عن المنفعة الحاصلة من هذه الأنواع المتعددة الأصناف، وإلى دلالة هذه النعم على الخالق. كما أن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود.

وكما عرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة الأرضية، وما فيها من النعم

---

(1) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني(155/7)، دار القلم، دمشق، ط1، 1428هـ - 2007م، تفسير سورة فاطر، عبد الحميد محمود طهماز (213).

(2) كون اتفاق الجوانب العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم مع الحقائق التي كشف عنها العلم حديثاً، له الأثر الكبير في تدعيم قضية الإيمان وتعميقه في النفوس. وأن البحث في عناصر الطبيعة وظواهرها، من طرق التعرف على الله. ينظر: مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز (176/175)، دار القلم، الكويت، ط1، 1404هـ - 1983م، نظرات في القرآن، الشيخ محمد الغزالي (137)، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط1، 1383هـ - 1962م، الإسلام في عصر العلم، محمد الغمراوي (259)، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1987م.

(3) ينظر: مدارج السالكين (102/1).

(4) في ظلال القرآن (2943/5).

المختلفة، فإنه يعرض المشاهد المألوفة والقريبة من البشر، المشاهد التي تدخل في تجارب كل إنسان، مشاهد الزرع، والماء، والنار.

فمشهد الزرع الذي يمثل نشاة الحياة النباتية، حين ينبت وينمو ويؤتي ثماره، ليس للإنسان دور فيه سوى الحراثة وإلقاء الحب والبذور التي صنعها الله – سبحانه- ومن ثم مشهد الماء الذي هو أصل الحياة، وأن الذي أنزله من سمائه هو الله – سبحانه- وهو الذي قدر أن يكون عذباً، ولو شاء لجعله مالحاً لايستساغ، ومن مشهد الماء إلى مشهد النار التي يوقدها الإنسان، من الشجر، وأن الله تعالى هو الذي أنشأها من الشجر الأخضر، وهذه المشاهد الثلاث، تمثل نعم الله تعالى على عباده، وهي نعمة الطعام الناتج عن الزرع والثمار، ونعمة الشراب العذب، الذي أنزله الله من السحاب والمطر، ونعمة النار التي تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها، فكانت تذكرة للعباد بنعمة ربهم.

وأن هذه المشاهد وما فيها من النعم، وما فيها من حقائق قرآنية، هي مجال من مجالات التعريف بالإله الحق في الطبيعة المنظورة، كما توحي بحقيقة وجوده وعظمته وربوبيته.

قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1].

قال البقاعي: (لما كان علمهم بأمر النبات، وصل بما مضى[2] منكراًعليهم: (أَفَرَءَيْتُم) أي أخبروني هل رأيتم بالبصر والبصيرة ما نبهناكم عليه، فتسبب عن تنبهكم لذلك أنكم رأيتم (مَّا تَحْرُثُونَ) أي تجددون حرثه على سبيل الاستمرار بتهيئة

---

(1) سورة الواقعة: الآيات 63-74.

(2) وهي الآيات التي سبقت الآية، والتي تعرضت للنشأة الأولى وهي قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ سورة الواقعة: 57-59.

أرضه للبذر وإلقاء البذر فيه.

ولما كانوا لا يدعون القدرة على الإنبات بوجه، كرر الإنكار عليهم فقال (ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ) أي تنبتونه بعد طرحكم البذر وتحفظونه إلى أن يصير مالاً (أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ) أي المنبتون له والحافظون.

ولما كان الجواب قطعاً: أنت الفاعل لذلك وحدك؟ قال موضحاً لأنه ما زرعه غيره بأن الفاعل الكامل من يدفع عما صنعه ما يفسده، وما أراد إفساده لم يقدر أحد على منعه (لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ) أي فصرتم بسبب جعله حطاماً، تندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم، فتقولون: (إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ) أي أنا قد نقصنا وأصابتنا مصيبة اجتاحتنا) [1].

ومرة أخرى يعرض القرآن مشهد الماء، الذي هو أصل الحياة، وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدر الله، وأن الذي أنشأه من عناصره، وأن الذي أنزله من سحائبه، هو الله سبحانه، وهو الذي قدر أن يكون عذباً، ولو شاء لجعله مالحاً لا يبرد عطشاً ولا ينبت نبتاً.

وإلى مشهد آخر من مشاهد الطبيعة، ينبهنا القرآن إلى التأمل في هذهالمشاهد، والتبصر في عجائب آياته، مشهد النار التي توقد من الشجر، وهي الطريقة البدائية التي لا تزال مستعملة في البيئات البدائية حتى الأن، والنار المذكورة في الآيات نار مخصوصة تكشف عن تمام القدرة، وهو بيان ايجاد الاشياء من اضدادها، ولذلك كانت معجزة النار وسرها عند العلماء الباحثين مجالاً للبحث والنظر والاهتمام[2].

أن هذه العرض لهذه المشاهد يستهدف بناء العقيدة، وفيه تتجلى طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية، وفي تناول الدلائل الإيمانية، ببساطة ويسر، وهو يتناول أكبر الحقائق في صورها القريبة الميسورة.

لذا ناسب أن تأتي بعد هذا العرض لهذه المشاهد وما فيها من حقائق وأسرار، ناطقة بدلائل الإيمان، في قوله تعالى: (فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ) التفاتة إلى الحقيقة التي تنتهي إليها هذه الحقائق. حقيقة وجود الله وعظمته وربوبيته، وهي حقيقة تواجه الفطرة مواجهة ذات قوة وسلطان. فيهيب بالرسول ﷺ أن يحيي هذه الحقيقة ويؤدي حقها، فأعرض عمن قد يلم به الأنكار مقبلا على أشرف خلقه إشارة إلى أنه لا يفهم

---

(1) نظم الدرر (419/7)، ينظر: روح البيان (394/9)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن السعدي، (885) مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1433هـ-2012م.

(2) ينظر: في ظلال القرآن (3470/6)، نظم الدرر (420/7) وما بعدها، تيسير الكريم الرحمن (886).

هذا المقام حق فهمه سواه[1].

وبهذا تكون هذه الآيات الكريمة، قد عرضت من المشاهد الطبيعية المقرونة بالنعم الإلهية التي تذكر بإحسان الرب تعالى على البشر، فأضافت ما لم يذكر في غيرها من المواضع.

وكما هي طبيعة المنهج القرآني في عرض حقيقية الألوهية في مجالها الواسع، في مشاهد الطبيعة، وقرن آثار هذه الحقيقة في سياق واحد مذكراً بالنعم الإلهية المتمثلة في نعمة الماء المنزل من السماء وإخراج النبات به، وما يصحبه من تغير وتبدل، يوحي بوجود الصانع القادر، وينفي المصادفة والاتفاق، ومع أن الماء النازل واحد، إلا أنه تسبب عنه أنواع كثيرة، وهذه الآثار والمظاهر المعروضة على الأنظار، إنما هي دليل حي، على أن وراءها إلهاً حكيماً قادراً.

وأن هذه المجالات وهذه الآثار هي آيات للمؤمنين يجددون الإيمان كلما تأملوا في هذه المشاهد التي توحي بحقيقة وجوده سبحانه. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

قال الزمخشري: (ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ) إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلاً ضعيفاً لا يكاد ينتفع به. وانظروا إلى حال ينعه ونضبحه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقّدره ومدبره وناقله من حال إلى حال)[3].

والآية جاءت في سياق التعريف بالإله الحق، وآثار حقيقة الألوهية في هذه الطبيعة ومشاهدها المعروضة للحس والوجدأن. كما أنها في مساق الإحسان لما قبلها من الدلائل، فإن الدليل إذا كان على وجه الإحسان ومذكراً بالإنعام كان تأثيره في القلب عظيماً. ويدل على ذلك التعقيب على هذه المشاهد بقوله: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ

---

(1) ينظر: نظم الدرر (422/7)، في ظلال القرآن (3470/6).

(2) سورة الأنعام: 99.

(3) الكشاف (40/2)، ينظر: البحر المحيط (191/4)، أنوار التنزيل (314/1)، الجامع لأحكام القرآن (34/4).

أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ) علق الأمر بالنظر الذي هو أثبت الحواس، وأمر بالنظر إلى الثمر والينع، نظر تدبر وتأمل لكل ما ذكر من نعم في الآية، وما يطرأ عليهما من التغيرات والتبدلات ليس إلا للفاعل المختار.

كما يدل عليه الالتفات بقوله (فَأَخۡرَجۡنَا) من الغيبة إلى التكلم، وما فيه من الدلالة على القصد والتدبير، فحكمته أن تلتفت الأذهان إلى ما يعقب ذلك من البيان، وتنتبه إلى أن هذا الإخراج البديع، والصنع الصنيع، من فعل الخلاق العظيم، لا من فلتات المصادفة والاتفاق[1].

والقرآن الكريم حين يبين في هذه الآية الكريمة وأمثالها، أن الماء سبب تتولد منه أنواع كثيرة متباينة من الزرع والأشجار والفاكهة فإنه لم يجعله السبب النهائي في كل ذلك، بل رده إلى إرادة الله وقدرته، ذلك أن جميع الأسباب في القرآن تنتهي إلى الله وحده.

لذلك جاء التعبير القرآني في هذه الآية وفي أمثالها ليبين هذا الأمر، فقوله تعالى: (فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ) بالماء (نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ) نبت من كل صنف من أصناف النامي، يعني أن السبب واحد وهو الماء والمسببات صنوف مفتتنة[2]، ولهذا كانت الآيات صريحة في ذلك كما في قوله تعالى: (وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ) [3]. وذلك واضح من استعمال ضمير المتكلم، يدل من ضمير الغائب الذي بدأ به الكلام.

وقد عدّ البقاعي اختلاف الأثمار والتغيرات والتبدلات، هي موضع الاستدلال في الآية الكريمة، على الفاعل المختار وفصّل القول في ذلك، فقال: (ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ)... نبه على تعميم النظر في جميع حالاته بقوله(إِذَآ أَثۡمَرَ) أي حين يبدو من كمامه ضعيفاً قليل النفع أو عديمه (وَيَنۡعِهِۦٓ) أي وانظروا إلى إدراك هذا إذا نضج وحان قطافه، ويعلم من ذلك أن النظر فيما بين ذلك، لأنه يلزم مراقبة الأول والآخر، فيعلم استحالة ألوانه ومقاديره وطعومه وأشكاله وغير ذلك من شؤونه وأحواله،

---

(1) ينظر: تفسير المنار (644/7)، فقد ربط الشيخ رشيد رضا –رحمه الله- بين "الالتفات" في القرآن والدلالة على القصد والتدبير، فضلاً عن التعظيم، في إسناد الفعل الى الضمير "نا"، بعد أن كانت الأفعال قبله مسنده إلى ضمير الواحد الغائب.

(2) الكشاف (39/2).

(3) سورة طه: 53.

ويلزم من ذلك أيضاً النظر إلى أشجاره ليعلم تفاوت بعضها واشتباه البعض الآخر في الطول والقصر والصغر والكبر وغير ذلك من سائر الأحوال، كما أن ذلك موجود في التمر، فاستناد هذه التبدلات والتغيرات ليس إلا إلى الفاعل المختار، لأن نسبته إلى الطبائع والفصول على حد سواء، فلو استندت إليها لم تتغير... ولما كان اتخاذ هذه المذكورات أولاً والمخالفة بين أشكالها ومقاديرها وألوانها ثانياً... دل على عظمته بقوله مستأنفا مشيراً بأداة البعد وميم الجمع (إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ) أي الأمر العظيم الشأن العالي الرتبة (لَآيَاتٍ) أي علامات على قدرة الصانع واختياره.

ولما كانت الآيات لا تغني عمن أريدت شقاوته قال (لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أي حكم بأنهم-بحذقهم ونشاطهم وقوتهم على ما يحاولونه- يجددون الإيمان كلما تأملوا في مصنوعات الله سبحانه وتعالى الدالة عليه المشيرة بكل لسان إليه)[1]. وخصَّ الله الآيات بالقوم المؤمنين، وقد صرح في هذا بأن الآيات إنما تنفع المؤمنين تصريحاً، لأنهم هم المنتفعون بحجج الله، المعتبرون بها[2].

ويبدو أن التنبيه على تعميم النظر بقوله: (ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ)... انظروا بالحس البصير، والقلب اليقظ... انظروا إليه في ازدهاره، وازدهائه عند كمال نضجه. واستمتعوا بجماله...لأن المجال هنا جمال ومتاع، كما أنه مجال تدبر في آيات الله، وبدائع صنعته في مجال الحياة[3].

ويبدو أن اهتمام القرآن الكريم في التعريف بحقيقة الإلهية من خلال عرض النعم الإلهية في الطبيعة، هو الذي حدا بجعل هذه الآية مقدمة على آية الإذن بالانتفاع بتلك النعم، تلك الآية التي تشابهت النعم فيها ونعم هذه الآية، من حيث أنواعها وأجناسها، فقدمت هذه على تلك، إظهاراً لأهمية هذه الحقيقة في المنهج القرآني فالنفع الروحي الذي يجلب السعادة الأبدية، مقدم على نفعها الحسي.

ولقد زاد البقاعي هذه المعاني التي تحدثت عنها هذه الآية عمقاً وتفصيلاً عندما قارن لنا بين الآيتين فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ

(1) نظم الدرر: (687/2)، ينظر: مفاتيح الغيب (107/4).
(2) ينظر: جامع البيان (479/2)، التحرير والتنوير (404/3).
(3) ينظر: منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، (218)، القاهرة- دار القلم، د.ت.

مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾[1].

(... ولما كان قوله: (وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) [2] في سياق الاستدلال على أنه لا فاعل إلا الله، أمر فيه بالنظر إلى الثمر والينع ليعتبر بحالهما، وكانت هذه الآية في سياق التعنيف لمن حرم ما رزقه الله والأمر بالاكل من حلال ما أنعم به والنهي عن تركه تدينا فقال تعالى هنا(كُلُواْ) وقدم الأولى المستدل بها على وجود الباري وتفرده بالأمر لأن إعتقاد ذلك سعادة روحانية أبدية...وتقدم النظر وهو الفكر على الأكل لهذا السبب)[3].

وفي موضع آخر يعرض القرآن الكريم مشهداً من مشاهد الطبيعة الأرضية ليكون مجالاً من المجالات التي تتجلى فيها حقيقة الألوهية، تذكيراً بصفات ربوبيته- ﷻ- في كل ما في هذه الطبيعة، فهو يلفت نظر كل صالح لأن يرى ببصره، ويرى بفكره، في استفهام تقريري، إلى الماء الذي ينزل من السماء على شكل مطر أو ثلج أو برد، ثم يسلك بعد ذلك إلى باطن الأرض، ثم يخرج ينابيع وعيونا منها يجري في سواقي ومنها تجري في أنهار، ثم إذا بهذا الماء يحيي الأرض، فيخرج بذلك زرعاً مختلف ألوانه وأجناسه وأوصافه وطعومه، ثم إذا بذلك الزرع، يتم جفافه فيصفر، فيصبح حطاماً يابساً لا خضرة فيه.

إن هذه المشاهد التي يوجه القرآن إليها الأنظار للتأمل والتدبر، وما يصحبها من التغيرات، هي رؤية كفيلة بأن تملأ القلب المفتوح ذكرى، وأن تثير فيه الاحساس بالله الخالق المبدع الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وهي تذكير لأولي الألباب فيهتدون بما يشاهدونه، وتنبيه لهم على حقيقة وجود الخالق العظيم.

قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعًا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرًّا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[4].

---

(1) سورة الأنعام: 141.
(2) سورة الأنعام: 99.
(3) نظم الدرر: (727/2). للاستزادة والتعرف على الفرق بين الآيتين والفرق بين التعبيرين الرجوع الى ما كتبه أستاذنا الدكتور فاضل صالح السامرائي في كتابه: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني (97-103)، دار عمار، الأردن، 2002م، فإنه بين فروقا دقيقة لم يبينهما من سبقه من المفسرين وفصّل القول في المراد من لفظ (متشابه) الوارد في الآيتين.
(4) سورة الزمر: 21.

قال الزمخشري: (أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ) وهو المطر. وقيل: كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها....(فَسَلَكَهُۥ) فأدخله ونظمه (يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ) عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد. (مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ) هيئاته. من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك، وأصنافه من برّ وشعير وسمسم وغيرها (يَهِيجُ) يتمّ جفافه، عن الاصمعي، لأنه إذا تمّ جفافه؛ حان له أن يثور عن منابته ويذهب (حُطَٰمًا) فتاتاً ودريناً (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ) لتذكيراً وتنبيهاً، على أنه لا بدّ له من صانع حكيم، وأن ذلك عن تقدير وتدبير، لا عن تعطيل وإهمال)[1].

وقال البيضاوي: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ) لتذكيراً بأنه لا بد له من صانع حكيم، دبره وسواه... (لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ) إذ لا يتذكر به غيرهم)[2].

ولا حاجة بنا إلى ما ذكره البيضاوي وغيره من المفسرين من أن الآية مثل للحياة الدنيا[3]، إذ ليس هناك ما يدل على أن الآية هي مثل.

وعند تتبع سياق الآية، وما افتتحت به الآية وما اختتمت به، فإنها وردت مورد التنبيه على الاعتبار، فنسب سبحانه كل حالة من تقلبات الزرع إلى نفسه، وتنقلاته من لدن خروجه ونباته وما بعد ذلك إلى تخلصه إلى نفسه[1]. وهذا التوجيه أولى بالصواب من قول البيضاوي، والشنقيطي، وسيد قطب، وابن عاشور كونه ألصق بسياق الآية التي تتحدث عن اختلاف الألوان والجمال في الطبيعة الأرضية.

---

(1) الكشاف: (4/91-92)، ينظر: محاسن التأويل: (8/173).

(2) أنوار التنزيل: (2/357).

(3) المصدر نفسه: (2/357)، ينظر: أضواء البيان (2/564)، التحرير والتنوير، (9/376) في ظلال القرآن (5/3047)، كما أن الزمخشري ذكر مثل قول البيضاوي وغيره، لكنه لم يجزم بذلك بل قال: (ويجوز أن يكون مثلاً للدنيا) الكشاف: (4/92).

والحقيقة هي أننا نجد قرائن دالة على أن الآية في سياق التعريف بالخالق وحقيقة وجوده:

الأولى: هي أن الكلام الذي بدأت به الآية استفهام تقريري [1]، بالإضافة إلى معنى التقرير، فقد خرج الاستفهام لمعانٍ بلاغية أخرى وهي (الامتنان على العباد، والتعريض بأهل الكفر الذين لم يلقوا بالاً للاعتبار بما ذكر. تعريضاً بهم بالسفه وذهاب العقول. ثم لفت الأنظار إلى دلائل قدرة الله الموجبة للإيمان به، والامتثال بما يأمر به وينهى عنه)[2]، كما أن الاستفهام بالهمزة الداخلة على فعل منفي "أَلَمۡ تَرَ " (استفهام تقرير لمفعول الرؤية، وهذه قاعدة مطردة في هذا التركيب حيثما ورد، لأنّ نفي النفي إثبات) [3].

ومعلوم أن الأمثال في القرآن ليست هذه أغراضها وأساليبها[4].

---

(1) ينظر: ملاك التأويل: (427/2)، وقد قارن ابن الزبير بين هذه الاية وبين آية سورة الحديد وهي قولـه تعالى:﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ سورة الحديد: ٢٠. وأثبت أن آية الحديد هي مثل للحياة الدنيا، في حينآية الزمر لم تكن كذلك، محكماً في ذلك السياق الذي يعد من قواعد الترجيح عند المفسرين.

(1) التقرير: (حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده)، ينظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: أحمد بن علي (331/2)، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1427هـ - 2006م.

(2) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، عبد العظيم إبراهيم المطعني (420/3)، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1420هـ- 1999م.

(3) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم (174/2).

(3) كون الأمثال في القرآن الكريم الأصل فيها التشبيه، وهو ما استخدمت فيه كاف التشبيه، أو كلمة مثل، أو هما معاً، أو اكتفى فيه بذكر المشبه والمشبه به، وهو ما يعرف بالتشبيه التمثيلي. ينظر: الأمثال في القرآن،ابن القيّم، تحقيق: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد (32)، مكتبة الصحابة، مصر، ط1، 1406هـ - 1986م، بصائر ذوي التمييز (481/4)، الأمثال القرآنية القياسية، د. عبد الله عبد الرحمن الجربوع (70/1، 120)، مكتبة الملك عهد الوطنية، ط1، 1424هـ - 2003م.

(3) جامع البيان (437/6). كما أشار الرازي في تفسيره: أن معنى قوله (فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ) تعني الهداية والمعرفة، ينظر: مفاتيح الغيب (440/9)، كما قال مثل ذلك البيضاوي والقاسمي في تفسيرهما، ينظر: أنوار التنزيل (323/2)، محاسن التأويل (173/8).

(4)كون الأمثال في القرآن الكريم الأصل فيها التشبيه، وهو ما استخدمت فيه كاف التشبيه، أو كلمة مثل، أو هما معاً، أو اكتفى فيه بذكر المشبه والمشبه به، وهو ما يعرف بالتشبيه التمثيلي. ينظر: الأمثال في القرآن،ابن القيّم، تحقيق: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد (32)، مكتبة الصحابة، =

الثانية: هي سياق الآيات الكريمة بعد ذلك وهي قوله تعالى: (أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ)

يقول الطبري في تفسيرها: (من فسح الله قلبه لمعرفته، والخضوع لطاعته، فهو على نور من ربه، وعلى بصيرة ويقين مما هو عليه)[2].

فالآية ظاهرة الدلالة على أن المشاهد المعروضة فيها هي مجال من مجالات التعريف بالخالق، ومن عرف ربه من خلال آثاره في هذه الطبيعة التي عرضتها الآية التي سبقتها، فهو على نور من ربه، وعلى يقين، وهكذا يتبين أن القرآن الكريم في عرضه لحقيقة وجود الله ربوبيته، كثيراً ما يتبعه بالحديث عن الخشية أو الأمر بالعبادة-كما مر معنا- أو الخضوع لطاعته، فإنها الغاية من معرفة هذه الحقيقية، ومن مقتضيات هذا التعريف.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن ما بين هذه الآية، والآية السابقة عليها في نجوم التنزيل من سورة الأنعام، بشأن نعمة الله على الناس بالماء الذي ينزله من السماء، من تكامل بديع مع تأكيد أصل هذه النعمة، مع أن في كل منها بيان جانب من الشواهد المعروضة أو أكثر لم يأت في الآية الأخرى[1]. وكلا المشهدين جاءا في ثنايا عرض حقائق العقيدة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، أن هذه الآية متناسبة مع الموضوع الرئيسي الذي تدور حوله السورة وهو الكليات العامة في أصول الدين [2]، فالآية مرتبطة بموضوع السورة. من جهة ومتناسبة مع الموضوع الذي تتحدث عنه من جهة أخرى، وهو بيان نعمة الماء المنزل من السماء وإخراج النبات به وما يصحبه من تغير وتبدل، وكلا الارتباطين وجه من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.

وبهذا تكون الآية الكريمة قد أضافت على سابقتها في النزول إضافات، فما ذكر هناك أنواع من النباتات، وههنا ذكر جميع ما يزرع من مقتات وغيره، أو

= مصر، ط1، 1406هـ - 1986م، بصائر ذوي التمييز (481/4)، الأمثال القرآنية القياسية، د. عبد الله عبد الرحمن الجربوع (70/1، 120)، مكتبة الملك عهد الوطنية، ط1، 1424هـ - 2003م.

(4) جامع البيان (437/6). كما أشار الرازي في تفسيره: أن معنى قوله (پپپيپپ) تعني الهداية والمعرفة، ينظر: مفاتيح الغيب (440/9)، كما قال مثل ذلك البيضاوي والقاسمي في تفسيرهما، ينظر: أنوار التنزيل (323/2)، محاسن التأويل (173/8).

(1) ينظر: معارج التفكر (194/12).

(2) للتعرف على موضوع السورة الرئيسي والدروس المرتبطة به ينظر: مصاعد النظر (423/2) في ظلال القرآن (3035/5)، التحرير والتنوير (312/9)، معارج التفكر (143/12).

مختلفاً أصنافه وذلك في قوله تعالى: (ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ) فما ذكر ههنا أكثر.

وكما عرض القرآن الكريم مشهد السماء والماء الذي ينزل منها إلى الأرض، وكذلك عرض مشاهد الأرض خاصة، وجعل من هذا المشهد مجالاً للتعريف بالإله الحق، وجعل من تلك المشاهد المتنوعة ومناظرها، من جبال ووديان، وبحار وأنهار، وجنات من أعناب وزرع ونخيل، آيات للموقنين.

والأرض أقرب للإنسان من السماء، فهي مجال للتعريف، فبدأ بما هو أقرب إلى الحس وما فيها من النعم الكثيرة المتباينة، فإنها الألصق بحياة الإنسان من عناصر الطبيعة الأخرى، وكذلك قرن بين مشهد الأرض التي هي قريبة من وجود الإنسان، بالأنفس، وقد قدّم الأرض لأن آيات الآفاق أعظم خلقاً وأكبر مجالاً للتعريف كما في قوله تعالى: (لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[1] ثم ذكر الأنفس وهي الأقرب للإنسان.

قال تعالى: (وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[2].

قال البيضاوي في تفسير الآيات: (وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ) أي فيها دلائل من أنواع المعادن والحيوانات، أو وجوه دلالات من الدحو والسكون، وارتفاع بعضها عن الماء، واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص والمنافع، تدل على وجود الصانع وعلمه وقدرته وإرادته وفرط رحمته.

(وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ) أي وفي أنفسكم آيات، إذ ما في العالم شيء إلا وفي الإنسان نظير يدل دلالته مع ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية والتركيبات العجيبة، والتمكن من الأفعال الغريبة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة. (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) تنظرون نظر من يعتبر)[3].

وإن اقتران آيات الطبيعة الأرضية مع آيات الأنفس، في هذه الآيات لابد لها من دلالة وعلاقة فيما بينهما -وقد مر معنا- أن غاية آية الآفاق الإيمان، وغاية آية النفس اليقين. فجمعت الآيتين بين مجالين من مجالات التعريف، بين البعيد والقريب، بين ما هو من الطبيعة، وما هو ليس منها، ولهذا التنويع أثره في غرس العقيدة، والإشعار بوجود الله

---

(1) سورة غافر: 57.
(2) سورة الذاريات: 20-21.
(3) أنوار التنزيل، (463/2)، ينظر: البحر المحيط، (135/8)، روح البيان (188/9).

وعظمته.

ولذلك خصصت هذه الآيات بالموقنين، أي: (الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة، فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم، وإيقاناً إلى إيقانهم)[1].

ولو مضت الأجيال تتامل آيات الله في الآفاق، وتشير مجرد إشارة إلى ما فيها من عجائب، وإلى ما تشير إليه هذه العجائب من آيات، ما انتهى لها قول ولا إشارة، غير أنه لايدرك هذه العجائب، إلا القلب العامر باليقين...(وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ)... فلمسة اليقين هي التي تحيي القلب فيرى ويدرك؛ وتحيي مشاهد الأرض فتنطق للقلب بأسرارها المكنونة، وتحدثه عما وراءها من تدبير وإبداع [2].

وربما نلحظ في الاستفهام التوبيخي في قوله: (أَفَلَا تُبۡصِرُونَ) إزراء بأولئك الذين يصدون عن هذه الآيات المنتشرة في أرجاء العالم، وحثاً لهم على النظر فيها، وتأملها تأملاً فكرياً موحياً دالاً[3].

فلما ذكرت الآيات الأرض وهي المكان وإليه يحتاج الإنسان ولابد من سبقها، ثم نفس الإنسان، جاءت الآية بعدها تبين أمور تقارنه في الوجود وأمور تلحقه وتوجد بعده، وذلك في قوله تعالى: (وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ).

فالرزق في الآية يقصد منه "المطر"؛ لأنه ينزل من السماء، والرزق مسبب عنه، يؤكد هذا المعنى قول عامة المفسرين[4].

إذ أن السماء سبب في الحصول على الرزق، فمنها ينزل المطر فتنمو النباتات للإنسان والأنعام، وكذلك فإن كل ما توعدون به من الخير والشر، والثواب والعقاب، والشدة والرضا، وغيرها مكتوب مقدم في السماء[5].

وفي موضع آخر من القرآن الكريم عرض فيه مشاهد الطبيعة للتعريف بالإله الحق، وحقيقة وجوده ومنها مشاهد السموات والأرض ودلالتها على إلهية خالقها وتمهيد للنعم المودعة فيها، وإنزال الماء من السماء إلى الأرض، وإراج الثمرات من

---

(1) الكشاف (303/4).
(2) ينظر: في ظلال القرآن (3379/6).
(3) ينظر: المشاهد في القرآن الكريم (222).
(4) ينظر: الكشاف (303/4)، مفاتيح الغيب (172/10)، أنوار التنزيل (429/2)، روح البيان (189/9).
(5) ينظر: أضواء بلاغية على جزء الذاريات، عبد القادر حسين (116/15)، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 1998م.

الأرض، البحار والأنهار من الأرض، والليل والنهار من السماء ومن الأرض، فقد جمع عشرة أنواع من المشاهد الطبيعة المقرونة بنعم عامة مشهودة محسوسة تذكر بأن المنعم بها وموجدها هو الله تعالى.

ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى: (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)(1).

سبق عرض هذه المشاهد قوله تعالى: (قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ) والآية فيها أمر للمؤمنين بلزوم طاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لاشريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكاة والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب(2).

قال ابو حيان في تفسيره: (... ولما أطال تعالى الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء، وكان حصول السعادة بمعرفة الله وصفاته، والشقاوة بالجهل بذلك ختم وصفه بالدلائل الدالة على وجود الصانع، وكمال علمه وقدرته، فقال: (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ) وذكر عشرة أنواع من الدلائل، فذكر أولاً إبداعه وإنشاء السموات والأرض، ثم أعقب بباقي الدلائل، وأبرزها في جمل مستقلة ليدل وينبه على أن كل جملة منها مستقلة في الدلالة، ولم يجعل متعلقاتها معطوفات عطف المفرد على المفرد)(3). وبهذا التفسير يتبين تأكيد القرآن الكريم على حقيقة خطيرة،

(1) سورة إبراهيم: 32-34. وقد جعلت هذه الآيات في مبحث مشاهد الطبيعة الأرضية وذلك لكون أغلب المشاهد المعروضة في هذه الآيات هي مشاهد أرضية، بل أن ظاهرة الليل والنهار هي ناتجة من دوران الأرض حول نفسها، إذا ما استثنينا خلق السموات والأرض الذي بدأت به الآيات والذي جاء تمهيداً لذكر النعم المودعة فيهما.
(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم (535/2)
(3) البحر المحيط (216/5)، ينظر: محاسن التأويل (326/6).

وهي أن سعادة المؤمن معرفة الله تعالى وحقيقة وجوده. فالآيات الأرضية من ماء تنبت به أنواع الثمر، والفلك تجري في البحار، وكذلك الأنهار، هي مجال واسع للتعريف بحقيقة الألوهية، وأثرٌ من آثار هذه الحقيقة، والسعداء– الذين وصفتهم سابق الآيات– هم الذين يدركون حكمة التدبير.

وهم الذين يربطون بين هذه المشاهد وبين مدبرّ حركاتها ومقدر نتائجها(1). ومن ناحية أخرى تذكير بأن هذه المشاهد وهذه الآثار التي تعد تعريفا بالإله الحق هي من الإنعام الإلهي في هذه الطبيعة، ووأضح ذلك من تكرار لفظ التسخير(2). مع كل جملة. وتخصيص "ٱلثَّمَرَٰتِ" لأنها خاصة بالإنسان دون الأنعام، ولذلك ذكر بعدها "رِزۡقًا لَّكُمۡ". لذا ناسب أن تختم هذه الآيات بالخبر الشامل كتعقيب على الأخبار السابقة بقوله تعالى: (وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ) فهذه النعم الطبيعية أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر، أو كل البشرفجاءت هذه الجملة –أي الخاتمة– تأكيداً للتذييل وزيادة في التعميم، تنبيهاً على ما آتاهم الله على كثرته لا يتذكرونه عند إرادة تعداد النعم(3).

ومما ينبغي التنبيه إليه أن النعمة المذكورة في هذه الآيات، هي مطلق النعمة وليس النعمة المطلقة، لأن مطلق النعمة للمؤمن والكافر- وقد مر معنا-أن سياق الآيات في وصف السعداء والاشقياء، فالنعمة المذكورة تكون لهم جميعاً. وهذا ما تنبه له ابن القيم حين قال: (فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان. ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر، كما قال تعالى: (وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ) والنعمة من جنس

(1) فإن ترك التعلق بالشواهد – الأدلة والآيات- انسلاخ عن العلم، والإيمان بالكلية. والتعلق بها وحدها، دون من نصبها شواهد وأدلة: انقطاع عن الله وشرك في التوحيد. والتعلق بها استدلالاً ونظراً في آيات الرب، ليصل بها إلى الله: هو التوحيد والإيمان. فإنها وسائل إلى المقصود، فلا ينقطع بالوسيلة عن المقصود، ينظر: مدارج السالكين (575-574/2)

(2) التسخير يعني: (السياقة الى الغرض المختص قهراً) ينظر: المفردات: (سخر) وقد بين الطاهر ابن عاشور مفهوم التسخير بقوله: (والتسخير: حقيقته التذليل والتطويع، وهو مجاز عن جعل الشيء قابلاً لتصرف غيره فيه)، ثم فصّل القول في المراد بكل لفظة (تسخير) التي تكررت أربع مرات متتالية في هذا الموضع للمزيد من التفاصيل، ينظر: التحرير والتنوير (235/6-236)، فالقرآن الكريم جاء بعقيدة تبصّر الإنسان بحقيقة هذا الكون، وأنه مخلوق مسخّر له، فهو سيده والمتصرف فيه بإذن خالقه – تبارك وتعالى-. ينظر: العقيدة والفطرة في الإسلام، صابر طعيمة (75)، دار الجيل، بيروت، ط1، 1398هـ - 1978م.

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (237/6).

الإحسان، والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر والمؤمن والفاجر)[1].

وهذا التفسير يؤيده الذي بعده، فقد جاء التعقيب بالخبر الثاني الشامل وفيه بيان ما يحصل من جنس المنعم عليه بقوله تعالى: (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) وهو وصف أريد به جنس الإنسان. والكفّار: الذي يزاول الكفر ويجحده وقتاً بعد وقت[2] فإنه يظلم النعمة بإغفال شكرها، ويكفرها بجحدها.

وإقتران هذه المشاهد المعروضة بالنعم الإلهية، يقتضي الربط بين النعمة والمنعم، واستحضار هذا المعنى عند النظر إلى هذه المشاهد وهذه النعم، فإنه يفضي إلى تعظيم المنعم، والتعرف عليه من خلال آثاره. ومنها هذه النعم الظاهرة، المادية والمعنوية.

ولما كان من مقتضيات هذا التعريف، أنه لا معبود إلا الله وأنه لا يجوز عبادة غيره تعالى، حكى عن إبراهيم مبالغته في إنكار عبادة الأوثان بعد هذه الآيات مباشرة فقال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ) فإن عبادة الأصنام بعد وضوح هذه الحقيقة هي أوهام وانحرافات. إنّ تقديم الأمن على اجتناب عبادة الأصنام في دعاء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) فيه دلالة على أهمية الأمر، وأن الأمن يتمكن فيه من العبادة.

قال ابو حيان: (ودعاء إبراهيم اولاً بما هو على طاعة الله تعالى وهو كون محل العابد أمناً لا يخاف فيه إذ يتمكن فيه من عبادة الله تعالى، ثم دعا ثانياً بأن يجنب هو و بنوه من عبادة الأصنام، ومعنى اجنبي وبني أدمني وأياهم على اجتناب عبادة الأصنام)[2].

وبهذا تكون الآيات قد عرضت مشاهد متعددة من المجال الذي يعد تعريفاً بالإله الحق، فأعادت ما ذكر هناك مضافاً إليها مشاهد أخرى مقرونة بالنعم الإلهية لم تذكر هناك.

---

(1) التفسير القيم (15)، وقد بين –رحمه الله-: أن دلالة النعمة المطلقة غير دلالة مطلق النعمة، فهما يختلفان في الدلالة، فمطلق النعمة جزء من النعمة المطلقة، وللاستزادة في معرفة الدلالة والفرق بين التعبيرين، ينظر قوله مفصلاً في: بدائع الفوائد، ابن القيّم (821/4) فما بعدها، بيروت، دار الفكر.

(2) ينظر: الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، تحقيق: عماد زكي الباري، (12)، المكتبة التوفيقية (د.ت)، درة الغوص في أوهام الخواص، لأبي محمد القاسم بن علي الحريري، (89)، مكتبة المثنى، بغداد، (د.ت).

المبحث الثالث

الظـواهر الطـبيعية

كما عرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية معا في سياق واحد، وذكر كل ما في السماء من النجوم والشمس والقمر، ومشاهد الأرض خاصة وما عليها من الجبال وربوبيته لهذه الطبيعة المنظورة والمعروضة للأنظار.

فإنه يعرض الظواهر الطبيعية الناتجة عن هذه العناصر، عن طريق دورانها وسيرها في هذا الفلك الواسع الفسيح الذي تحكمه النظم والنواميس، وهذا التناسق العجيب على هذا الناموس، الذي يوقظ القلب وينبه العقل إلى تدبر صنع الله، ويذكر بقدرته وتدبيره، كما أنه يوجه الحس إلى جمال الحركة اللطيف في هذه المشاهد إلى جانب المنفعة الحاصلة. فالقرآن الكريم يقرن بين النعم المادية والمعنوية كما سبق بيانه.

فالظل الممتد قبل طلوع الشمس، الذي دليله طلوع الشمس، فلا يظهر للحس حتى تطلع الشمس، وتظهر الاشياء وتتميز عن بعضها. وهذا الظل يتقلص ويتناقص كلما ارتفعت الشمس، ظاهرة نراها كل يوم، ونمر بها غافلين.

ومن مشهد الظل إلى مشهد الليل وما فيه من سكن والنهار وما فيه من حركة ونشور، ثم ظاهرة الرياح المبشرة بنزول المطر وما بينه من حياة، ما هي إلا شواهد الحق وأدلته، ومجالاً من المجالات التي يعرضها القرآن الكريم للتعريف بحقيقة وجود الله تعالى، مقرونة بالنعم الإلهية في سياق واحد.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾[1].

قال ابن كثير في تفسيره هذه الآيات: (شرع تعالى في بيان الادلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة المتضادة، فقال: (أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ)؟ قال

(1) سورة الفرقان: 45-48.

ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد ابن جبير: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.(وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا) أي: دائماً لا يزول.

وقوله: (ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) أي: لولا الشمس تطلع عليه، لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده، وقال قتادة والسدي: دليلاً يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله. وقوله: (ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا)، أي: الظل. وقيل: الشمس. (يَسِيرًا) أي: سهلاً)[1].

ومن أجل إظهار حقيقة وجود الله تعالى، فقد عرض القرآن الكريم هذه المشاهد بأسلوب الجمع بين الشيء وضده الذي أشار إليه ابن كثير، وأنه إذ يستخدم هذا الأسلوب المعتمد على التصوير الواقعي للمشهد فإنه (يعرض جميع القضايا الكبرى في هذا الوجود بأسلوب التقابل حين يجمع في الطريقة بين الشيء وضده، والمعنى ونقيضه)[2]. وبذلك تصبح الصورة واضحة جليّة، فهي تحرك فيه جوانب عدة وتشترك فيه أكثر من حاسة إذ (يقوم الأسلوب التصويري على لغة البصر والبصيرة، لذلك كان يعكس دلالات الحس والمعنى)[3].

فالظل لا يظهر للحس حتى تطلع الشمس، عندئذ تظهر ظلال الأشياء وتتميز عن بعضها. ثم يتقلص ويتناقص شيئاً فشيئاً كلما ارتفعت الشمس، حتى ينتهي إلى غاية نقصانه عند الزوال، وهو من النعم التي ذكرتها الآية الكريمة.

وإظهاراً لهذه النعمة التي هي المقصد الثاني جاءت الآية الكريمة بأسلوب الالتفات لأن (الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: (ثُمَّ جَعَلْنَا) أدخل في الامتنان من ضمير الغائب مشعر بأن هذا الجعل نعمة وهي نعمة النور وعليه فقوله: (ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) إرتقاء في المنة)[4].

ثم ينتقل البيان القرآني من ظاهرة الظل إلى ظاهرة الليل والنهار، وهي أكثر وضوحاً للناظر من سابقتها وبيان ما فيهما من النعم، وهي تنظيم البيئة المناسبة لحياة الإنسان، وتقسيم الزمان ليلائم حاجاته.

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير(614/2)، ينظر: مفاتيح الغيب (464/8)، البحر المحيط (460/6)، مدارج السالكين (426/2)، تيسير الكريم الرحمن (615)، محاسن التأويل (447/7).
(2) المقابلة في القرآن لكريم، بن عيسى با طاهر (213)، دار عمار، الأردن، ط1، 2000م.
(3) جماليات اللغة وغنى دلالاتها، محمد صادق حسن عبد الله،(246)، دار إحياء العربية، ط1، 1993م.
(4) التحرير والتنوير (42/19).

يقول البقاعي: (ولما تضمنت هذه الآية الليل والنهار، قال مصرحاً بهما دليلاً على الحق، وإظهاراً للنعمة على الخلق: ﴿وَهُوَ﴾ أي ربك وحده ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ ولما كان ما مضى في الظل أمراً دقيقا فخص به أهله، وكان أمر الليل والنهار ظاهراً لكل أحد، عمَّ فقال: ﴿لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ أي الذي تكامل به مد الظل ﴿لِبَاسًا﴾ أي ساتراً للاشياء عن الأبصار كما يستر اللباس ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا﴾ أي نوماً وسكوناً وراحة...﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي حياة وحركة)[1].

ومن شواهد الحق وأدلته التي تعرضها الآيات الكريمة ظاهرة إرسال الرياح الحاملة للسحاب المبشرة بنزول المطر، وهو من رحمته تعالى بعباده.

يقول الطبري: (...الله الذي أرسل الرياح الملقِّحة بشراً وحياة وبشارة، بين يدي رحمته، تسبق السحاب الذي يحمل الرحمة والغيث والمطر﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾: أنزلنا من السحاب ماءً مباركاً طهوراً)[2].

فقدوم الرياح، ينبئ عن قرب نزول الأمطار[3]، وما تبثه من حياة، والحياة على هذه الأرض كلها تعيش على ماء المطر أما مباشرة، وأما بما ينشئه من جداول وأنهار على سطح الأرض، والذين يعيشون مباشرة على المطر هم الذين يدركون رحمة الله الممثلة فيه إدراكاً صحيحاً كاملاً[4].

هذه نعم جليلة، ضرورية لاستمرار حياة الإنسان ووجوده على هذه الأرض، تدل دلالة قاطعة على كمال قدرته تعالى وباهر حكمته، وهي أقرب الظواهر الطبيعية إلى مدارك الإنسان وأحاسيسه، تطوقه من كل جانب، فلا يستطيع الانفكاك عنها، ومع ذلك يغفل أكثر الناس عنها، ويعرضون عن التفكير في مبدعها ومدبرها.

وإن المعرفة الحقيقية لمصدر هذه النعم وموجدها يقتضي أن يكون الفرح بها

---

(1) نظم الدرر (324/5)، ينظر: التحرير والتنوير (45/19)، تفسير سورة الفرقان، عبد الحميد محمود طهماز (37)، دار القلم، دمشق، ط1، 1412هـ - 1992م.
(2) جامع البيان (615/5).
(3) والذي ينبغي التنبيه إليه، أن علماء الأرصاد الجوية الذين يرصدون حركة الرياح واتجاهاتها، ويبنون على ذلك توقعاتهم، لا يأتون بأمور مغيبة، وإنما يخبرون بأمور محسوسة مشاهدة، تمكنوا من ملاحظتها بما يملكون من أجهزة الرصد.
(4) ينظر: في ظلال القرآن (2569/5).

من حيث هي نعمة من الله تعالى وتفضل منه، وما أكثر النعم التي أنعم الله تعالى بها على عباده، في هذا المجال من الطبيعة، سيما أن النعم في هذه الآيات جمعت بين الجانب المادي والجانب المعنوي.

وإذا كان الضمير في الفعل (وَأَنزَلْنَا) التفات من الغيبة إلى التكلم؛ لأنّ التكلم أليق بمقام الامتنان[1]. فإن وصف الماء ضمن هذه النعم بأنه (طَهُورًا) فيه إشعار بالنعمة وإشارة بتكريم الإنسان وإعلاء شأنه، وما أراد الله له من التطهير.

قال الزمخشري: (... لما كان سقي الأناسي من جملة ما أنزل له الماء، وصفه بالطهور إكراماً لهم، وتتميماً للمنة عليهم، وبياناً أن من حقهم حين أراد الله لهم الطهارة و أرادهم عليها أن يأثروها في بواطنهم ثم في ظواهرهم، وأن يربئوا بأنفسهم عن مخالطة القاذورات كلها، كما ربأ بهم ربهم)[2]. وهذا كله ملحوظ في المعنى اللغوي كون الطهارة في اللغة: (التنزه عن الأدناس ولو معنويّاً)[3]. فقدّم النفع المعنوي المتمثل بنعمة التطهير، على النفع المادي كونه شراباً للإنسان وما ينتفع به الإنسان من الأنعام والنبات.

وهذا التفسير يتفق مع الجو العام الذي نزلت فيه الآيات، في العهد المكي-وقد سبق بيان التركيز في هذا العهد-كما يتفق مع السياق العام للسورة، التي تصور المعركة العنيفة مع البشرية المشاقة لله ورسوله، وكذلك السياق الذي وردت فيها هذه الآيات، حيث وردت قبلها آيات عرضت لنموذج من الناس يتعبدون هواهم[4]، ويحكمون شهواتهم، كما أخذت في تحقيرهم وتسويتهم بالأنعام، بل إلى درك أسفل وأحط. ولما بين جمود المعترضين على دلائل الله تعالى، وأن أكثرهم لم يكن يعرف الله تعالى ويعقل الحق وتناهي جهلهم، وفساد طريقتهم، ثم جاء عرض هذه المشاهد التي تعرفهم بالخالق وحقيقة وجوده وربوبيته [5].

وفي مقام آخر يلفت القرآن الكريم الأنظار إلى ظاهرتين عظيمتين، ظاهرتي

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير (47/9).

(2) الكشاف (217/3)، ينظر أنوار التنزيل (144/2)، البحر المحيط (463/6).

(3) محيط المحيط، بطرس البستاني، مادة "طَهَرَ"، (558)، مكتبة لبنان، بيروت، 1998م.

(4) والآيات هي قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾سورة الفرقان: ٤٣ - ٤٤.

(5) للاستزادة والتعرف على مقاصد السورة ومناسبة هذه المشاهد لما قبلها، ينظر: البحر المحيط (460/6)، نظم الدرر (291/5)، مصاعد النظر (317/2 – 318)، في ظلال القرآن (2544/5)، التحرير والتنوير (3-2/19).

الليل والنهار، وما وراءهما من أسرار الأختيار والتدبير، وما فيهما من رحمة من الخالق سبحانه، ليوقظ القلوب من همود الإلف والعادة – كما هي طبيعة القرآن- لا تلبث أن تقهر برودة الإلف، وطول المعرفة، يلفتهم إلى تملي هذه المشاهد العظيمة من حولهم، وتنبيهاً لهم على أن الحياة كلها تحتاج إلى فترة الليل، كما أنها محتاجة لفترة النهار.

فلو تخيل لهم اضطراب النواميس الكونية في الدنيا وما يحل بهم لو استمر الليل بظلامه، أو النهار بضيائه. فكما أن النهار ضياء ونعمة، فالليل ظلامه رحمة، وفوق ذلك كله فالنهار هو للمعاش والليل للسكن.

فالقرآن الكريم بعرضه لهذه الظواهر يوجه الأنظار إلى المنفعة الحاصلة لهم من خلقه هذا الكون وطبيعته، وإلى دلالة هذه الظواهر على خالقها، وإعلاماً بالقدرة وتعريفاً بالإله الخالق، ليجعل من هذه الظواهر مجالاً من مجالات التعريف.

قال تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1].

عرضت هذه الآيات الكريمة ظاهرتين كونيتين، هي في غاية التعريف بموجدها [2]، وتدل على كمال قدرته وتمام حكمته وطلاقة إرادته، كما تدل أيضاً على شدة حاجة العباد إلى فضله تعالى ورحمته، ولهذا سلكت أسلوب الاستفهام التقريري.

ومشاهد الليل والنهار واختلاف أحوالهما، مجال من مجالات التعريف بخالقها، الدالة عليه، وقد تنبه ابن القيّم إلى عرض هذه المشاهد، وإلى إختلاف أحوال الليل والنهار في أقسام القرآن، وتأوله بأن الله سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله، إذ هو آية من آياته الدالة عليه[3]. فمشهد قدوم الليل، والنور يختفي والظلمة تغشى: مشهد

---

(1) سورة القصص: 71-73.

(2) من العلماء الذين عدوا هذه الآيات في سياق إثبات وجود الخالق: البقاعي في تفسيره، وسيأتي كلامه لاحقاً، والميداني في كتابه العقيدة الاسلامية واسسها (118). وقد مر معنا في المبحث السابق أن القرآن الكريم استدل بالحركة التي يمثلها (الأفول) و(التسخير) دليلاً على حدوثها وإثبات وجود الخالق، استدل هنا بتعاقب الليل والنهار للغرض نفسه.

(3) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، ابن القيّم، تحقيق: طه يوسف شاهين (5)، القاهرة، دار الطباعة المحمدية، 1388هـ-1968م.

مكرور وهو مع تكراره اليومي عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكر فوق ما فيها من النعمة.

قال ابن كثير في تفسير الآيات: (يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهما بدونهما وبيّن أنه لو جعل الليل دائما عليهم سرمداً إلى يوم القيامة، لأضرّ ذلك بهم، ولسئمته النفوس وانحصرت منه، ولهذا قال تعالى: (مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ) أي: تبصرون به وتستأنسون بسببه، (أَفَلَا تَسْمَعُونَ) ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمداً، أي دائماً مستمراً إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلّت من كثرة الحركات والأشغال ولهذا قال تعالى: (مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ) أي تستريحون من حركاتكم وأشغالكم)[1].

فالذي أبدع وأحكم نواميس تقلب الليل والنهار، هو الله وهو القادر على تغييرها وجعلهما ليلاً دائماً، كما أنه قادر على جعلهما نهاراً دائماً أيضاً.

قال البقاعي: (ولما كان النور نعمة في نفسه، ويعرف به خالقه، صرح به وطوى أثره فقال: (يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ) أي يولد نهاراً تنتشرون فيه، ولقوة إعلامه بالقدرة وتعريفه بالله عبر بهذا دون يؤتيكم ضياء، ولما كان الليل محل السكون ومجمع الحواس، فهو أمكن للسمع وأنفذ للفكر، قال تعالى: (أَفَلَا تَسْمَعُونَ)...

ولما كان الظلام غير مقصود في نفسه، وكان بعد الضياء في غاية التعريف بموجده، عدل عن اسمه فقال معبراً لمثل ما مضى: (يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ) أي ينشأ من ظلام، ثم بين ما يدل على حذفه من الأول فقال: (تَسْكُنُونَ فِيهِ)... ذكر الضياء أولاً دليلاً على حذف الظلام ثانياً، والليل والسكون ثانياً، دليلاً على حذف النهار والانتشار أولاً، ولما كان الضياء مما ينفذ فيه البصر قال: (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) أي بالبصر والبصيرة)[2].

فلما كانت المشاهد المعروضة متباينة، اختلفت خاتمة كل مشهد، فختم آية الليل بقوله: (أَفَلَا تَسْمَعُونَ)لأن الليل يصلح فيه السمع، وختم آية النهار بقوله: (أَفَلَا

---

(1) تفسير القرآن العظيم (402/3)، ينظر: تيسير الكريم الرحمن (659-660).
(2) نظم الدرر (514/5) ينظر: أنوار التنزيل (199/2).

تُبۡصِرُونَ) لأنه صالح للأبصار[1]. وهذا من التناسق الفني بين الآيات[2].

وفي تعدية فعل (يَأۡتِيكُم) في الموضعين إيماء إلى أن إيجاد الضياء وإيجاد الليل نعمة على الناس، وصرحت الآيات بنعمة تعاقب الليل والنهار بقوله تعالى: (لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ) لتسكنوا في أحدهما وهو الليل، ولتبتغوا من فضل الله وهو النهار[3].

كما أن الاختلاف في الموضعين بين (يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ) و (يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ) يعود إلى اختلاف المنافع الحاصلة منهما. قال الزمخشري: (فإن قلت: هلا قيل: بنهار تتصرفون فيه، كما قال: (بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ)؟ قلت ذكر الضياء وهو ضوء الشمس: لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة، ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة)[4].

ونظير هذه الآيات التي تبين نعمة الليل والنهار والمنفعة الحاصلة من تسخيرهما، فقد عبر القرآن الكريم عن هذه النعمة في هذا التعاقب في آية أخرى فقال تعالى:﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً ﴾[5]، فالتعبير ههنا عن آية النهار بـ(مُبۡصِرَةً) أدلّ على موقع النعمة لأنه يكشف عن وجه المنفعة[6].

والآيات فيها تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، وأن يوازن بين حالة وجودها، وبين حالة عدمها، فإنها تنبه العقل إلى موضع المنة، وتذكر بالمنعم وحقيقة وجوده.

وهذا التنبيه بهذه النعمة-وبالنعم عامة- من حيث هي نعم من الله تعالى، وتفضل منه، لا أن يكون الفرح بالنعم من حيث هي نعم وحسب. ونعم الله كثيرة في هذه الآية وغيرها من مشاهد الطبيعة وظواهرها، وقد مر معنا أنها على وفرتها لا تحصى، وقد تنبه الرازي أكثر من غيره إلى هذا المعنى فقال: (يجب على العاقل أن لا يفرح بها-أي النعمة- من حيث هي هي، بل يجب أن يفرح بها من حيث إنها من

(1) ينظر: البرهان في علوم القرآن (82/1)، ملاك التأويل (762/2).
(2) ينظر: في ظلال القرآن (2708/5)
(3) ينظر: الكشاف (323/3)، التحرير والتنوير (71/20).
(4) الكشاف (323/3)، ينظر البحر المحيط (125/7).
(5) سورة الإسراء من الآية 12.
(6) ينظر: النكت في إعجاز القرآن (81)، تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي محمد بن الطاهر، تحقيق: محمد عبد الغني حسن، (198)، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1375هـ - 1955م.

الله تعالى، وبفضل الله وبرحمته، لهذا السبب قال الصديقون: من فرح بنعمة الله من حيث إنها تلك نعمة فهو مشرك، وأما من فرح بنعمة الله من حيث إنها من الله كان فرحه بالله، وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة)[1].

وأن عدم الشكر سبب مباشر لنزع النعم ولعذاب الله، كما في قوله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)[2]. فلا ينبغي للإنسان أن يكفر بنعم الله عليه، بل عليه أن يعتبر بها ويتخذها آية من آيات الله الدالة على تفضله عليه، و إحسانه إليه وأنها يجب أن تقابل بالشكر لا بالكفران. لقد نبه القرآن الكريم في هذا الوضع على هذا التلازم، بين النعم المتوالية المذكرة بالمنعم، وبين شكر المنعم، ولذا ناسب أن تكون خاتمة الآيات بقوله تعالى: (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

وكما لفت القرآن الكريم الأنظار إلى ظاهرة الليل والنهار، التي نراها تتكرر كل يوم، فإنه يلفتها إلى ظاهرة أخرى، قد لا تتكرر كثيراً، ألا وهي ظاهرة سوق السحاب بواسطة الرياح، وتراكم بعضه فوق بعض، وخروج المطر من السحاب نازلاً إلى الأرض، وإلى ظاهرة أخرى أكثر غرابة وهي نزول كتل مائية كبيرة تشبه الجبال الراسية على الأرض. وهي ظواهر مدبرة ومقدرة، تتحقق بقدرة الله سبحانه.

والقرآن الكريم لايكتفي بذكر المشاهد وحدها، وإنما يقرن معها ظاهرة الليل والنهار وكيفية تعاقبهما بنظام دقيق ثابت لا يتغير، ثم يجعل هذه الآيات عبرة لأولي العقول المفكرة المبصرة، التي تدرك بعد التأمل في هذه المشاهد العجيبة أن وراءها يد القدرة والتدبير، وأنها أدلة قاطعة على وجود الخالق العظيم، وأثر من آثار حقيقة الألوهية يجعل منها القرآن الكريم مجالاً تتجلى فيه حقيقة وجود الله تعالى.

قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ

(1) مفاتيح الغيب (270/6). وللفلاسفة منحى غير هذا مخالف. فإنهم يذهبون فيه إلى أن الفرح بالشيء إنما يكون لذاته، دونما أي أعتبار لأي شيء خارجي. ينظر: مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية، حسن إبراهيم عبد الله، (126)، الرياض، دار عالم الكتب، 1405هـ.

(2) سورة إبراهيم: 7. والآية الكريمة تبين حقيقة خطِرة وهي: زيادة النعمة بالشكر والعذاب الشديد على الكفر.

يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ)[1].

قال الزمخشري: (وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته وظهور أمره... وأنه سخر السحاب التسخير الذي وصفه وما يحدث فيه من أفعاله حتى ينزل المطر منه، وأنه يقسم رحمته بين خلقه ويقبضها ويبسطها على ما تقتضيه حكمته، ويريهم البرق في السحاب الذي يكاد يخطف أبصارهم، ليعتبروا ويحذروا. ويعاقب بين الليل والنهار، ويخالف بينهما بالطول والقصر، وما هذه إلاّ براهين في غاية الوضوح على وجوده وثباته، ودلائل منادية على صفاته. لمن نظر وفكر وتبصر وتدبر)[2]. ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد جبال حقاً بضخامتها، ومساقطها، وارتفاعاتها وانخفاضاتها، وأنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس، إلا بعد ما ركبوا الطائرات[3]. ويبدو أن لا يمكن لأحد أن يدرك دقة التعبير القرآني وموضعيته، إلا إذا حلق في الطائرة فوق كتل السحاب الهائلة[4]. ومن مشهد السحب المصور كالجبال، إلى مشهد الليل والنهار. وأن الله- سبحانه- يتصرف فيهما، فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا، ثم ياخذ من هذا في هذا، فيطول الذي كان قصيرا، ويقصر الذي كان طويلا، والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه [5].

فكما أن نزول المطر ضروري لحياة الإنسان والنبات والكائنات الحية، كذلك تعاقب الليل والنهار بهذا النظام الذي لا يختل، وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن أسرار الحياة على سطح الأرض وسريان الطاقة في النظام الحيوي في الكائنات النباتية

---

(1) سورة النور 43-44.

(2) الكشاف (188/3).

(3) ينظر: في ظلال القرآن (2522/4) التحرير والتنوير (261/18).

(4) ومن هنا يمكن القول بأن لا يلتفت الى ما قاله بعض المفسرين، مع إجلالنا لفضلهم وعلمهم، في تفسير الجبال في هذه الآيات، بتفسير مناف لما هو ثابت اليوم، وما يشاهده الراكب للطائرة. ونقول إنهم معذورون، لعدم تيسر الوسائل التي تكشف عن حقائق الكون في زمانهم. وهذا يقوّي ما دعوت إليه في المبحث السابق، من تنقية كتب التفسير، مما علق بها من تفسير للآيات الكونية منافيا لما هو ثابت اليوم، ثبوتاً لا يختلف عليه أحد من البشر، ودليله الحس. ينظر: ما قاله الطبري (569/5) والزمخشري (188/3)، ابن كثير، (302/3)، القرطبي (266/12)، القاسمي (415/7)، سيما أن علماء الأصول يقررون في أبواب تأويل الظاهر أنه (يجب التأويل متى كان دليله قاطعاً لايجوز العدول عنه، ويذكرون من أدلة تخصيص العموم: (دليل الحس، ودليل العقل) ونظير ذلك يكون في تأويل الظاهر، فيتم التأويل بناءً على دليل الحس. أو دليل العقل)، ينظر: صراع مع الملاحدة حتى العظم، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني(38)، دمشق، دار القلم، ط1، 1394هـ - 1974م.

(5) تفسير القرآن العظيم (598/3).

المنتجات يكمن في تقلب الليل والنهار[1]. لذلك جاءت آية تقلب الليل والنهار عقب آية نزول المطر تاكيداً لهذه العلاقة التي أثبتتها الدراسات الحديثة.

كما أن سر اختيار لفظ (يُقَلِّبُ) مع ظاهرة الليل و النهار في هذا الموضع دون غيره من المواضع يوحي بوجود هذه العلاقة.

وبهذه النتيجة التي أثبتتها نتائج العلم، وفي ضوء ما تقدم لا نتفق مع صاحب التحرير والتنوير في قوله: (والإشارة الواقعة في قوله: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ) إلى ما تضمنه فعل (يُقَلِّبُ) من المصدر. أي أن في التقليب. ويرجح هذا القصد ذكر العبرة بلفظ المفرد المنكر)[2]. فإنه قد رجّح أن العبرة المذكورة في خاتمة الآية تخص التقليب دون غيره من الظواهر مما ذكرته الآيات. كما توحي به العبارة.

لا أعلم أحداً من المفسرين، قال بمثل قول ابن عاشور، فإن عامة المفسرين فسروا معنى (لَعِبْرَةً) لتشمل كل ما سبق من ظواهر ذكرتها الآيات، ولم يقصروا العبرة في التقليب[3].

وهذا التفسير- أي الذي ثبت بالعلم التجريبي- يلقي بظلاله على إختيار خاتمة الآية بقوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ) ولفظ (عِبَرة) كما يقول الراغب في المفردات من مادة عبر وتعني: العبور والأنتقال من حالة إلى أخرى، وهنا حيث يرى المعتبر حالة يدلك من خلالها على حقيقة لا يمكن ملاحظتها أطلقوا على ذلك (عِبَرة). ومعلوم أن الظواهر المذكورة في الآيتين يتحقق فيها معنى العبور من حالة إلى أخرى. ولذلك عرف بعضهم العبرة بأنها: (الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد)[4].

وعليه فإن مفهوم الآية هو بمقدوركم أن تصلوا إلى معرفة الله وربوبيته وحقيقة وجوده من

---

(1) ينظر: آثار ظلام الليل وضوء النهار على النبات، أ.د. قطب عامر فرغلي (32)، بحث مقدم الى المؤتمر العالمي العاشر للاعجاز العلمي في تركيا، دار جياد للنشر والتوزيع، 1432هـ-2011م.

(2) التحرير والتنوير (264/8)، سيما أن الظواهر المذكورة في الآيتين هي: إنشاء السحاب، وإنزال الودق، وإنزال البرد من السماء، وتقليب الليل والنهار. فهذه أربع ظواهر طبيعية سبقت الإشارة إلى العبرة. وكنا نتمنى من المحقق ابن عاشور أن يلتفت إلى هذه الدلالة الراجحة، ويدعمها بما عرف عنه من ذوق في إدراك معنى الآية والترجيح بين الأقاويل المختلفة.

(3) ينظر: جامع البيان (569/5)، الجامع لأحكام القرآن، (267/12)، أنوار التنزيل (128/2)، البحر المحيط (427/6)، نظم الدرر (273/5)، روح البيان (216/6)، أولى ما قيل في آيات التنزيل (191/6).

(4) روح البيان (216/6).

خلال ملاحظة أسرار وعجائب هذه الظواهر[1] والكشف عن العلاقة بين هذه الظواهر وأثرها في حياة النبات. وهذا كله ملحوظ في هدي المعنى اللغوي لـ(عِبَرة).

وبهذا تكون الآيات قد أضافت إلى ظاهرة الليل والنهار في الموضع السابق، أهمية هذه الظاهرة في دورة حياة النبات مبينة لحقيقة قرآنية لم تكن معروفة وقت النزول هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أن هذا العرض لظاهرة الليل والنهار في القرآن، يوقفنا على أسرار تكرار القرآن الكريم لحديث التقليب وتعاقبه وما يترتب عليه من أثر عميق في الحياة بما ينبت من الزروع، وأن أي موضع ذكرت فيه هذه الظاهرة، دعت إليه المناسبة، ومن ثم أضافت شيئاً جديداً لم يذكر في غيرها من المواضع.

ويلاحظ هنا أن القرآن الكريم نوّع في مجالات التعريف بالخالق، وحقيقة وجوده، وهذا ليس بدعاً في أسلوبه الذي يعرض ظواهر الطبيعة في سياق يتحدث عن حقيقة الإلهية، يراها كل ناظر إليها، كظاهرة مد الظل. وظاهرة الليل والنهار، وظاهرة سوق السحاب ونزول المطر، فإنه حينئذ يتناولها بتفصيل واضح ودقيق يبين فيه واقعية وحقيقة هذه المشاهد التي تعرضها الآيات مقرونة بالنعم الإلهية الحاصلة منها.

ثم يختتم السياق دائماً بالتذكير والامتنان والاشارة إلى العبرة من تلك الظواهر؛ ولذلك جاء في ختام مشهد الظل قوله تعالى:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)[2].

وفي ختام آيات الليل والنهار قوله تعالى:

(وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[3].

وفي ختام آيات سوق السحاب ونزول المطر قوله تعالى:

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ)[4].

---

(1) وهذه الحقيقة أقرَّ بها العلماء حتى من غير المسلمين، وفي هذا يقول "جون كيفلاند كوثران" وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالم: (إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد بوجود الله)، الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين (21)، القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه، ط3، (د.ت). وقد جاء في هذا الكتاب ثلاثون مقالاً لثلاثين من كبار العلماء في الاختصاصات العلمية المختلفة في علوم الكون السائدة في العصر الحديث. وقد أثبت هؤلاء العلماء في مقالاتهم هذه حقيقة وجود الله تعالى، عن طريق ما وعوه من الأدلة الكثيرة، المنبثة في مجالات اختصاصاتهم العلمية.

(2) سورة الفرقان: 50.

(3) سورة القصص: من الآية: 73.

(4) سورة النور: من الآية: 44.

الفصل الثاني

حقيقة الوحدانية والتنزيه

الفصل الثاني

حقيقة الوحدانية والتنزيه

مدخـل..

إن مسألة توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والند، من أخطر المسائل التي جاء بها القرآن الكريم، بل أخطرها جميعاً. إذ لم يكن المنكرون للإله وقت نزول القرآن، بأكثر من المشركين به، كما أنها أهم ما يميز الإسلام عن غيره من الأديان. وقد حرص القرآن الكريم على تجنّب المؤمنين الشرك، وبيّن أن الله يغفر الذنوب إلاّ أن يشرك به، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾[1].

وقد جعل القرآن الكريم مشاهد الطبيعة الضخمة وظواهرها مجالاً واسعاً تتجلى فيه حقيقة الوحدانية، وجعلها مجالاً للنظر والتدبر للحقّ الذي جاء به.

كما جعل هذه المشاهد وسائل للتصدي للافتراءات والانحرافات التي لابست العقل البشري وقت نزول القرآن، ومواجهة هذه الافتراءات، ومنها زعم اليهود أن عزيراً ابن الله، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله، وزعم مشركو العرب أن الملائكة بنات الله. وجعل يسخف تصوراتهم الفاسدة لحقيقة الألوهية الواحدة، من خلال عرض مشاهد الطبيعة وما فيها من حقائق تنفي هذه الفرية، لتكون شاهداً حياً على حقيقة الوحدانية، ووسائل مجدية لتصحيح فكري على نطاق واسع.

وقد عرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية، وساق هذه المشاهد من أجل هذه المسألة الخطِرة، ولعل أهمها -حقيقة وحدانية الخالق وتنزيهه– ليجعل منها مجالاً تتجلى فيها هذه الحقيقة.

وقد نوع القرآن الكريم في عرضه لهذه المشاهد بين عناصر الطبيعة وظواهرها، لذلك كانت مباحث هذا الفصل بحسب عرض هذه المشاهد في سياقها كالآتي:

المبحث الأول: الطبيعة السماوية والأرضية.

المبحث الثاني: الطبيعة الأرضية.

---

(1) سورة النساء: 48.

المبحث الثالث: الظواهر الطبيعية.
المبحث الرابع: تنزيه الخالق.

المبحث الأول

الطبيعة السماوية والأرضية

والقرآن الكريم يلفت أنظارالبشر إلى ما حولهم من السموات والأرض، وهما تفيضان عليهم بالنعم، وتفيضان بالرزق، يلفتهم إلى هذه النعم المنزلة من السماء، أو المخرجة من الأرض، كالغيث الذي به يستبشرون، والزرع الذي ينبت في الأرض، كلها خيرات الله ونعمه في هذه الطبيعة، ثم يجعل تلك النعم مجالاً تتجلى فيه حقيقة وحدانية الله سبحانه، حقيقة يواجه بها كل من ينصرف عن هذا الحق الظاهر، ويدحض به الشرك الذي كانوا به يدينون.

قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾[1].

وردت هذه الآية الكريمة في السياق الذي يتحدث عن حقيقة وحدانية الخالق المبدع. وحقيقة الاختصاص بالرحمة ثم أتبعها بهذه الآية التي تبين حقيقة الأنفراد بالرزق. وانتهى السياق بتقرير هذه الحقائق الكبرى، بعد أن بين أن الحمد لله وبيان بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل، ذكر النعم في هذه الآية على سبيل الإجمال[2].

قال الزمخشري: (والرزق من السماء المطر، ومن الأرض النبات... (فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ) في أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك ؟)[3].

وبهذا التفسير يتبين أن الرزق المذكور في الآية الكريمة، يتمثل في الماء النازل من السماء وكثيراً ما يعبر عنه القرآن بالنعمة[4] أو الرزق[1] أو الرحمة [2] أو

(1) سورة فاطر: 3.
(2) ينظر: مفاتيح الغيب (9 / 222)، في ظلال القرآن (2925/5).
(3) الكشاف (3 / 454) ينظر: مفاتيح الغيب (9 / 223) أنوار التنزيل (2 /268)، البحر المحيط (287/7)، محاسن التأويل (36/8).
(4) في قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾سورة إبراهيم:٣٢ - 33.

بالبركات[3]. كما يتمثل في النبات الذي ينبت في الأرض بكل أنواعه وأصنافه، فهو كذلك في مفهوم القرآن نعمةٌ، ورزق [4] فإخراج النبات، رزقاً للعباد، وهو كذلك نعمة لأن الله هو الذي أنعم به على هؤلاء العباد ليوحدوه ولا يشركون به غيره، بعد رؤية هذه المشاهد ولكل نوع من هذه النعم المذكورة جانب مادي وجانب معنوي- وقد مر معنا- بيان ذلك.

يقول ابن كثير: (ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق، فكذلك فليفرد بالعادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد و الأوثان، ولهذا قال تعالى: (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) أي فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان)[5].

بيد أن الآية الكريمة التي بينت المجال الذي تتجلى فيه حقيقة الوحدانية، عرضته على سبيل الإجمال، ولم تفصّل شيئاً عن مجالات الطبيعة الواسعة وما فيها من النعم، بل اكتفت بالإشارة إلى الرزق الذي أنعم به الله من السماء والأرض. وسبب ذلك يعود إلى ترتيب السورة التي تضمنت الآية في النزول، فإن الإجمال كثيراً ما يكون سابقاً للتفصيل في النزول، وهذا الأمر ملحوظ في السور القرآنية، وهو نوع من أنواع المناسبة على مستوى أكثر من سورة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر إن القرآن الكريم كان يرمي من هذا الإجمال تثبيت هذه

---

(1) في قوله تعالى:﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾سورة البقرة: ٦٠.

(2) في قوله تعالى:﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾سورة الروم:٤٦، ينظر: معها الآية: 13من سورة غافر، والآية: 5 من سورة غافر والآية: 22 من سورة الذاريات.

(3) في قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾سورة الأعراف: ٩٦.

(4) في قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ سورة إبراهيم: ٣٢ - 3٣.

(5) تفسير القرآن العظيم (552/3)، ينظر: محاسن التأويل (36/8).

الحقيقة- حقيقة الألوهية ووحدانيتها- في النفوس ثم يأتي بالتفصيل بعد ذلك.
وبعد أن بين السياق هذه الحقيقة وهي الأصل الأول، ذكر الأصل الثانيالرسالة، وهي حقيقة من الحقائق الإيمانية، وإن هذه الحقيقة ليست بمعزل عن الحقائق الإلهية، بل هي متفرعة منها، وهي مناسبة ظاهرة بين الآيتين. قال تعالى: (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ)[1].

والخطاب في الآية للرسول (صلى الله عليه وسلم)، نعى به قريشاً سوء تلقيهم لآيات الله، فإن الحقائق الكبرى- التي ذكرتها الآيات- واضحة بارزة، فإن يكذبوك فلا عليك من التكذيب والأمر كله لله، وإليه ترجع الأمور[2].

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل الإنعام الإلهي والرزق في السموات والأرض مجالاً تتجلى فيه حقيقة وحدانية الخالق وحقيقة الإنفراد بالرزق، فإنه قد عرض هذه المشاهد الضخمة: السموات والأرض وبين أن الله خالقها، ثم فصَّل الحديث عن هذا الخلق، وبين أنه كان في "ستة أيام"، والقرآن الكريم إذ يقرن خلق السموات والأرض بهذه الايام الستة، فإنه يجعلها مجالاً من مجالات التعريف بالخالق، وحقيقة وحدانيته المقتضية عبادته دون سواه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[3].

إن تكرار الحديث عن خلق السموات والأرض في هذا الموضع من سورة يونس، وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم، هو أثر من آثار العبرة، وسبب من أسباب التذكرة، بل أن الحديث عن هذا المجال الضخم من الطبيعة يمثل دعوة لعبادة الله وحده، وترك كل معبود يتتخذه الانسان رباً له.

قال البيضاوي: (إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ) التي هي أصول الممكنات (سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ) يقدر أمر الممكنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته ويهيء بتحريكه أسبابها وينزلها منه، والتدبير النظر في أدبار

(1) سورة فاطر: 4.
(2) ينظر: الكشاف (455/3)، الجامع لأحكام القرآن (282/14)، في ظلال القرآن (2926/5).
(3) سورة يونس: 3.

الأمور لتجئ محمودة العاقبة. (مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ) تقرير لعظمته وعز جلاله، ورد على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله وفيه إثبات الشفاعة لمن إذن له (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ) أي الموصوف بتلك الصفات المقتضية للألوهية والربوبية (رَبُّكُمۡ) لا غير إذ لا يشاركه أحد في شيء من ذلك (فَٱعۡبُدُوهُۚ) وحدوه بالعبادة. (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) تتفكرون أدنى تفكر فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه) [(1)].

ولما كان طبيعة القرآن المكي – كما سبق بيانه – والموضوع الأساسي في سورة يونس تنحية كل ما دخل على العقيدة من انحرافات وما لابسها من جاهليات.

جاء بعد عرض هذه المشاهد قوله تعالى: (مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ) وهو مواجهة ما كانوا يعتقدونه والرد عليهم، ذلك حين كان الكفار المخاطبون بهذه الآية يقولون: إن الاصنام شفعاؤنا عند الله [(2)]. كما دلت الآية الكريمة على إثبات الشفاعة[(3)].

ومن أجل تقرير مقتضيات هذه الحقيقة وهي عبادته وحده أتبعه بقوله تعالى: (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) فإن الأمر من الثبوت والوضوح بحيث لا يحتاج إلا لمجرد التذكر لهذه الحقيقة المعروفة، وإن التفكر والنظر في هذه

---

(1) أنوار التنزيل (428/1).

(2) ينظر: مفاتيح الغيب (193/6) في ظلال القرآن (1763/3) وللتعرف على موضوع السورة ومقاصدها، ينظر: نظم الدرر (411/3)، التحرير والتنوير(93/5-194).

(3) تحدث القرآن الكريم عن الشفاعة التي كانت قرينة الشرك، ومستند المشركين، وأبطلها، ونفى في مواضع كثيرة الشفاعة في اليوم الآخر، لكنه أثبت الشفاعة لبعض خلقه بنطاق ضيق ومحدود، على سبيل الاستثناء. وقد جرت عادة القرآن في إثبات الشفاعة، أن تكون مرتبطة بالنفي المتقدم، وهو الأصل في الغالب والاثبات إستثناء وتخصيص، ومنها الآية موضع البحث وهكذا= =فهم علماء الأمة الأفاضل أن الشفاعة التي أبطلها الله –عز وجل-، هي غير الشفاعة التي أثبتها، وأجمعوا على أن شفاعة النبي (ﷺ)ثابتة للأمة. واتفقت الفرق الإسلامية على ذلك كالأشاعرة والمعتزلة – في نطاق ضيق للتائبين من المؤمنين – والظاهرية والسلف. ينظر: شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار (687)، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1384هـ - 1965م. التمهيد، ابو بكر الباقلاني، (402)، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1407هـ - 1987م، المواقف، عضد الدين الآيجي، (380)، عالم الكتب، بيروت، (ب.ت)، الإرشاد في قواطع الأدلة في أصول الإعتقاد، الإمام الجويني، تحقيق: محمد يوسف وعلي عبد المنعم (395)، مكتبة الخانجي، مصر، 1369هـ - 1950م. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسي (234/3)، دار الندوة الجديدة، بيروت. مجموع الفتاوى، لابن تيمية (309/4).

المشاهد ينبه على ما كانــوا عليه مـن الخطأ وفيما هم عليه من تصور هذه الحقيقة [(1)].

والتعقيب بقوله تعالى: (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) بعد عرض هذه المشاهد من أجل إدارك حقيقة وحدانيته تعالى، من خلال المجالات المعروضة، كون التذكر: (استحضار معرفة سابقة، للانتقال منها إلى معرفة أخرى)[(2)]. فالناظر لهذه المشاهد تحصل عنده المعرفة، ثم ينتقل إلى معرفة وحدانية منشأها ومبدعها على ما فيها من عجائب الصنع والذي تجب عبادته.

وإذا كان القرآن الكريم قد بين حقيقة الوحدانية، وقد جعل مشاهد السموات والأرض مجالاً تتجلى فيه هذه الحقيقة. فإنه يحث الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي بعثه ربه –عز وجل- بالتوحيد العظيم، وأمره أن يدعوا الناس إلى صراط الله المستقيم، وأن يبين هذه الحقيقة، ويستنكر العبودية لغير الله، وأن لا يتخذ غير الله ولياً ولا إلهاً، وقد أبدع السموات والأرض وبدأهما وأوجدهما على غير مثال سابق، وأنه هو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، وتقرير هذه الحقيقة التي بينها القرآن الكريم هي إتخاذ الله وحده رباً ومولى يدين له العبد بالعبادة وحده.

قال تعالى:﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[(3)].

قال رشيد رضا في تفسيره: (فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) مبدعهما أي مبدئهما على غير مثال سابق... وصف الله تعالى بفاطر السموات والأرض –وهو لا نزاع فيه– يؤيد أنكار اتخاذه ولياً يستنصر ويستعان به، أو يتخذ واسطة للتأثير في الإرادة الإلهية، فإن من فطر السموات والأرض بمحض إرادته من غير تأثير مؤثر، ولا شفاعة شافع، يجب أن يتوجه إليه وحده بالدعاء، وإياه يستعان في كل الأسباب، وأكد هذا بقوله: (وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ)[(4)].وهذا التفسير يتفق مع الجو العام للسورة –العهد المكي– كما يتفق مع الموضوع الرئيسي للسورة –كما مر بيانه– ومع السياق الذي وردت فيه الآية، فقد سبقها عرض موقف المشركين الذين يعارضون الدعوة الاسلامية، وعرض صورة العناد والمكابرة التي

(1) ينظر: الكشاف (245/2)، في ظلال القرآن (1763/3).
(2) إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي (167/10) بهامش الإتحاف، بيروت، دار الفكر (ب.ت).
(3) سورة الأنعام: 14
(4) تفسير المنار (331/7).

كانوا عليها، ثم مواجهتهم بالتهديد مرة[1]. وتوجيههم بالسير والنظر للوقوف على مصارع المكذبين[4].

والآية الكريمة قد أضافت إلى مشاهد السموات والأرض، الرزق الحاصل من هذه المشاهد، والمنافع الناتجة منها وجعلها من المجالات التي تظهر فيها حقيقة الوحدانية.

قال الرازي: (وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ) أي هو الرزاق لغيره ولا يرزقه أحد. فإن قيل: كيف فسرت الإطعام بالرزق ؟ وقد قال تعالى: (مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ)[2] والعطف يوجب المغايرة.

قلنا: لا شك أن حصول المغايرة بينهما، إلا أنه قد يحسن جعل أحدهما كناية عن الآخر لشدة ما بينهما من المقاربة. والمقصود من الآيةأن المنافع كلها من عنده و لايجوز عليه الانتفاع)[3] وإن تخصيص الطعام في الذكر لشدة الحاجة اليه[4].

وبهذا يتبين أن الآية الكريمة قد جمعت ما ذكر في الآيتين اللتين ذكرناهما، فالآية الأولى من سورة فاطر بينت حقيقة الإنفراد بالرزق، والآية التالية لها من سورة يونس بينت حقيقة وحدانية الخالق المبدع، وهذه الآية بينت هذه الحقائق في سياق واحد. فقد أضافت على سابقاتها في النزول إضافات وجمعت بين مجالين من مجالات التعريف.

ولما كانت هذه الآية تجمع هذه الحقائق جاء التعقيب بقوله تعالى: (قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)وهذا التعقيب (لتقرير مقتضيات هذه الحقائق من توحيد الولاية والتوجه، وتوحيد الاستسلام والعبودية.. واعتبار

---

(1) وهي قوله تعالىتعالى﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾سورة الأنعام: 6.

(1) وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾سورة الأنعام: ١١

(2) سورة الذاريات: 57

(3) مفاتيح الغيب (492/4)، ينظر: الكشاف (10/2)، البحر المحيط (90/4)، في ظلال القرآن (1054/2)

(4) ينظر: أنوار التنزيل (295/1)، الجامع لأحكام القرآن (365/6)، روح البيان (22/3) في ظلال القرآن(1047/2)

الولاية والتوجه مظهر الاستسلام والعبودية)[1].

وهذا التعقيب بقوله تعالى: (قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) اي من هذه الامة[2]، كون الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم)، فيه دلالة على أن الإسلام أول مراتب العبودية لله تعالى، وحقيقته: الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك[3]. وما خلص منه غيره عليه الصلاة والسلام بالكلية، وما أدرك هذه الحقائق أكثر مما يدركها ﷺ، وما عمل أحد بمقتضاها كعمله واجتهاده في عبادته لله تعالى ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: (أفلا أكون عبداً شكوراً)[4].

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل مشاهد الطبيعة من السموات والأرض مجالاً تتجلى فيه حقيقة الوحدانية، فإنه قد جعل تسخير هذه المشاهد وما تحويه من عناصر وما ينتج عنها من الظواهر وما فيها من النعم المشهودة، فجمع عامة النعم في هذه الطبيعة، وقرن معها النعم الموجودة في الإنسان الظاهرة والباطنة، والقرآن الكريم إذ يقرن النعم الآفاقية والنعم الأنفسية، فإنه يرمي إلى الغاية من التعريف بالمنعم وإلى مقتضيات هذا التعريف –وقد مر معنا– أن غاية آيات الآفاق الإيمان، وغاية آية النفس اليقين، ثم جعل هذه النعم العامة مجالاً تتجلى فيه حقيقة وحدانية المنعم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾[5].

قال الرازي: (فلما بين أنه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلا عمد وإلقائه في

---

(1) في ظلال القرآن(1047/2)

(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم (30/2) وهو قول الحسن، ينظر: الجامع لأحكام القرآن (256/6) ولذلك عرف بعضهم الإسلام بأنه: (دين الله الذي بعث به الأنبياء جميعاً، تجدد على يد محمد ﷺخاتم النبيين، كاملاً وافياً لصلاح الدين والآخرة). الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، محمد عبد الرحمن الرواي، (39)، الرياض، مكتبة الرشد، ط3، 1411هـ - 1991م.

(3) ينظر: ثلاثة الأصول وأدلتها، لمحمد عبد الوهاب، (8)، الرياض، مؤسسة النور. د.ت

(4) ينظر: الحديث كاملاً في: صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، كتاب الجمعة، باب: قيام النبي ﷺ، رقم الحديث: (1130)، دار المعرفة، بيروت. صحيح مسلم، مسلم بن حجاج النيسابوري، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم الحديث (2819)، حققه وأشرف على إخراجه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(5) سورة لقمان: 20

الأرض الرواسي. وذكر بعض النعم بقوله: (وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً)[1]. ذكر بعده عامة النعم فقال: (سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ) أي سخر لأجلكم ما في السموات، فإن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله وفيها فوائد لعباده، وسخر ما في الأرض لأجل عباده)[32].وإذا كانت الآية الكريمة تشمل عامة النعم في الطبيعة المشهودة السماوية والأرضية، فإنها تعم كافة النعم في النفس الظاهرة والباطنة، وما تعلم وما لا تعلم، وبهذا تكون قد جمعت النعم الآفاقية والنعم الأنفسية.

قال الزمخشري: (مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ) الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك (وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ) البحار والأنهار والمعادن والدواب وما لا يحصى... فإن قلت: فما معنى الظاهرة والباطنة ؟ قلت: الظاهرة كل ما يعلم بالمشاهدة، والباطنة ما لا يعلم الا بدليل، أو لا يعلم أصلا، فكم في بدن الإنسان من نعمة لا يعلمها ولا يهتدي إلى العلم بها... وعن الضحاك: الظاهرة: حسن الصورة، وامتداد القامة. وتسوية الأعضاء. والباطنة: المعرفة. وقيل: الظاهرة البصر، والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة. والباطنة: القلب، والعقل، والفهم، وما أشبه ذلك)[3].

ومع كل هذه النعم العامة في الطبيعة، وفي الأنفس، التي تبين حقيقة وحدانية المنعم فإن فريقاً من الناس لا يتدبرون هذه النعم، ولا يوقنون بالمنعم، بل يجادلون في توحيده، فجاء التعقيب يكشف عن تلك الآفة، التي تربطهم بما ألفوا أنفسهم عليه ارتباطاً شديداً. ذلك الجدال الذي يثبت غير الله إلهاً أو منعماً، وذلك المستند الوحيد وهو التقليد الجامد.

قال البيضاوي: (يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ) في توحيده وصفاته. (بِغَيْرِ عِلْمٍ) مستفاد من دليل. (وَلَا هُدًى) راجع إلى رسول. (وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ) أنزله الله بل التقليد)[4].

وبهذا التفسير يتبين أن النهي عن التقليد في خاتمة الآية وفي ثنايا آيات العقيدة

---

(1) سورة لقمان: 10

(2) مفاتيح الغيب (124/9)، ينظر: محاسن التأويل (618/7).

(3) الكشاف (377/3) وممن أيد قول الزمخشري في معنى الظاهرة والباطنة، ابو حيان حيث قال: "والذي ينبغي أن يقال أن الظاهرة مما يدرك بالمشاهدة، والباطنة: مما لا يعلم إلا بدليل" البحر المحيط (185/7) .

(4) أنوار التنزيل (229/2)، ينظر: تفسير القرآن العظيم (455/3)، تفسير سورة لقمان، عبد الهادي الأراشيكي (82 - 83) المكتبة الإسلامية، ديار بكر، (ب. ت).

فيه دلالة على أهمية الموضوع وخطورته، وما نحن عليه الآن من التقليد الأعمى في كل شيء وما جلب لنا هذا التقليد من الويلات، تحت مسمى العلمانية الفاشلة، والمدنية الكاذبة، كله سبب ذلك التقليد الذي سلب منا شباب الأمة. تحت هذه المسميات الواهية والشعارات الخداعة.

وفي موضع آخر عرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية، ونوّع فيه بين ظواهر هذه الطبيعة وبين عناصرها، فبدأ بظاهرة الليل والنهار، وبين أن الله سبحانه هو الذي جعل الليل مسكناً وراحة، والنهار مبصراً معيناً على الرؤية و الحركة، ثم قرن هذه الدورة وهذا التعاقب بذكر فضل الله ونعمه، ثم عرض مشهد السماء والأرض، وبين أن الله سبحانه جعل الأرض قراراً صالحاً للحياة، والسماء بناءً متماسكاً لا يختل ولا يتداعى، ثم قرن هذه المشاهد بخلق الإنسان الذي خلقه الله وأحسن صورته، ثم جعل هذه المشاهد المقرونة بالنعم مجالاً تتجلى فيه حقيقة وحدانية الخالق وربوبيته.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

سبقت هذه الآية الكريمة قوله تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) فلما أمر سبحانه بالعبادة، كون الدعاء هنا بمعنى العبادة كما يقول أكثر المفسرين[2]، والدعاء بمعنى العبادة

---

(1)سورة غافر: 61 – 65.

(2)ينظر: الكشاف (133/4)، مفاتيح الغيب (528/9)، أنوار التنزيل (344/2)، الجامع لأحكام القرآن (287/15)، البحر المحيط (452/7)، تفسير القرآن العظيم (83/4)، روح البيان (271/8)، أولى ما قيل في آيات التنزيل (253/7) والذي يرجح أقوال المفسرين بأن الدعاء في الآية يعني العبادة. هو الاحتكام إلى قاعدة الأغلب في الاستعمال القرآني وهي قاعدة تستحضر عند الحاجة الى ترجيح معنى على غيره. لمزيد من التفاصيل ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين، للدكتور =

كثير في القرآن، ثم ذكر الذين يستكبرون عن عبادة الله، عرض بعض نعم الله على الناس المتمثلة بهذه المشاهد وما فيها من النعم، التي توحي بعظمة الله تعالى والتي لا يشكرون الله عليها، وتجمع ذلك يستكبرون عن عبادته والتوجه إليه.

قال الرازي: (لما كان أكثر مصالح العالم مربوطا بهما – أي تعاقب الليل والنهار – فذكرهما الله تعالى في هذا المقام، وبين أن الحكمة من خلق الليل وحصول الراحة بسبب النوم والسكون، والحكمة من خلق النهار، إبصار الأشياء ليحصل مكنة التصرف فيها على الوجه الأنفع... واعلم أنه تعالى لما ذكر ما في الليل والنهار من المصالح والحكم البالغة قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ والمراد أن فضل الله على الخلق كثير جداً ولكنهم لا يشكرونه)[1].

وجاء التعقيب على مشهد الليل والنهار وما فيهما من فضل الله ونعمه، بأن المخصوص بهذه الخصائص التي تقتضي الألوهيةوالربوبية، وتقرير هذه الخصائص ونتيجتها هي حقيقة الوحدانية.

قال البيضاوي: (ذَٰلِكُمُ) المخصوص بالأفعال المقتضية للألوهية والربوبية (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ) أخبار مترادفة تخصص اللاحقة السابقة وتقررها، وقرىء خالق بالنصب على الاختصاص فيكون لا إله إلا هو استئنافا بما هو كالنتيجة للأوصاف المذكورة)[2].

فإن الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد لا إله غيره ولا ربَّ سواه فكيف تعبدون غيره من الأصنام[3].

وإن كل من جحد هذه الآيات وهذه النعم المعروضة، ولم يتأملها ولم يكن فيه همّة طلب هذه الحقيقة[4]، كذلك يصرف كثير عن هذا الحق، في كل زمان ومكان، كما صرف من كان قبلهم.

قال الزمخشري: (ذَٰلِكُمُ) المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه

=

حسين بن علي الحربي (172/1) دار القاسم، الرياض ط11417هـ.

(1) مفاتيح الغيب(528/9).

(2) أنوار التنزيل (334/2)، ينظر: البحر المحيط (453/7) أولى ما قيل في آيات التنزيل (255/7).

(3) ينظر: تفسير القرآن العظيم (84/4).

(4) وهذا على تفسير العبادة بالتوحيد بقول الزمخشري في رواية عن ابن عباس (وحدوني اغفر لكم، وهذا تفسير للدعاء بالعبادة، ثم للعبادة بالتوحيد) الكشاف (133/4).

فيها أحد هو (ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ) أخبار مترادفة، أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء، وأنشائه لايمتنع عليه شيء، والوحدانية: لا ثاني له (فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) فكيف ومن أي: وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان. ثم ذكر أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة طلب الحق وخشية العاقبة)[1].

وبعد أن عرض مشهد الليل والنهار وعقب عليه بهذا التعقيب، عرضت الآيات مشهد السماء والأرض وقرنت معه مشاهد الأنفس، وهي ثلاث أحوال حدوث الصورة وحسن الصورة، والرزق من الطيبات.

قال القاسمي: (ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا) أي تستقرون عليها وتسكنون فوقها (وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً) أي مبنية مرفوعة فوقكم بغير عمد ترونها لمصالحكم وقوام دنياكم. وقد فسّر (البناء) بالقبة المضروبة؛ لأن العرب تسمي المضارب أبنية، فهو تشبيه بليغ.

(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) أي: يجعل كل عضو في مكان يليق به، ليتم الانتفاع بها، فتستدلوا بذلك على كمال حكمته (وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ) أي لذيذات المطاعم والمشارب لتشكروه وحده)[2].

ولما ذكرت الآيات هذه المشاهد الخمسة اثنتين من الطبيعة وثلاثة من الأنفس، جاء التعقيب عليها بقوله (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) بنفس التعقيب على المشاهد الأولى، وتفسير تبارك كما يرى عدد من المفسرين إما الثبات والدوام وإما كثرة الخيرات[3].

ثم أتبعه بالوحدانية والأمر بالدعاء – وقد مر معنا – أنها بمعنى العبادة، والإخلاص في الطاعة من الشرك والرياء[4] بقوله تعالى: (هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

(1) الكشاف (133/4).
(2) محاسن التأويل (206/8).
(3) ينظر: مفاتيح الغيب (530/9)، أولى ما قيل في آيات التنزيل (255/7).
(4) ينظر: الكشاف (133/4)، أنوار التنزيل (345/2)، تفسير القرآن العظيم (84/4)، روح البيان(278/8).

فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ).

وبهذا تكون هذه الآيات كما أنها مسبوقة بالأمر بالعبادة، كذلك تبعها التعقيب بالأمر بالعبادة، فلما كان الأمر بالعبادة لا بد وأن يكون مسبوقا بحصول المعرفة – كما مر بيانه – أتبعه بالتعريف بالخالق وحقيقة الوحدانية من خلال المشاهد المعروضة، ولما كانت العبادة من مقتضيات التعريف وغايته أتبعه بذلك، مضافاً إليه الإخلاص في العبادة. وبهذا يتبين أن القرآن الكريم ذكر في الآية السابقة مشاهد الطبيعة إجمالاً بقوله (أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ) وفصّل ذلك ههنا بعرض مشهد الليل ومشهد النهار، ثم عرض مشهد الأرض ووصفها بالقرار ومشهد السماء ووصفه بالبناء. وحين ذكر النعم الأنفسية هناك بقوله: (وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ) ذكر ههنا ثلاثة أحوال لهذه النعم، كخلق الصورة، وحسن الصورة، والرزق من الطيبات.

وبهذه تكون هذه الآيات قد فصّلت تلك المجالات ونوعت فيها، وأضافت عليها أضافات، وهذا التلوين في عرض المشاهد يقتضيه الموضع الذي عرض فيه المشهد في ترتيبه في السورة – وقد وقفنا على بعض جوانبه – كما اقتضاه زمن النزول ومكانه والجو العام الذي كان فيه الخطاب.

وإذا كان القرآن الكريم، في عرضه لحقيقة الوحدانية التي تتجلى في مجالات الطبيعة السماء والأرض –لم يذكر شيئا– عن بداية خلق هذه المشاهد سوى أنه قرنها بالأيام الستة، كما تبين في المواضع السابقة، فإنه قد بين في مواضع أخرى عن مشهد الخلق الأول للأرض والسماء وعن حقيقته، فبين أن خلق الأرض في يومين، وجعل الرواسي وتقدير الاقوات فيها يومين آخرين، وهي تمام الأيام الأربعة، ثم بين حقيقة خلق السموات وهي سبع سموات في يومين، وهذه هي الأيام الستة التي اقترنت بخلق السموات والأرض في مواضع كثيرة، فالقرآن الكريم إذ يفصّل هذا التفصيل الكثير عن خلق هذه المشاهد، فإنه يجعلها مجالاً تتجلى فيه حقيقة الألوهيةالواحدة.

قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ

﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾[1].

وردت هذه الآيات الكريمة بعد السياق الذي يتحدث عن دعوة النبي ﷺ للناس إلى الوحدانية وإخلاص العبادة، وتوبيخ الكافرين بشأن معتقدهم[2]. في الزكاة ثم بيان صفتين من صفاتهم، عدم ايتاء الزكاة والكفر بالآخرة، كما دلت بالإيماء أن نقيضهما صفتان للمؤمنين، وهذا المعنى هو الذي رجحه المحققون من المفسرين[3].

إن القرآن المكي الذي كان غرضه الأسمى موضوع العقيدة، لم يكن عرضه له مجرداً، فقد جمع إلى جانب الاعتقاد، الأمر بالإنفاق في هذا العهد المكي، حين كان المسلمون في أشد الحاجة إلى التكافل والتعاون.

إذ أن الآيات الكريمة ربطت بين عقيدة التوحيد وبين مشاهد الطبيعة في مجالها الواسع وبكثير من التفاصيل4[3].

قال البيضاوي: (قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ) في مقدار يومين، أو نوبتين وخلق في كل نوبة ما خلق في أسرع ما يكون... وكفرهم به إلحادهم في ذاته وصفاته. (وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ) ولا يصح أن يكون له ند. (ذَٰلِكَ) الذي خلق الأرض في يومين. (رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ) خالق جميع ما وجد من الممكنات ومربيّها)5[1].

ثم ينتقل البيان إلى عرض مشهد الجبال الراسية فوق الأرض، والخيرات الحاصلة من الأرض، وبيان حقيقة خلقها ومدة الخلق، وهذا التفصيل في الخلق والتصريح بمدة خلق عناصر هذه الطبيعة فيه تأكيد حقيقة التدرج في الخلق –وقد مر معنا– أن القدرة صالحة لخلقها دفعة واحدة، لكن العلم والحكمة أقتضيا هذا التدرج

---

(1) سورة فصلت (9-12).

(2) ويبدأ السياق من قوله تعالى ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾سورة فصلت: 6-8.

(3) ينظر: البحر المحيط (446/7)، محاسن التأويل (213/8)، التحرير والتنوير(473/1)، وهذا الموطن الذي اعترف سيد قطب في الظلال بعجزه عن الوقوف على مناسبة تخصيص الزكاة في هذا الموضع كون الآية مكية، والزكاة لم تفرض إلا في السنة الثانية من الهجرة في المدينة. ينظر: في ظلال القرآن (3109/5)، في حين أن المتأمل لحديث القرآن الكريم عن الزكاة منثور في السور القرآنية، مكيها، ومدنيها، بل أن الزكاة ذكرت في السور المكية أكثر مما وردت في السور المدنية.

(4) ينظر: نظم الدرر (559/6)، السماء في القرآن(96).

(5) أنوار التنزيل (349/2).

مع ما فيه من اعتبار وحث على التأني في الأمور.

قال الرازي: (قوله: (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا) المراد فيها الجبال... فإن قيل ما الفائدة في قوله (مِن فَوْقِهَا) ولم يقتصر على قوله (وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ) لكنه تعالى قال خلقت هذه الثقال فوق الأرض، ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أثقال، وكلها مفتقرة إلى ممسك وحافظ، وما ذاك الحافظ إلا الله سبحانه وتعالى...(وَبَارَكَ فِيهَا) والبركة كثرة الخير والخيرات الحاصلة من الأرض أكثر مما يحيط به الشرح والبيان...(وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا) أن المراد من إضافة الأقوات إلى الأرض كونها متولدة من تلك الأرض، وحادثة فيها لأن النحويين قالوا يكفي في الإضافة أدنى سبب فالشيء قد يضاف إلى فاعله تارة وإلى محله أخرى، فقوله (وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا) أي قدر الأقوات التي يختص حدوثها بها. ولما ذكر الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التدبير قال بعده (وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ)...وأعلم أن العلماء أجابوا بأن قالوا المراد من قوله (وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ) مع اليومين الأولين، وهذا كقول القائل سرت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وسرت إلى الكوفة في خمسة عشر يوماً يريد كلا المسافتين)[1].

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن قوله تعالى: (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) من المشاهد القرآنية التي تظهر فيها الصورة البيانية، التي تبث الحياة والحركة في المشاهد وتجعلها صورة شاخصة، تتحقق عن طريق التشخيص[2]، فالآية الكريمة فيها تشخيص دعوة السماء والارض وإجابتهما كأنهما عاقلان مميزان.

قال الزمخشري: (...ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما: أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه، ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا

---

(1) مفاتيح الغيب (9/544-545)، ينظر: الجامع لأحكام القرآن (15/299 – 300).

(2) التشخيص يتمثل في خلع الحياة على المحسوسات الجامدة، والظواهر الكونية فيجعلها ذات انفعال وتفكير وعاطفة. ينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، (63)، دار المعارف، القاهرة، 1386هـ - 1966م، البيان القرآني، د. محمد رجب البيومي (85)، طباعة مجمع البحوث، القاهرة، 1971م.

ورد عليه فعل الأمر المطاع، وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل... والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات)[1]، وقد تنبه إلى هذا اللون من الصورة البيانية من قبل، الإمام عبد القادر الجرجاني فوصفه بأنه (ضرب من المجاز كثير في القرآن)[2]

ولما ذكرت الآيات أن خلق الأرض وجعل الرواسي فيها وتقدير الأقوات، وذكر هذه الأحوال الثلاثة في أربعة أيام، وبيان تفصيل ذلك، أتبعتها الآيات التي تبين مدة خلق السماوات، من أجل بيان حقيقة التدرج في الخلق، ثم بيان عدد هذه السموات، وهي سبع سموات كما جاء في ظاهر الآية وفي غيرها من الآيات[3].

قال سيد قطب:(فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ)... واليومان قد يكونان هما اللذان تكونت فيهما النجوم من السدم. أو تم فيهما التكوين كما يعلمه الله؛ والوحي بالأمر في كل سماء يشير إلى إطلاق النواميس العاملة فيها، على هدي من الله وتوجيه، أما ما هي السماء المقصودة فلا نملك تحديداً، فقد تكون درجة البعد سماء. وقد تكون المجرة الواحدة سماء. وقد تكون المجرات التي على أبعاد متفاوتة سماوات..وقد يكون غير ذلك. مما تحتمله لفظة سماء وهو كثير)[4].

و يبدو أن هذا التفصيل في عرض المشاهد جاء مناسباً في موضعه في ترتيب نزول السورة، كون الآيات السابقة لها عرضت المشاهد إجمالاً، فالتفضيل إذن جاء في محله، كما أن هذا التفصيل جاء بفوائد كثيرة ومعاني لا يغني عنها الإجمال. يقول ابن أبي الاصبع: (إن هذا التطويل وذلك البسط أفاد إفادة جليلة، إذ أتى بمعان كثيرة، وأوقع وأوضح أشكالاً على غير ذي قريحة نفاذة، كما فصّل مجملاً، وأخرج الكلام مخرج التقريع لمن جعل لله أنداداً... فاقتضى حسن النظم وائتلاف المعنى وإيضاح الفكرة أن يقدم الأرض، وما يترتب على ذكرها من ذكر لوازمها لقربها من المخاطب... ثم ختم بذكر السموات السبع، وما تعرف الناس من نجومها وأنوائها، وإنــزال الغيث من جهتها، والرعد والبرق وتصريف الرياح)[5]. فنلاحظ مما تقدم أن ترتيب الآيات في النزول فصّل مجملاً، كما أن ترتيبه في موضعه ضروري لإفادة ما بينته من المعاني فاقتضاه هذا المقام. وهو بيان حقيقة الوحدانية.ويبدو أن سبب تسمية السورة بهذا الاسم عائدا إلى هذا التفصيل.

---

(1) الكشاف (145/3)، ينظر: البحر المحيط (467/7)، جواهر البلاغة (246) القرآنية في تفسير الزمخشري (436).
(2) أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح محمد رشيد رضا (335)، القاهرة، دار المنار، ط5، 1372هـ.
(3) ينظر: سورة البقرة: 29، سورة المؤمنون: 17، سورة الإسراء: 44، سورة الملك: 3، سورة الطلاق: 12.
(4) في ظلال القرآن(3115/5).
(5) بديع القرآن، أبو محمد بن أبي الأصبع (252) مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1957م.

كما أن اقتران هذه المشاهد بالإنعام الإلهي، واضح في سياق الآيات، ففي قوله: (وَزَيَّنَّا) بعد قوله (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ) وقوله (فَقَضَىٰهُنَّ)، (وَأَوْحَىٰ) رجوع من الغيبة إلى حديث النفس إذ نسب زينة السماء الدنيا إلى نفسه صراحة، لما فيها من الجمال الذي يبهر النفس، والنفع الملموس لهم، فذكرهم بأنه خالق هذا الجمال ومبدع هذه الزنية[1].

فنلاحظ أن الجوانب المعنوية أو النفع المعنوي مقترن بهذه المشاهد، من خلال عرضه بأسلوب الالتفات في هذه الآيات القرآنية، كما هو في الواقع المنظور في المشاهد الطبيعية، وإن نظرة إلى السماء كافة لرؤية هذه الزينة، وإدراك هذا الجمال. وإن هذا النظام الدقيق في بناء السموات والأرض وهذا الجمال الرائع كلاهما يوحيان إلى القلب البشري، بتدبر صنعة الصانع المبدع، وإلى الإيمان بوحدانية الخالق المدبر.

وكما جعل القرآن الكريم خلق السموات والأرض مرتبطاً بالحق، مجالاً تتجلى فيه حقيقة الألوهيةوحقيقة وجود الخالق، فقد جعله كذلك مجالاً تتجلى فيه حقيقة الألوهيةالواحدة، ذلك أن مسألة وجود الله سبحانه لا تفترق بحال من مسألة توحيده في القرآن الكريم، كما هي طبيعة منهجه في عرض الحقائق الإلهية.

قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

جاءت هذه الآيات في مطلع السورة، تخاطب مشركي مكة لما كانوا عليه من شرك بالله الواحد، وما هم عليه من تصورات مستمدة من هذا الشرك، منها استعجالهم الرسول ﷺ أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة[3]، فجاء الرد حاسماً على هذا الاستعجال، وتنزيه الخالق عن تصوراتهم الفاسدة، وبيان حقيقة وحدانيته. فأخبر الله تعالى في هذه المشاهد أنه خلق العالم العلوي وهو السموات، والعالم السفلي وهو الأرض وما عليها، وأن ذلك مخلوق بالحق لا بالعبث، وأنه المستقل بالخلق وحده، فلهذا يستحق أن يعبد وحده[4].

قال ابو حيان:(...وجاءت هذه الجملة منبهةعلى تنزيه الله تعالى موجد هذا

---

(1) ينظر: المثل السائر (176/2).
(2) سورة النحل :1-3.
(3) ينظر: الكشاف (435/2)، أنوار التنزيل (537/1)، البحر المحيط (559/5).
(4) ينظر: تفسير القرآن العظيم (558/2).

العالم العلوي، والعالم السفلي عن أن يتخذ معه شريك في العبادة، وذكر ما دل على وحدانيته من خلق العالم العلوي والأرض)1[(3)].

وقال البيضاوي: (سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) تبرأ وجل عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم...(يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ) بالقرآن، فإنه يحيي به القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد...(أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ) أن الشأن لا إله إلا أنا فاتقون... والآية تدل على أن نزول الوحي بواسطة الملائكة وأن حاصلة التنبيه على التوحيد الذي هو منتهى كمال القوة العلمية، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمال القوة العملية... والآيات التي بعدها دليل على وحدانيته من حيث أنها تدل على أنه تعالى الموجد لأصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة، ولو كان له شريك لقدر على ذلك فليزم التمانع. (خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ) أوجدهما على مقدار وشكل و أوضاع وصفات مختلفة وقدرها وخصصها بحكمته. (تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) منهما أو مما يفتقر في وجوده أو بقائه إليهما ومما لا يقدر على خلقهما)[(12)].

لا يبعد في ضوء هدايات سورة النحل، وهي التي تتحدث عن حقيقة الألوهيةالواحدة، ومعها موضوعات العقيدة، الوحي والبعث، وقد وردت هذه الآيات موضع البحث في مطلعها، لا يبعد أن يراد بها تصحيح تصورات المشركين المنحرفة وأوهامهم، وعبارات السلف في شأن أسباب النزول تستوعب ما ذكرت[(3)].

وبهذا تكون هذه الآيات جاءت مؤكدة للحقيقة التي ذكرتها الآيات السابقة – حقيقة الخلق الأول – فما تم تفصيله هناك أعيد ذكره إجمالاً وربطه بالحق تأكيداً لهذه الحقيقة. وتثبيتا لها في النفوس. وربط عقيدة التوحيد بمشاهد الطبيعة، كونها تقوم على الحق الذي قامت عليه السموات والأرض.

---

(1) البحر المحيط (460/5).

(2) أنوار التنزيل (537/1) يعني المفسر رحمه الله بالقوة العلمية هي معرفة الله وهو ما أشارت إليه الآية بقوله (أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠)، والقوة العملية هي عبودية الله تعالى وهي قوله: (ة) فقدم المعرفة كونها أشرف المعارف وأجلها.

(3) ينظر: أسباب النزول، للواحدي تحقيق: رضوان جامع رضوان (184)، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط1، 1417هـ - 1996م، لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي (121)، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط1، 1426هـ – 2005م.

يلحظ في هذه الآيات أن الأمر بالتقوى سبق عرض المشاهد التي هي مجال تتجلى في حقيقة الوحدانية، والتقوى هي المرتبة الثانية من مراتب العبودية بعد الإيمان بوحدانيته، ولذلك جاءت بعده في ترتيب نظم الآية في قوله تعالى: (لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ).

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن حديث القرآن الكريم عن خلق السموات والأرض وجعله مرتبطاً بالحق، تكرر في القرآن، وأن أكثر المواضع جاءت بعد الحديث عن بداية هذا الخلق وذكر الكثير من تفاصيله في الآيات السابقة من سورة فصلت. فقد ذكر أرتباط هذا الخلق بالحق في سبع مواضع(1)، كلها تالية لها في ترتيب النزول، وهذا التكرار فيه دلالة على أن القرآن يؤكد كثيراً على هذه الحقيقة، وأن هذا التكرار اقتضاه ترتيب النزول وهو إعادة جاءت بفائدة، كما دعت إليه المناسبة لذكره في موضعه من السورة، وبذلك يتبين أن دراسة مشاهد الطبيعة بحسب ترتيب النزول يسهم في محاصرة القول بالتكرار المزعوم في القرآن الكريم(2).

ولما كان مدار آيات السورة هو حقيقة الوحدانية الكبرى، ومن موضوعاتها الأساسية ومادتها في ذلك هي مشاهد الطبيعة. ففي موضع آخر من السورة تعرضت آياتها لهذه الحقيقة رداً على فكرة الثنائية التي دان بها المجوس. لأن الشركة في العبادة تنافي الوحدانية، وليس المعبود بحق إلا إلهاً واحداً، فجعل مشاهد السموات والأرض وملكية الله سبحانه لهما وما هي عليه من التناسق العجيب والنظام البديع، مجالاً تتجلى فيه حقيقة الوحدانية. يلفت القرآن الكريم إلى أنه لو كان فيهما إلهان أثنان، لما كان العالم على ما هو عليه من هذا النظام والتنسيق.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾.

قال البيضاوي: (وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ) ذكر العدد مع أن المعدود يدل عليه دلالة على أن مساق النهي إليه، أوإيماء بأن الاثنينية تنافي الألوهيةكما ذكر الواحد في قوله: (إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ) للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية دون الإلهية، أو للتنبيه على أن الوحدة من لوازم الإلهية).

---

(1) وردت هذه المواضع في سورة الأحقاف: 3، سورة إبراهيم: 19، سورة النحل: 3، سورة العنكبوت: 24، سورة الروم: 8، سورة الدخان: 38، سورة الأنبياء: 16.
(2)والأمر ليس مقصوراً على المشاهد، لكنه يشمل أغلب مواضيع القرآن –كالقصص على سبيل المثال– التي يتوهم البعض أنها تكررت كثيراً، وأن الفائدة ربما تكون قليلة، والأمر ليس كذلك.

ولما أثبتت الآيات الوحدانية من خلال عرض المشاهد التي تتجلى فيها هذه الحقيقة، جاء التعقيب بقوله تعالى (وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ) أي له الدين خالصا واجباً[1]. أوأن يكون واصلاً منذ ما وجد الدين فلا دين إلا دينه[2]. فبعد أن عرفتم وحدانيته كيف تتقون وتخافون غيره[3].

وبعد أن يقرر المنهج القرآني أن هذه المشاهد الطبيعية مخلوقة حادثة، قائمة على الحق. يشير إلى الأصل الموحد لهذه المشاهد. ويسوق حقائق كونية واضحة على ذلك، وأن بداية هذا الأصل وبداية هذه النشأة يسميها القرآن الكريم (عملية الفتق) وهي عملية انفصال السماء عن الأرض. ثم يلفت الأنظار إلى ما ينتج من هذه العملية من مشاهد متعددة في مجالي الطبيعة الكبرى: (ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ).

والرواسي والفجاج، والليل والنهار، والشمس والقمر. ويوجه أنظارهم إلى وحدة النواميس التي تحكمها وتصرفها، ويربط بينها وبين العقيدة، ثم يجعل هذه المشاهد الضخمة وما ينتج عنها من ظواهر مجالاً تتجلى فيه حقيقة الوحدانية.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقًا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[4].

جاءت هذه الآيات الكريمة بعد السياق الذي يتحدث عن قاعدة العقيدة[5]، عقيدة التوحيد، التي قامت عليها كل الديانات منذ أن بعث الله الرسل للناس، لا تبديل ولا تحويل، ومن ثم الرد على دعوى المشركين من العرب من أن لله ولداً، ثم بيان طبيعة

---

(1) أنوار التنزيل (547/1).
(1) ينظر: الكشاف (488/2)، والتفسير بـ(خالصاً) هو قول مجاهد، أما التفسير بـ(واجباً) هو قول ابن عباس - رضي الله عنهما-، ينظر تفسير القرآن العظيم (569/2).
(2) ينظر: في ظلال القرآن(2176/4).
(3) البحر المحيط (486/5).
(4) سورة الأنبياء: 30 – 33.
(5) ويبدأ السياق من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴾ سورة الأنبياء: 25-27.

الملائكة، وتنزيهه مما يدعون، ثم يعرض السياق مجال الطبيعة الشاهدة بالوحدانية.

قال البيضاوي: (أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ) أولم يعلموا...(أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا)، ذات رتق أو مرتوقتين، وهو الضم والالتحام[1] أي كانتا شيئاً واحداً وحقيقة متحدة. (فَفَتَقْنَٰهُمَا) بالتنويع والتمييز، أو كانت السموات واحدة ففتقت.. وكانت الأرضون واحدة فجعلت باختلاف كيفياتها وأحوالها...(وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ) ثابتات من رسا الشيء إذا ثبت.

(أَن تَمِيدَ بِهِمْ) كراهة أن تميل بهم وتضطرب (وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا) عن الوقوع بقدرته أوالأفساد والإخلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته، أو استراق السمع بالشهب. (وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا) عن أحوالها الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال قدرته وتناهي حكمته التي يحس ببعضها ويبحث عن بعضها في علمي الطبيعة والهيئة. (مُعْرِضُونَ) غير متفكرين)[2].

والمشاهد المعروضة في هذه الآيات توحي بتنزيه الخالق عن الشرك، لما فيها من التناسق العجيب، لأن وجود الإلهين يقتضي وقوع الفساد، فجاءت هذه الآيات تؤكد ما تقدم من قوله تعالى:(لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا)[3]. وهذا الربط بين الآيات تنبه إليه عدد من المفسرين[4]، فكانت هذه الآيات توكيداً لما تقدم ومجالاً تتجلى فيه وحدانية الخالق ورداً على عبادة الأوثان.

وبعد أن عرضت الآيات الأصل الأول لمشاهد الطبيعة، أشارت إلى الأصل الأول للحياة وهو الماء، فالماء سبب كل شيء حي ولا بد له منه[5]، والحياة لا توجد

---

(1) الرتق في اللغة عكس الفتق: وهو الضم والالتحام والالتئام، يقال رتقت الشيء فارْتَتَقَ أي فالتأم والتحم. ينظر: لسان العرب مادة "رَتَقَ" (1119/1)، والفتق: لغة: هو الفصل والشق والانشطار، ينظر: المصدر نفسه مادة "فَتَقَ" (1046/2)

(2) أنوار التنزيل (69/2).

(3) سورة الأنبياء: من الآية: 22. وهذا دليل من أدلة القرآن الكريم لإثبات الوحدانية، وقد اختصره في جزء من آية، والذي أطلق عليه العلماء "عدم فساد الكون". ينظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، د. محمد أحمد ملكاوي (272)، المملكة العربية السعودية، دار ابن تيمية، ط1، 1405هـ - 1985م.

(4) ينظر: مفاتيح الغيب (136/8)، البحر المحيط (287/6).

(5) ينظر: الكشاف (86/3)، تفسير القرآن العظيم (181/3)، البحر المحيط (287/6).

في شيء ما إلا إذا كانت فيه نسبة معينة من الماء تختلف بحسب أجزاء الأجسام، ولا يمكن أن توجد الحياة في شيء جاف مطلقا، لأن الجفاف يوقف التغيرات الكيميائية التي هي شرط أساسي لتغيرات الجسم الحي، وقوفاً تاماً، وذلك يؤدي إلى الموت حتماً[1]. وهي حقيقة علمية خطيرة أشار إليها القرآن الكريم في جزء من آية. وتقريرها أن الماء هو الأصل الأول للحياة كما في قوله تعالى: (وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ) أردت الإشارة إليها رغبة مني في الكشف عن هذه الحقيقة التي وردت في هذا السياق دون غيره.

وقد عرضت هذه الآيات حقائق كونية خطِرة، كما هي طبيعة القرآن الكريم في عرض الحقائق – وقد مر معنا– أنها تأتي في ثنايا آيات العقيدة، ومن هذه الحقائق حقيقة فتق السموات والأرض بعد أن كانت رتقاً، حقيقة وقف عندها العلماء قديما [2]، وأشبعت بحثاً ودراسةً، بكل ما تحمله هذه الألفاظ من دلالات على هذه الحقيقة، كما اهتم بدراستها العلماء حديثاً[3]، من أجل الوقوف على الحقائق العلمية التي لا تعارض هذه الحقيقة التي قررها القرآن الكريم. كونها أغرب معجزة من معجزات القرآن التي يجب أن نقف أمامها وننبهر بعظمة الله سبحانه وتعالى وجماله[34]. ولما كانت الآيات تشير إلى الأصل الأول لهذه المشاهد، جاء تقديم (فِجَاجًا) على قوله (سُبُلًا) في قوله تعالى: (وَجَعَلۡنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ) من أجل إظهار الحالة التي كانت

---

(1) ينظر: الإسلام والطب الحديث، عبد العزيز اسماعيل (120) مكتبة الاعتماد، القاهرة، 1357هـ.
(2) ينظر: الكشاف (85/3)، مفاتيح الغيب (136/8-138)، أنوار التنزيل (69/2).
(3) ينظر: القرآن يتجلى في عصر العلم، الشيخ نزيه القميحا، مراجعة وتحقيق: السيد نزار فضل الله، (65)، دار الهادي، بيروت، ط1، 1417هـ، 1997م، السماء في القرآن(107) فقد تعرض فيه الدكتور زغلول النجار الى كل ما توصل إليه العلماء بخصوص هذه الحقيقة كما أكد أن (عملية الانفجار العظيم) وهي النظرية المطروحة لتفسير نشأة الكون، تبقى في حدود العلم المكتسبة، ولا يستطيع عالم يحترم عمله أن يجزم بوقوعها، لأن عملية الخلق بأبعادها الثلاث: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان من الأحداث الغيبية التي لم يشهدها أي من المخلوقين وفي ذلك يقول ربنا تبارك وتعالى في محكم كتابه: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾سورة الكهف: 51، حقائق علمية في القرآن الكريم (40)، دار المعرفة، بيروت، ط2، 2006م.
(4) ينظر: الإبداع الإلهي بين الجمال والجلال، هالة محجوب خضر(57) دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1، 2006م.

عليها الأرض[1] حين خلقها الله تعالى.

قال الزمخشري: (الفج: الطريق. فإن قلت: في الفجاج معنى الوصف، فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما في قوله تعالى: (لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)[2] قلت: لم تقدّم وهي صفة، ولكن جعلت حالاً... فإن قلت: ما الفرق بينهما من جهة المعنى ؟قلت: أحدهما الإعلام بأنه جعل فيها طرقاً واسعة. والثاني: بأنه حين خلقها على تلك الصفة، فهو بيان لما أبهم)[3].

كما أن التعبير ههنا بفعل "الخلق" في عرض ظاهرة الليل والنهار للغرض نفسه، وذلك (لكون المنّة والعبرة في إيجاد نفس الليل والنهار ونفس الشمس والقمر، لا في إيجادهما على حالة خاصة)[4].

ويبدو أن اهتمام القرآن الكريم بالربط بين مشاهد الطبيعة وحقيقة الوحدانية، واضح في هذا السياق- كما في غيره من السياقات التي تتعرض للحقائق الإلهية – من خلال التعقيب على كل مشهد من هذه المشاهد.

فجعل مقطع الآية الأولى (أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ) بعد أن ذكرت الآية حقيقة أصل هذه الطبيعة المنظورة، وأصل كل حي في هذه الطبيعة. والمراد أفلا يتدبرن هذه المشاهد فيعلموا بها الخالق ويعملوا بمقتضاها، ويتركوا طريقة الشرك، وأن كل ما حول الإنسان يقوده إلى الايمان وأطلق الإيمان هنا على سببه[5].

وجعل مقطع الآية الثانية (لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ) بعد عرض مشاهد الأرض وما فيها من الرواسي والفجاج، فالتعقيب بالاهتداء يتناول الاهتداء إلى الطرق والاهتداء إلى وحدانية الله. وقد ذكر الرازي لطيفة، يسوغ فيها الاستعمال القرآني ويبين فيها سر التعبير في اختيار هذه اللفظة في هذا الموضع، والتي تتفق مع الاهتداء إلى الوحدانية

---

(1) جعلت الأرض هي المشهد المعني في هذا الوصف وليس الجبال، كون الضمير في (فِيهَا)عائد على الأرض، وأن الآية عامة لم تخصص بالجبال، بدليل التعقيب عليها بقوله تعالى: (لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ)أي يهتدون إلى السير في الأرض، وهذا المعنى رجحه الطبري وابو حيان. ينظر: جامع البيان (351/5)، البحر المحيط (287/6).

(2) سورة نوح: 20

(3) الكشاف (86/3)، ينظر: البحر المحيط (87/6)، ومما ينبغي التنبيه إليه أن ترتيب سورة نوح في النزول (71) وسورة الأنبياء (73) مما يرجح الرأي الثاني للزمخشري وهو بيان لما أبهم، كونه المقصد الأول من التقديم.

(4) التحرير والتنوير (59/4).

(5) ينظر: البحر المحيط (287/6)، في ظلال القرآن(2376/4).

والاهتداء بالسير في الأرض حين قال: (إنّ الاهتداء إلى البلاد والاهتداء إلى وحدانية الله تعالى يشتركان في مفهوم واحد وهو أصل الاهتداء فيحمل اللفظ على ذلك المشرك وحينئذ تكون الآية متناولة للأمرين)[1] فذكر الاهتداء هنا يصور الحقيقة الواقعة، كما يشير إلى شأن آخر في العقيدة، اهتداء إلى سبيل يقود إلى الإيمان، كما يهتدون في السير. وهنا تتناسب هذه التعقيبات في الآيات القرآنية مع المشاهد الطبيعية التي تتحدث عنها.

وبهذا يتبين أن الآيات الكريمة في هذا الموضع، بينت بداية الخلق الأول لهذه الطبيعة الذي ذكرته الآية السابقة – خلق السماء والأرض بالحق– كما أكدت الحق الذي لابس هذا الخلق، وعرضت الكثير من عناصر الطبيعة وظواهرها. فأضافت إلى سابقتها في النزول إضافات كثيرة، وأوضحت الترابط بين الموضعين والاتحاد في المضمون.

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل حقيقة أصل هذه الطبيعة من السماء والأرض والرواسي والفجاج مجالاً ضخما تتجلى فيه حقيقة الوحدانية، فإنه جعل هذه المجالات من خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر، وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، أساساً لإلزام الحجة على المشركين في إبطال عبادتهم، ودحض شركهم، وتقريرهم على ما كانوا يعترفون به من انفراده سبحانه. لأن حقيقة الوحدانية تنافي الشركة في العبادة.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[2].

جاءت هذه الآيات الكريمة تتحدث عن التناقض في موقف المشركين وتصوراتهم المنحرفة، فهم يقرون بخلق الله سبحانه للسموات والأرض وتسخيره للشمس والقمر وإنزاله الماء من السماء وإحيائه الأرض بعد موتها، وكانوا إذا سئلوا عن ذلك يقرون أن هذا كله لله. لكنهم مع هذا يعبدون أصنامهم، ويجعلون شركاء لله في العبادة، وإن لم يجعلوهم شركاء في الخلق.قال الزمخشري: (فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) فكيف

(1) مفاتيح الغيب (139/8).
(1) ينظر: في ظلال القرآن(2377/4).
(2) سورة العنكبوت: 61 – 63.

يصرفون عن توحيد الله وأن لا يشركوا به، مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض)[1].

ثم يكرر القرآن الكريم السؤال على المشركين من أهل مكة، لبيان هذا التناقض وهذا الانحراف، لأن اعترافهم بأن الله هو الخالق يقتضي العبادة الخالصة لا يشاركه فيها أحد. وأتبع هذا التكرار بعرض مشاهد جديدة.

قال ابو حيان: (ولما أخبر بأنهم مقرون بأن موجد العالم، ومسخر النيرين، ومحيي الأرض بعد موتها هو الله كان ذلك الإقرار ملزماً لهم أن رازق العباد إنما الله هو المتكفل به، وأمر رسوله بالحمد له تعالى، لأن إقرارهم توحيد الله بالإبداع ونفي الشركاء عنه في ذلك، وكان ذلك حجة عليهم حيث أسندوا ذلك إلى الله، وعبدوا الأصنام (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)، حيث يقرون بالصانع الرازق المحيي ويعبدون غيره) [2].

كما ربطت الآيات بين المشاهد وبين النعم الحاصلة منها، كون الرزق ظاهر الأرتباط بدورة الأفلاك، وعلاقتها بالحياة والماء والزرع والإنبات، وإن بسط الرزق وتضييقه بيد الله تعالى، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أن الله يرزق الخلق وله الإحسان والفضل والامتنان فله العبادة[3]. وهذا التفسير يتسق مع الجو العام للسورة، حيث نزلت بمكة، وأن طائفة من المشركين كانوا سكانها، وكانوا محيطين بالرسول ﷺ كما يتسق مع المحور الذي تدور حوله السورة وموضوعها العام هو حقيقة الإيمان، وأنه ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف[4]. كما أن الإيمان بحقيقة الوحدانية التي تتجلى في مشاهد الطبيعة تقتضي العبودية الحقة. وبهذا تكون هذه الآيات قد عرضت مشاهد متنوعة من عناصر الطبيعة وظواهرها مقترنة بالنعم الإلهية، وهذه المشاهد أضافت على سابقتها إضافات لم تذكر هناك.

---

(1) الكشاف (349/3)، ينظر: ملاك التأويل (922/2)، روح البيان (626/6).
(2) البحر المحيط (154/7)، ينظر: أنوار التنزيل (213/2)، ينظر: نظم الدرر (576/5).
(3) ينظر: مفاتيح الغيب (74/9)، الجامع لأحكام القرآن (322/13)، في ظلال القرآن (2751/5).
(4)ينظر: التحرير والتنوير (201/9)، في ظلال القرآن (2718/5).

المبحث الثاني

الطبيعة الأرضية

وكما عرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية معاً من أجل التعريف بحقيقة الألوهيةوجعلها مجالاً من مجالات التعريف بهذه الحقيقة، عرض مشاهد الطبيعة الأرضية خاصة، للغرض نفسه، ذلك أن الذي له القدرة المطلقة، وسيطرة التصريف والتقدير والتدبير، هو الحري بالعبادة وحده، وهو الحري بأن يتخذ إلهاً دون سواه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[1].

وردت الآية بعد السياق الذي يتحدث عن تعظيم النبي ﷺ، ونهيه عن طاعة الكافرين فيما يريدونه عليه، وجهادهم بالقرآن في مخالفتهم وازاحة باطلهم، في قوله تعالى: (فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا)[2] وذلك لأن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف، ثم جاءت بعد هذا السياق[3] هذه الآية تعرض أكبر الحجج وأدل الشواهد على الوحدانية، فيها عرض جانب من مشاهد الطبيعة، مشاهد البحر الموحية بحقيقة وحدانيته، في تدبيره وصنعته وقدرته، مشاهد البحار العذبة والمالحة، وما بينهما من برزخ وحجر مستور.

قال الرازي: (اعلم أن هذا النوع الرابع من دلائل التوحيد وقوله: (مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ) أي خلالهما وأرسلهما يقال: مرجت الدابة إذا خليتها ترعى، وأصل المرج الإرسال والخلط... سمى الماءين الكبيرين الواسعين بحرين. قال ابن عباس: مرج البحرين،

---

(1) سورة الفرقان: 53.

(2) كون الضمير في: (ۦ)، راجع إلى القرآن، وهو قول ابن عباس (رضي الله عنهما) ينظر: تفسير القرآن العظيم (326/3)، الجامع لأحكام القرآن (59/13)، أضواء البيان (374/6)، أولى ما قيل في آيات التنزيل (214/6).

(3) إن التعرض للآيات السابقة على عرض المشاهد أو التالية لها، يوقفنا على منهج القرآن الكريم في عرض الحقائق الإلهية، وعرضه لصور الشرك على اختلافها وتعدد آلهتها، ومناقشة المشركين بالحجج والشواهد، وهذا الأمر يحتاج إلى التعرف على المعاني والدلالات السابقة للمشهد أو اللاحقة، والوقوف على الربط بين الآيات، فضلاً عن كونه من شروط التفسير الموضوعي، فكان هذا الاسهاب مقصوداً في هذا البحث.

أي أرسلهما في مجاريهما كما ترسل الخيل في المرج وهما يلتقيان، وقوله (هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ) والمقصود من الفرات البليغ في العذوبة حتى يصير إلى الحلاوة، والأجاج ضده، وأنه سبحانه بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج)[1].

وأكثر المفسرين على أن المراد بالبحرين مياه البحر المالحة، ومياه الأنهارالعذبة. قال الزمخشري: (وسمى الماءين الكبيرين الواسعين: بحرين، والفرات: البليغ العذوبة حتى يضرب إلى الحلاوة. والأجاج نقيضه. ومرجهما: أي خلاهما متجاورين متلاصقين)[2].فقوله تعالى (مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ) إما أن يكون بمعنى أرسلهما متجاورين متلاقين لا فصل بين مائيهما في مرأى العين، وإما أن يكون خلطهما فهما يلتقيان، والبرزخ: الحاجز بين الشيئين ومثله الحجر. ولعل معنى (وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا) ستراً مستوراً[3].

ويشير السياق إلى نعمة الله سبحانه في هذه المشاهد بعدم اختلاط الماء المالح بالماء العذب، كأن بينهما برزخا يمنع بغي أحدهما على الآخر، وحاجزاً مستوراً لا نراه[4].

ناسب أن يأتي بعد عرض هذه المشاهد قوله تعالى: (وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا) [5] بعد أن عرضت الآية المجالات التي

---

(1) مفاتيح الغيب (474/8)، ينظر: الجامع لأحكام القرآن (59/13) ومرج تأتي بمعنيين: (أرسل وخلط، يقال مرج الإبل في المرعى إذا أرسلها فيه، كما يقال مرج الماء واللبن إذا خلطهما) أساس البلاغة، محمود بن عمر الزمخشري. ماده "مرج" الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط2، 1985م.

(2) الكشاف (219/3)، ينظر: مفاتيح الغيب (475/8)، أنوار التنزيل (44/2)، تفسير القرآن العظيم (326/3)، البحر المحيط (464/6)، روح البيان (295/6).

(3) ينظر: المنتخب في تفسير القرآن (538)، سورة الرحمن وسور قصار، شوقي ضيف (69)، القاهرة، دار المعارف، 1370هـ - 1971م.

(4) وللتعرف على نعمة الله سبحانه وتعالى في جعل ماء البحر مالحاً، والسبب الموجب لذلك كما تقتضيه حكمة الرب سبحانه وتعالى، وللوقوف على تفاصيل هذه النعم. ينظر: زاد المعاد، ابن القيّم (230/3) مكتبة الحلبي، القاهرة، 1390هـ - 1970م، صلوات على الشاطيء، أحمد الشرباصي (69) وما بعدها، دار الكتاب العربي، القاهرة 1951م، من الخالق.. الله أم الصدقة؟ رشدي مدبولي حسن، مكتبة الزهراء، القاهرة،1974م.

(5) سورة الفرقان:55.

تظهر فيها حقيقة وحدانيته، عاد السياق مرة أخرى إلى تهجين سيرة الكفار في عبادة الأوثان، أو كل ما عبد من دون الله. فبعد معرفة هذه الحقيقة التي تملأ القلب والوجدان، تبدو عبادة غير الله شيئاً مستغرباً ومستنكراً. فبعد عرض الآيات حقائق الإيمان في هذه المشاهد بينت أوهام الكفر.

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل البحار العذبة والمالحة وقدرة الخالق على الفصل بينهما، وما فيها من النعم مجالاً تتجلى فيه حقيقة الوحدانية، ففي موضع آخر أضاف إلى ذلك مجالات أخرى متباينة، تتجلى بإنزال الماء من السماء وإخراج النبات به، وجعل الأرض مستقراًللناس، ومتاعاًلهم بما هي عليه من بسط، عارضاً عليهم عدداً من المشاهد في صفحة الطبيعة الواسعة متمثلة في الأنهار الجارية بالمياه العذبة، والجبال الراسية الشامخة، ومشهد البحار وما فيها من دلالة توحي بحقيقة وحدانية الخالق، الذي جعل بين العذب والمالح حاجزا مستوراً لا تراه العيون.

وتتجلى حقيقة الوحدانية أيضاً في الهداية في ظلمات البر والبحر، وفي ظاهرة إرسال الرياح، المبشرات بالغيث، الدالات على الخير، فضلا عن مجالات أخرى هي من غير الطبيعة كإجابة المضطر، وبدء خلق الإنسان وإعادته.

قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(1).

عرض القرآن الكريم هذه المشاهد بعد قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ

---

(1) سورة النمل: 60 – 64.
(1) ينظر: مفاتيح الغيب (562/8)، الجامع لأحكام القرآن (197/13)، أنوار التنزيل (180/2)، روح البيان (461/6-462

ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۖ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾أمر من الله سبحانه لرسوله ﷺأن يتلو هذه الآيات الناطقة بالوحدانية، وأن يشكر ربه على هذه النعم، ثم إلزام المشركين والتهكم بهم وتسفيه لرأيهم، كونهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى، وتنبيها لهم على نهاية ضلالهم وجهلهم[1]. ثم تلتها الآيات تعرض عدداً من المشاهد المبينة لأصول النعم وفروعها للرد عليهم، تعرضها في تصوير يعتمد على الحقيقة التي يراها كل ناظر، تخاطب الحس والوجدان، وتلفتها إلى الحقيقة الكبرى التي تنتهي إليها هذه الحقائق. حقيقة وحدانية الله وعظمته.

قال الزمخشري: (فإن قلت ما الفرق بين أم وأم في (عَمَّا يُشۡرِكُونَ) و (أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ) قلت: تلك متصلة؛ لأن المعنى: أيهما خير. وهذه منقطعة بمعنى هل والهمزة، لما قال تعالى: الله خير أم الآلهة ؟ قال: بل أمّن خلق السموات والأرض خير؟ تقرير لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء... فإن قلت: أي نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله (فَأَنۢبَتۡنَا)؟ قلت: تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته، والإيذان بأنّ إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألون والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد. لا يقدر عليه إلا هو وحده... (أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ) أغيره يقرن به ويجعل شريكاً له... (يَعۡدِلُونَ) به غيره أو يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد)[2].

وبعد أن عرضت الآيات مشاهد مشتركة بين السماء والأرض وهو إنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق بالأرض، عرضت شيئاً مختصاً بالأرض وهو جعلها مستقراً بحيث يمكن الإقامة بها والاستقرار عليها.

يقول ابن كثير: (يقول تعالى: (أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا) أي قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تزلزل ولا تتحرك...(وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرًا) أي جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقها من خلالها

(1) ينظر: مفاتيح الغيب (562/8)، الجامع لأحكام القرآن (197/13)، أنوار التنزيل (180/2)، روح البيان (461/6-462

(2) الكشاف (284/3-285) ينظر: مفاتيح الغيب (563/8)، أنوار التنزيل (180/2)، الإبداع الإلهي بين الجمال والجلال، (22).

وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وشمالاً بحسب مصالح عباده)[1].

و ينتقل البيان القرآني من مشهد إلى مشهد آخر، من المشاهد المقرونة بالنعم الإلهية التي يحتاجها كل الخلق إلى مشاهد يحتاجها الخلق حاجة خاصة في وقت خاص. وهذا التلوين الذي نراه بين ما يراه ومايحتاجه كل الناس، وبين المشاهد التي تمر في وقت خاص وهي ليست من الطبيعة، له الأثر الكبير في تركيز عقيدة التوحيد في النفوس.

وإذا كان التعقيب على كل مشهد من هذه المشاهد بقوله (أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ) يوحي باهتمام القرآن الكريم بمسألة التوحيد وتأكيدها فإن التباين في خاتمة كل مشهد من أجل إظهار حقيقة الوحدانية، فناسب ختم كل استفهام بما تقدمه من المشاهد التي تتجلى فيها هذه الحقيقة.

قال ابو حيان: (لما ذكر إيجاد العالم العلوي والسفلي، وما امتن به من إنزال المطر وإنبات الحدائق اقتضى ذلك أن لا يُعْبَد مُوجِد العالم والممتن بما به قوام الحياة، فختم بقوله (بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) أي عن عبادته أو يعدلون به غيره مما هو مخلوق مخترع.

لما ذكر جعل الأرض مستقراً وتفجير الأنهار وإرساء الجبال وكان ذلك تنبيهاً على تعقل ذلك والفكر فيه ختم بقوله (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) إذ كان فيهم من يعلم ويفكر في ذلك. ولما ذكر إجابة المضطر، وكشف السوء، واستخلافهم في الأرض، ناسب أن يستحضر الإنسان دائماً هذه المنة فختم بقوله (قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) إشارة إلى توالي النسيان إذا صار في خير، وزال اضطراره، وكشف السوء عنه.

ولما ذكر الهداية في الظلمات وإرسال الرياح نشراً، ومعبوداتهم لا تهدي ولا ترسل، وهم يشركون بها الله، قال تعالى: (تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [2].

يفهم من هذا أهمية خاتمة كل مشهد من هذه المشاهد، فإذا كانت هذه المشاهد تمثل مجالاً تتجلى فيه حقيقة الوحدانية، فإن الخواتيم جاءت لإبراز هذه الحقيقة، فضلاً عن المناسبة القائمة بين المشهد وما ختم به.

---

(1) تفسير القرآن العظيم (374/3)
(2) البحر المحيط (86/7).

ناسب أن يأتي بعد عرض هذه المشاهد قوله تعالى: (أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ) أي أنهم قد (أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار)[1] فإن عرض هذه المشاهد هو الذي عرّفهم بحقيقة وحدانيته سبحانه، ولم يبق لهم عذر في الإنكار، وليس لهم دليل بعد هذا التعريف أنّ مع الله إلهاً.

وإذا كان القرآن الكريم – في مقام التعريف بحقيقة الألوهية ووحدانيتها – يعبر عن المشاهد بالألفاظ الدالة عليها، كما تبين من الآيات التي مرت، فإنه لا يكتفي بذلك حسب، بل أنها قد تفهم من القرائن وسياق الآيات. فإنه يعبرعن مشهد النبات وأسرار الحياة على سطح الأرض بـ (فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ) إنها اللحظة الأولى التي تدب الحياة في النبات. كما يعبر عنه بـ (يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ). فالحب الساكن والنوى الهامد وهو يخرج من باطن الأرض ليخرج منه نبات حي، مشهد يتكرر، ومن ثم يتحول إلى خصائص أخرى، منها الأشجار الصاعدة المثمرة والنباتات النامية تعبير عن سر الحياة في النشاة والحركة. كلها مشاهد تلفت العين والقلب إلى حقيقة وحدانية الخالق، مشاهد تتجلى فيها آثار التقدير الواحد، والتدبير الواحد.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾[2].

قال الرازي: (أن الفلق هو الشق، والحب هو الذي يكون مقصوداً بذاته مثل حبة الحنطة والشعير وسائر الأنواع، والنوى هو الشيء الموجود داخل الثمرة...وقوله (يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ) معطوف على قوله:(ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ) وقوله: (يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ) كالبيان والتفسير لقوله: (فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ) لأن فلق الحب والنوى بالنبات والشجر النامي من جنس إخراج الحي من الميت)[3].

---

(1) الكشاف (286/3)، والمطالبة بالبرهان، في خاتمة الآيات ليست أكثر من عرض من عرض لإعادة النظر في المواريث الفكرية السائدة حتى يُنبذ منها مالا دليل عليه، وحتى يتخلص الإنسان من قيود الوهم التي تشل قدرته، وتضلل غايته ينظر: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، الشيخ محمد الغزالي (32 – 33)، دار القلم، دمشق، ط5، 1426هـ - 2005م.

(2) سورة الأنعام: 95.

(3) مفاتيح الغيب (74/5)، ينظر: البحر المحيط(189/4).

ثم بعد ذلك بين وجه آخر في مناسبة عطف الجملتين على بعضهما وفي تنويع نسق التعبير بين (يُخْرِجُ) و(وَمُخْرِجُ) فقال: (أن لفظ الفعل يدل على أن ذلك الفاعل يعتني بذلك الفعل في كل حين وأوان. وأما لفظ الأسم فإنه لا يفيد التجدد والاعتناء به ساعة فساعة)[1].

ويقول ابن كثير: (يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى، أي يشقه في الثرى، فتنبت منه الزروع على إختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على إختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى، ولهذا فسر قوله: (إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ) بقوله (يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ) أي يخرج النبات الحي من الحب والنوى، والذي هو كالجماد الميت) [2].

وبهذا التفسير يتبين لنا أن الآية الكريمة تتحدث عن مشهد ظهور النبات في أول الأمر، وأنه هو المقصود وليس للإنسان أو الحيوان أي ذكر أو إشارة. ولا يلتفت إلى ما قاله بعض المفسرين كالزمخشري وغيره[3]. يقول الرازي فيما ينقله عن الزجاج في تفسير (ٱلْحَيَّ) و (ٱلْمَيِّتِ): (يخرج النبات الغض الطري الخضر من الحب اليابس ويخرج اليابس من النبات الحي النامي) [4]، ثم أن الزمخشري نفسه عد قوله تعالى: (يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ) هي واقعة موقع المبينة لما قبلها[5]، فإذا كانت مبينة لما قبلها كيف تعني الإنسان والحيوان. كما عدّها الرازي وابن كثير وابو حيان موقع البيان والتفسير- وقد تقدم كلامهم- كما أنها عند ابن المنير هي وصف وتصوير هذا الإخراج بقوله: (إن العدول عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع في هذا الوصف وحده وهو قوله: (يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ) إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت، واستحضاره في ذهن السامع، وهذا التصوير، والاستحضار إنما يتمكن من أدائهما الفعل المضارع دون اسم الفاعل والماضي)[6].

---

(1) مفاتيح الغيب (74/5).
(2) تفسير القرآن العظيم (162/2).
(3)ينظر: الكشاف (37/2)، أنوار التنزيل (312/1) روح البيان (91/5).
(4)مفاتيح الغيب (75/5).
(5) ينظر: الكشاف (37/2).
(6) الانتصاف (37/2) بهامش الكشاف، ينظر: محاسن التأويل (446/4)

ناسب أن يأتي التعقيب على هذا المشهد (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) أي ذلكم القادر العظيم الشأن المستحق العبادة وحده، فكيف تصرفون[1]. وأن فاعل هذا، هو الله وحده لا شريك له، فكيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل، فتعبدون معه غيره[2].

وبهذا يتبين أن القرآن الكريم لم يدع شيئاً في هذه الطبيعة من الظواهر أو عناصر الحياة أو مشهد من مشاهدها، إلاّ وجعل منه مجالاً تتجلى فيه حقيقة وحدانية لخالق وربوبيته، سواءً كان هذا المشهد كبيراً ضخماً أو ضئيلاً ً يحدث في زمان دون زمان.

ومرة أخرى يلفت القرآن الكريم الأنظار إلى الطبيعة الأرضية بعد الحديث عن خلق السموات بغير عمد، يلفتها إلى مشهد الجبال الشامخات على الأرض، لتكون ساكنة غير متزلزلة من أجل تحقيق مصلحة العيش على سطحها، ومشهد الماء النازل على الأرض ظاهرة تتكرر في كل زمان، ومشهد النبات بكل الأنواع والأجناس، كلها مشاهد تواجه الفطرة مواجهة حقيقية ظاهرة، لا تملك إلاّ التسليم بوحدانية الخالق العظيم، كونها شاهداً على هذه الحقيقة.

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3].

جاءت هذه الآيات الكريمة بعد السياق الذي يتحدث عن طائفة من الناس، يتركون الكتاب الحكيم وما يشتمل عليه من الآيات الحكيمة ويشتغلون بغيره، ثم بيان سوءصنيعهم، وما أعد لهم من العذاب، ثم بيان حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها، وما أعد لهم من النعيم الخالد[4].

---

(1)ينظر: الكشاف (37/2)، الجامع لأحكام القرآن (41/7)، أنوار التنزيل (312/1)، البحر المحيط (189/4).

(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم (162/2).

(3) سورة لقمان: 10-11.

(4)يبد السياق بقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ =

قال الزمخشري: (...﴿تَرَوۡنَهَا﴾ الضمير فيه للسموات، وهي استشهاد برؤيتهم لها، غير معمودة على قوله: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ كما تقول لصاحبك: أنا بلا سيف ولا رمح تراني فإن قلت: ما محلها من الإعراب ؟ قلت: لا محل لها لأنها مستأنفة. أو هي في محل الجرّ صفة للعمد أي: بغير عمد مرئية، يعني: أنه عمدها بعمد لا ترى، وهي إمساكها بقدرته. ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما ذكر من مخلوقاته. والخلق بمعنى المخلوق. ﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ آلهتهم، بكتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله وأنشأه. فأروني ماذا خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورّط في ضلال ليس بعده ضلال)[1].

والظاهر من كلام الزمخشري: أن الضمير في ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ يعود إلى كل من المذكورين، للسموات وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة، ويجوز أن يعود إلى العمد. أي بغير عمد مرئية، أي أنه عمدها بعمد لا ترى، فهي قدرة الله وإرادته.

والآيات فيها تعداد للنعم فوق ما فيها من مجالات تتجلى فيها حقيقة الألوهيةفي حكمته ووحدته، وهي نعم متوالية متكررة مشهودة لها وجود واقعي وتصوير حقيقي.

قال الرازي: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي جبالاً راسية ثابتة ﴿أَن تَمِيدَ﴾ أي كراهة أن تميد وقيل المعنى أن لا تميد، واعلم أن الأرض ثباتها بسبب ثقلها، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح، ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة... ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ﴾ أي سكون الأرض فيه مصلحة حركة الدواب فأسكنا الأرض وحركنا الدواب... ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ هذه نعمة أخرى أنعمها الله على عباده، وتمامها بسكون الأرض لأن البذر إذا لم يثبت إلى أن ينبت لم يكن يحصل الزرع)[2].

ثم ذكر الرازي بعد ذلك كلاماً مفصلاً كعادته، ليبين كيف ربطت الآية الكريمة

= حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ سورة لقمان: ٦ – ٩.

(1) الكشاف (372/2)، ينظر: الجامع لأحكام القرآن (55/14)، وقد أشار البيضاوي الى أن هذه المشاهد المقرونة بالنعم الإلهية التي عرضتها الآية هي تمهيد لقاعدة التوحيد وقررها بالآية التالية لها، ينظر: أنوار التنزيل (227/2). وهو ما نعنيه بالاقتران بين الحقائق والمشاهد.

(2) مفاتيح الغيب (118/9) ينظر: تفسير سورة لقمان، عبد الهادي الاراشيكي (50).

بين المجالات التي تظهر فيها حقيقة الوحدانية وبين النعم المعروضة فيها وربطه بفصاحة القرآن فقال: (والعدول من المغايبة إلى النفس فيه فصاحة وحكمة، أما الفصاحة فمذكورة في باب الالتفات[1]... وأما الحكمة فمن وجهين **أحدهما:** أن خلق الأرض ثقيل، والسماء في غير مكان قد يقع الجاهل أنه بالطبع، وبث الدواب يقع لبعضهم أنه بإختيار الدابة، لأن لها أختياراً، فنقول الأول طبيعي والآخر اختياري للحيوان، ولكن لا يشك أحد في أن الماء في الهواء من جهة فوق ليس طبعاً فإن الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختياراً، إذ الماء لا اختيار له فهو بإرادة الله تعالى، فقال: (وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً).

الثاني: هو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان متكثرة في كل زمان فأسنده إلى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر نعمته)[2].

وكما جعل القرآن الكريم الحقائق القرآنية في أثناء الآيات التي تتجلى فيها حقيقة وجود الخالق، فقد جعلها كذلك ضمن المشاهد التي تتجلى فيها حقيقة وحدانيته. ومن الحقائق العلمية التي بينتها الآية الكريمة فقد (فسر المفسرون خلق الله السموات بغير عمد بأنه سبحانه وتعالى كونّ وسوى السموات من أجزائها بعمد لا ترى أصلا (أي غير مادية) وقالوا: ليس المعنى بعمد مادية مخفية من الأنظار إذ ليس في ذلك إظهار لقدرته تعالى)[3].

ويستنتج من ذلك أنه تعالى كوّن الأجرام من أجزائها-والسماء من الأجرام- بقوى رابطة فيستدل منها أن هذه القوى قوى جذب. وهذه النتيجة هي منطوق ما يسمى بقانون الجذب العام الذي اكتشفه (نيوتن) وقامت على أساسه جميع البحوث الفلكية فيما بعد[4].

ومن الحقائق التي بينتها الآية الكريمة في مشاهد الأرض، وهي قوله تعالى: (وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ) تبين هذه الآية ومعها آيات أخرى[5] دور الجبال

---

(1) الالتفات في اصطلاح البلاغيين أن تعدل من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب الى الغيبة، أو من الغيبة الى التكلم. ينظر: التبيان في علم البيان، لابن الزملكاني (127) ومن حسن هذا الإسلوب في القرآن الكريم، والفائدة التي تقتضيه (لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع وايقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد) الكشاف (65/1).

(2) مفاتيح الغيب (118/9).

(3) التفسير العلمي للآيات القرآنية، حنفي أحمد (242) دار المعارف، مصر، د.ت.

(4) المصدر نفسه (242).

(5) وهي قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ ﴾سورة المرسلات من الآية: ٢٧، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ سورة النازعات من الآية: ٣٢، وقوله تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ =

بالنسبة للأرض، فقد جعلها الله سبحانه. مثبتات لها حتى لا تضطرب، فهي كالأوتاد التي تمسك الخيمة من الاضطراب والسقوط. لاحظ العلماء أن امتداد الجبال في باطن الأرض يزيد عن ارتفاعها فوق سطحها، مما يمكّن هذه الجبال من القيام بدورها في تثبيت الأرض كما تقوم الأوتاد في تثبيت الخيمة[1].

ويقرر العلم هذه الحقيقة (ويذكر أن توزيع الجبال على الكرة الأرضية إنما قصد به حفظها من أن تميد إلى الشمس، أو تحيد عنها، وأنها- فعلاً-السبب الأول والرئيسي لحفظ توازن الأرض، فكأنّ الجبال هي أوتاد للأرض تحفظها في مكانها، وتحفظ عليها حركتها)[2]. ولولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب بما في جوفها من المواد الدائمة الجيشان[3].

وإذا كان القرآن الكريم قد عرض مشاهد البحر، وجعلها مجالاً تتجلى فيه حقيقة إلوهية الخالق ووجوده، فقد جعلها للغرض نفسه من أجل التعريف بحقيقة وحدانيته، وتسخير هذا البحر وما فيه من النعم. مضافاً إليه تسخير ما في السموات والأرض وما فيها من العناصر والظواهر. كلها من الإنعام الإلهي، تعرض بهذه المشاهد لتكون آيات لقوم يتفكرون في حقيقتها، لتصل بهم إلى الحقيقة الكبرى حقيقة الخالق ووحدته وربوبيته.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4].

قال البيضاوي: (ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ) بأن جعله أملس يطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب ولا يمنع الغوص فيه. (لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ) بتسخيره وأنتم راكبوها. (وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ) التجارة والغوص والصيد وغيره (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) هذه النعم)[5].

= خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾ سورة النمل من الآية : ٦١

(1) ينظر: مجلة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة النبوية (47)، العدد الاول، مقال للدكتور: حسن باحفظ بعنوان "والجبال أوتاداً، مكة المكرمة، صفر 1416هـ، حقائق علمية في القرآن الكريم (29).

(2) الآيات العلمية في القرآن الكريم، عبد الرزاق نوفل (56-57)، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية (د.ت).

(3) ينظر: تفسير جزء عمّ، الشيخ محمد عبدة (5)، لقاهرة، مطابع الشعب، 1903م.

(4) سورة الجاثية: 12-13.

(5) أنوار التنزيل (387/2).

والآيات تؤكد على حقيقة يعرفها كل إنسان ينعم بهذه النعم سيما أن هذه النعم جمعت كل ما هو مسخر في السماء والأرض-وقد مر معنا- أن التسخير هو جعل الشيء قابلاً لتصرف غيره فيه.

قال الزمخشري: (...فإن قلت: ما معنى (مِّنۡهُ) في قوله (جَمِيعًا مِّنۡهُۚ) وما موقعها من الإعراب، قلت: هي واقعة موقع الحال، والمعنى: أنه سخر هذه الاشياء كائنة منه وحاصلة من عنده، يعني أنه مكوّنها وموجدها بقدرته وحكمته، ثم مسخرها لخلقه)[1].

ومعلوم أن تسخير البحر والانتفاع به لا يتم بتسخير لوحده، وإنما يحتاج إلى تسخير أشياء أخرى متممة لذلك التسخير وتلك النعمة، وهذا ما تنبه إليه الرازي أكثر من غيره حيث قال: (جريان الفلك على وجه البحر لا يحصل إلا بسبب تسخير ثلاثة أشياء **أحدها**: الرياح التي تجري وفق المراد. **وثانيها**: خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها الفلك. **ثالثها**: خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغوص فيه. وهذه الأحوال الثلاثة لا يقدر عليها واحد من البشر، فلا بد من موجد قادر عليها هو الله سبحانه)[2].

وبهذا التفسير يتبين لنا سبب ذكر قوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ) في هذا الموضع دون غيره، فإن تسخير البحر لا يتم إلا بما في الأرض وما في السماء وما بينهما من ظواهر فأتبعه بهذا التسخير. لوجود هذه العلاقة وهذا الترابط بين المشهدين. ومن هنا تظهر أهمية التسخير وكثرة وروده في القرآن الكريم[3].

---

(1) الكشاف (218/4)، ينظر: مفاتيح الغيب (673/9)، البحر المحيط (45/8).

(2) مفاتيح الغيب (673/9)، والآية فيها إشارة الى علاقة الارتباط والألفة بين عناصر هذا الكون فيما بينها ثم بينها وبين الإنسان، حتى أن أحد العلماء المعاصرين سماها (علاقة حب فاضلة). ينظر: التحريف المعاصر في الدين، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (181)، دار القلم، دمشق، ط1، 1997م. وأصل هذا الكتاب للرد على محمد شحرور في كتابه (الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة) وكان كتاباً مشحوناً بالأفكار الماركسية والباطنية.

(3) من المفيد أن نبين منهج القرآن في عرضه للمشاهد الطبيعية، وكثرة الآيات القرآنية التي تحدثنا عن تسخير ذلك كله لخدمة الدور الذي أنيط به الإنسان. وبما يتلائم والمهمة الأساسية لخلافته في هذا العالم. فإن هذه الآيات والمقاطع تمنحنا التصور الإيجابي لدور الإنسان الحضاري ينأى كلية عن التصورات السلبية والمفهومات الوثنية والأغريقية والرومانية، التي جردت الإنسان من كثير من قدراته الفاعلة وحريته في حواره مع كتلة الكون، والتسخير هو البديل الذي يطرحه القرآن الكريم بصدد المواقف من الكون بدلاً من (التعبد) عند الغربيين في نظراتهم البدائية القديمة للكون، أو (الغزو) الذي نشهده اليوم من رفض الغربيين للانحناء للكون =

ثم جاء بعد التعريف بحقيقة الخالق ووحدته، تعليم الأخلاق الفاضلة وهي مناسبة ظاهرة بين التعريف وهذا التوجيه الكريم، فإن من عرف ربه حق المعرفة هو الذي يتحلى بهذا الخلق، وإن المؤمنين بالله هم الذين يتحلون بالتسامح والمغفرة والعفو، ويغفرو لمن حرم هذه المعرفة الحقيقية.

قال الرازي: (واعلم أنه تعالى لما علم عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة، اتبع ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة بقوله: **(قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)**... وقوله: **(يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ)**. قال ابن عباس لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عقاب الأمم الباقية)[1].

قال ابن كثير: (أي ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم...أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم... هكذا روي عن ابن عباس–رضي الله عنهما وقتادة)[2]. ثم (ليترك هؤلاء المؤمنون الأمر كله لله يتولى جزاء المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته. ويحسب لهم العفو والمغفرة عن المساءة في سجل الحسنات. ذلك بما لا يظهر الفساد في الأرض، ويعتدى على حدود الله وحرماته بطبيعة الحال: **(لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)**[3].

وهذا المعنى أكدته الآية التالية لها وهي قوله تعالى: **(مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)**.

ومع إجلالنا لفضل الزمخشري وعمله، لا نوافقه من أنّ الآية منسوخة بآيةالقتال، كما ذكر ذلك غيره من المفسرين[4]. والعلماء الذين ألفوا في موضوع

=

والتمرد عليه وإعداد العدة لغزوه وقهره. فإن المنهج يوضح في هذه النقطة عن الموقف (الوسطي) الذي اعتمده القرآن الكريم إزاء هذا الكون إذا ما قارناه بمواقف الغربيين المتطرفة والمتشنجة. ينظر: مدخل إلى موقف القرآن من العلم، د. عماد الدين خليل (41) وما بعدها، مطبعة الزهراء، ط2، 1985م.

(1) مفاتيح الغيب (674-673/9) وقد نقل الرازي قول أكثر المفسرين أن الآية منسوخة بآية القتال.

(2) تفسير القرآن العظيم (144/4)، وقد ذكر الخطيب الموصلي: أن الآية فيها إرشاد المؤمنين أن يعاملوا المشركين بالعفو والصفح الذي يليق بإيمانهم وكمال أرواحهم وأخلاقهم، ينظر: تفسيره (76/8).

(3) في ظلال القرآن (3227/5).

(4) ينظر: الكشاف (218/4)، أنوار التنزيل (388/2)، البحر المحيط (45/8).

النسخ[1]، تلك الآية التي سلطت على الآيات التي تدعو للعفو، والصفح، والتجاوز والإعراض والمغفرة والتي زعم بعض المفسرين أنها كلها منسوخة، بآية القتال، وليس الأمر كذلك.

هذا من جانب، ومن الجانب الآخر، إذا سلمنا أنالآية جاءت في تعليم الاخلاق الفاضلة -كما ذكر الرازي وابن كثير وسيد قطب والخطيب الموصلي فيما تقدم- فكيف تكون منسوخة، فلا يمكن أن يدخلها النسخ، كما قرر علماء الاصول[2] وهي من صفات الفضيلة التي أمر بها القرآن في آيات كثيرة، وهذه الآيات كثيراً ما تقترن بآيات العقيدة في مواضع من القرآن الكريم[3]. كونها عقيدة ميدانية عملية، وليست عقيدة نظرية مجردة.

والذي شجع على القول بالنسخ لأنه يدخل تحت الغفران أن لا يقتلوا، فلما أمر الله بالمقاتلة كان نسخاً، بيد أن ذلك لا يعني أنها منسوخة، لأن ذلك له حكمه المناسب، ولا معنى للقول بنسخها، كونه توجيهاً قرآنياً للذين آمنوا[4]. وبهذا تكون الآيات التي عرضت هذه المشاهد قد أضافت على سابقتها إضافات كثيرة وجعلت مشاهد الطبيعة بعناصرها وظواهرها وما فيها من النعم كلها مجالاً للتعريف بالخالق المنعم وحقيقة وحدانيته.

وفي مقام آخر عرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة من أجل التعريف بحقيقة وحدانيته سبحانه، ممثلة بخلق السموات السبع، وإنزال الماء من السماء، وإسكانه في

---

(1) ينظر: الناسخ والمنسوخ، قتادة بن دعامة السدوسي، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن (45)، مؤسسة الرسالة، بيروت ط3، 1418هـ - 1988م، الناسخ والمنسوخ، هبة الله المقري، تحقيق: زهير الشاويش و محمد كنعان (159)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1404هـ، المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ، ابن الجوزي (52)، ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه، ابن البارزي(49) وهذه الكتب ظمن مجموعة كتب، تحقيق د. حاتم صالح الظامن، مؤس سة الرسالة، بيروت،ط 3، 1418ه1998م.

(2) ينظر: التلويح على التوضيح (35/2)، أصول السرخسي (60/2)، المستصفى في علم الأصول (80/1).

(3) ينظر: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ سورة الحجر: ٨٥ ــ ٨٩.

(4) ولذلك قال الرازي: (والأقرب أن يقال إنه محمول على ترك المنازعة في المحقرات على التجاوز عما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية)، مفاتيح الغيب (674/9).

الأرض، وإنشاء جنات النخيل والأعناب، كلها مجالات مشهودة ومحسوسة تتجلى فيها وحدانية الخالق وربوبيته. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[1].

وردت هذه الآيات بعد السياق الذي بين حصول الفلاح لمن استجمع الصفات السبع التي ذكرتها الآيات، والأمر بالعبادات، والاشتغال بعبادة الله لا يصح إلا بعد معرفة الإله الخالق[2]. فبدأت بآيات الأنفس ثم آيات الطبيعة.

فالماء لم ينزل على سطح الأرض مصادفة واعتباطا، بل أنزله تعالى (بِقَدَرٍ) أي بالقدر اللازم للحياة، لأنه إذا زاد اتلف واغرق، وأن قل كان الجدب والمحال، ولو نزل في غير أوانه لذهب بددا، بدون فائدة[3].

قال الزمخشري: (بِقَدَرٍ) بتقدير يسلمون معه من المضرة، ويصلون إلى المنفعة. أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم. (فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ) كقوله: ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[4]. وقيل: جعلناه ثابتاً في الأرض...وكما قدر على أنزاله فهو قادر على رفعه وإزالته. وقوله (عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ) من أوقع النكرات وأحزها للمفصل. والمعنى: على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه... فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ويقيدوها بالشكر الدائم، ويخافوا نفارها إذا لم تشكر)[5]. ومعنى ذلك أنّ الماء الذي أسكنه الله تعالى في الأرض لم يكن مقداره عبثاً (ويضن البعض أن في تغطية أكثر سطح الأرض بالمحيطات والبحار (5/4) فيه الكثير من الأسراف إلاّ أنّ الحقيقة على عكس ذلك)[6].

والآيات الكريمة فيها تنبيه على التلازم بين النعم المتوالية المذكرة بالمنعم

(1) سورة المؤمنون: 17-19.
(2) ينظر: مفاتيح الغيب (264/8)، في ظلال القرآن (2460/4).
(3) ينظر: تفسير القرآن العظيم (248/3)، الجامع لأحكام القرآن (104/12).
(4) سورة الزمر: 21.
(5) الكشاف (138/3)، ينظر: مفاتيح الغيب (268/8-269)، أنوار التنزيل (101/2).
(6) القرآن والعلم، محمد جمال الدين الفندي (139)، دار المعرفة، القاهرة، ط1، 1986م.

وحقيقة وحدانيته، وبين شكر المنعم، وكما أن نزول الماء (بِقَدَرٍ) ليحقق النفع الذي يرجى وتحقيق المصلحة والحاجة، فكذلك هو القادر سبحانه على صرفه عن الأرض وذهابه، وعلى العبد أن يوازن بين حالة وجوده، وبين حالة عدمه، لكي يكون مترقباً متصلا بالله تعالى، وأن يتخذ هذه النعمة آية من آيات الله الدالة على تفضله وإحسانه إليه. فيدفعه ذلك إلى طاعة الله ورضوانه- وقد مر معنا- أن الكلام إذا كان إحساناً من سائر الوجوه، كان تأثيره في القلب عظيماً.

وينتقل البيان القرآني إلى مجال آخر، فإخراج الثمرات، رزقاً للعباد ينتفعون به كفاكهة أو كطعام، ومع ذلك فهو نعمة، لأن الله هو الذي أنعم به على هؤلاء العباد، وجعلهم يستفيدون منه، فذكر نوعين من النباتات التي تنشأ بالماء، النخيل والأعناب وهي معروضة للأنظار، والمجال مجال فكر وتدبر، مع ما فيه من النفع.

قال ابن كثير: (وقوله: (فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ) يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق... وقوله: (مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ) أي فيها نخيل وأعناب، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشيء ونظيره، وقوله: (لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ) أي من جميع الثمار... وقوله: (وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ) كأنه معطوف على شيء مقدر تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تأكلون) [1].

يتبين لنا من تفسير ابن كثير رحمه الله، أن النعم المكذورة التي وردت في الآية الكريمة، ليست بمعزل عن العبرة والتذكرة، وهو أمر لابد منه، إذ ليس لذكر هذه النعم لمجرد الأكل بل أن النفع المعنوي الروحي مقدم عن النفع المادي وهو الأكل، والذي يرجح ما ذكرت هو سابق الآية كما بينت، ولاحقها كما سيأتي

وبعد أن انتهى هذه السياق الذي عرض مجالات الطبيعة، باعتبارها مجالاً تتجلى فيه حقيقة الوحدانية، انتقل إلى حقيقة الإيمان. تلك الحقيقة الواحدة التي توافق عليها الرسل دون استثناء، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[2]. ثم بيان كيف كان استقبال الناس لهذه الحقيقة الواحدة التي لا تتبدل على مدار الزمان، وتعدد الرسالات وتتابع الرسل[3].

---

(1) تفسير القرآن العظيم (248/3).

(2) سورة المؤمنون: 23.

(3) ينظر: في ظلال القرآن (2452/4 وما بعدها)، مفاتيح الغيب (271/8)، كما بين القرآن الكريم أن معرفة الله تعالى، لا وسيلة لها إلا النظر في الطبيعة المشهودة، وكانت هذه الوسيلة هي ديدن =

وبهذا يتبين أن هذهالمشاهد سبقها الأمر بالعبادات، والاشتغال بعبادة الله، ثم لحقتها الآيات التي تأمر بالعبادة وبيان حقيقة الإيمان الواحدة. فكما أن العبادة لا تصح الا بعد معرفة حقيقة وحدانيته تعالى، فهي كذلك الغاية من هذا التعريف ومن مقتضياتها. وبذلك يتبين وجه الترتيب في هذه الآيات، وورودها في هذا المكان دون غيره.

والذي يبدو أن انتهاء السياق بما بدأ به وهو الأمر بالعبادة، دائماً ما يكون مع التفصيل، فإذا جاءت المشاهد بتفصيل ما أجمله السابق في النزول سبقت بالأمر بالعبادة، ولحقت به أيضاً وقد مر معنا ذلك في مبحث سابق[1].

وبهذا تكون هذه الآيات، قد بينت قدرة الله في خلق عناصر الطبيعة الضخمة كالسموات السبع، وإنزال الماء وإنبات البساتين والحدائق، وما فيها من الإنعام الإلهي، وجعل ذلك مجالاً تتجلى فيه حقيقة الوحدانية. قد أضافت على سابقتها أضافات كثيرة وعرضت مجالات متنوعة من مجالات الطبيعة التي ذكرت هناك إجمالاً.

=

الرسل من أولهم إلى آخرهم، كذلك يبين دعوتهم إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، ففي رسالة نوح لقومه قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾سورة الأعراف: ٥٩، وكذلك قال هود و صالح و شعيب وإبراهيم عليهم السلام، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ سورة النحل: ٣٦، وقال تعالى:﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾سورة الأنبياء: ٢٥، وقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾سورة المؤمنون: ٥١ – ٥٢، وفي هذه الآيات وأمثالها دلالة على وحدة الدعوة = التي جاء بها الرسل والحقيقة الواحدة التي لا تتبدل، لا كما يظن البعض بأنها تمثل وحدة الأديان، وبدأ يروج له فالأمر ليس كذلك.

(1) ينظر: في هذا البحث (ص____)

المبحث الثالث

الظـواهر الطبيعية

وكما عرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة الضخمة كالسماء والأرض وما فيهما من العناصر، وبيان ما فيها من النعم الإلهية الكثيرة والمتباينة من أجل التعريف بحقيقة وحدانية الخالق وربوبيته لهذه الطبيعة المنظورة. فإنه يعرض الظواهر الطبيعية الناشئة من النظام الكوني للغرض ذاته، وبيان ما فيها من المنافع والنعم.

ومن الظواهر التي عرضها القرآن الكريم منفصلة عن غيرها من مشاهد الطبيعة، ظاهرة الليل والنهار، وهما نعمة من الله تعالى لا تعد ولا تحصى، ولولاهما لعدمت الحياة، وقد اقترن مفهوم الليل بالاطمئنان المعبر عنه بالسكون، في حين اقترن مفهوم النهار بالعمل والنشاط المعبر عنه بالإبصار، والقرآن الكريم يلفت الأنظار إلى هذه المشاهد ويجعلها مجالاً تتجلى فيه حقيقة وحدانية المنعم.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴾[1].

سبق عرض القرآن الكريم لهذه الظاهرة قوله تعالى: (أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ) يخبر الله تعالى في هذه الآية أن له ملك السموات والأرض، وأن له ما في السماوات والأرض من الملائكة والثقلين، هم في ملكه وهم عبيد كلهم، وإن الذين يعبدون الأصنام لا دليل لهم على عبادتها، بل هم يقدرون أن تكون شركاء تقديراً باطلاً[2].

فلما كان من الناس من يجعل له شريكاً في وحدانيته بلا دليل سوى الظن والافتراء. جاءت الآية الكريمة تبين مجالاً شاهداً على الوحدانية، ومقروناً بالنعم التي يستحق بها أن يوحّدوه بالعبادة.

---

(1) سورة يونس: 67.
(2) ينظر: الكشاف (226/2)، تفسير القرآن العظيم (422/2).

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره أن ربكم أيها الناس الذي استوجب عليكم العبادة هو الرب الذي جعل الليل لكم وفصله عن النهار لتسكنوا فيه مما كنتم فيه من نهاركم من التعب والنصب وتهدؤا فيه من الحركة للمعاش والعناء الذي كنتم فيه بالنهار؛ والنهار مبصراً، فأضاف الإبصار إلى النهار، وإنما يبصر فيه، وليس النهار مما يبصر؛ ولكن لما كان مفهوماً في كلام العرب معناه خاطبهم بما في لغتهم وكلامهم)[1].

والقرآن الكريم يربط بين هذه الظاهرة كونها مجالاً تتجلى فيه حقيقة الألوهيةالواحدة وبين النعم الحاصلة منها، فهي نعمة ورحمة وخير للإنسان– وهذا ما تنبه إليه المفسرون.

قال الرازي: (فإن قيل: إنّ قوله (هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ) يدل على أنه تعالى ما خلقه إلا لهذا الوجه، وقوله: (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ) يدل على أنه تعالى أراد بتخليق الليل والنهار أنواعا كثيرة من الدلائل. قلنا: إن قوله تعالى: (لِتَسۡكُنُواْ) لا يدل على أنه لا حكمة فيه إلا ذلك، بل ذلك يقتضي حصول تلك الحكمة. أما قوله تعالى: (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ) فالمراد يتدبرون ما يسمعون ويعتبرون به)[2].

فظاهرة الليل والنهار كما هي نعمة، هي آية من آيات الله سبحانه، كما أن عرض القرآن الكريم لهذه الظواهر فيه الحث على عبادة الله سبحانه، كونها من مقتضيات التعريف بهذه الحقيقة ومن غاياتها.

قال البيضاوي: (هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا) تنبيه على كمال قدرته وعظم نعمه المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة...(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ) سماع تدبر واعتبار)[3].

وبهذا يتبين أن عرض هذه الظواهر منفصلة عن غيرها فيه تنويع في المجالات التي تتجلى فيها حقيقة الوحدانية، كما أن فيها تعداداً للنعم الإلهية التي لا يحصيها العادون ومنها النعم الحاصلة من هذه الظواهر.

وإذا كان القرآن الكريم قد عرض الظواهر المتكررة على مدار الزمان، وجعل

---

(1) جامع البيان (97/11)، ينظر: الجامع لأحكام القرآن (322/8).
(2) مفاتيح الغيب (280/6).
(3) أنوار التنزيل (441/1).

منها مجالاً من مجالات التعريف بحقيقة وحدانية الخالق المنعم، فإنه يعرض الظواهر التي تحدث في زمان دون زمان للغرض نفسه.

ومن الظواهر التي عرضها القرآن الكريم ظاهرة (ٱلۡبَرۡقَ) تلك الظاهرة التي لم يفصّل كثيراً عن ماهيتها – كما هي طبيعة القرآن الكريم– في عرض الظواهر الطبيعية، ويقرر أن هذه الظاهرة آية من آيات الله، ومن ثم بيان ما يلابس الإنسان من الشعور أمام تلك الظاهرة، شعور الخوف من الصواعق، وشعور الطمع في الخير من نزول الغيث الذي يصاحب هذه الظاهرة في أغلب الأحوال.

قال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾[1].

والبرق من الظواهر الطبيعية، وهو تلك الشعلة الناشئة من احتكاك السحب احتكاكاً يترتب عليه هذا الاشتعال اللطيف الذي ينطفئ سريعاً[2].

قال سيد قطب في تفسير الآية: (ظاهرة البرق ظاهرة ناشئة من النظام الكوني، ويعللها بعضهم بأنها تنشأ من انطلاق شرارة كهربائية بين سحابتين محملتين بالكهرباء، أو بين سحابة وجسم أرضي كقمة جبل مثلا. ينشا عنها تفريغ في الهواء يتمثل في الرعد الذي يعقب البرق. وفي الغالب يصاحب هذا وذاك تساقط المطر نتيجة لذلك التصادم. وأياً ما كان السبب فالبرق ظاهرة ناشئة عن نظام هذا الكون كما خلقه البارئ وقدره تقديراً)[3].

ولما كانت هذه الظاهرة تتجدد في زمان دون زمان، جاء نظم الآية مطابقاً لظهورها في الواقع المشهود. وهذا ما تنبه إليه الرازي أكثر من غيره حيث قال: (وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ) ولم يقل أن يريكم، وأن قال بعض المفسرين إن أن مضمرة هناك معناه من آياته أن يريكم ليصير كالمصدر بأن... وفي البرق لما كان ذلك من الأمور التي تتجدد في زمان دون زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيئاً من الحروف المصدرية)[4].

فإن الواقع المشهود لهذه الظاهرة وتجددها في زمان دون آخر، وتصوير هذا

---

(1) سورة الروم: 24.
(2) ينظر: في رحاب البيان القرآني (سورة الرعد) محمد السعدي فرهود (40) دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط1، 1398 هـ - 1978م.
(3) في ظلال القرآن (2765/5).
(4)مفاتيح الغيب (95/9)

المشهد تصويراً يعتمد على الحقيقة- كما هي طبيعة القرآن في تصوير المشاهد- هو الذي اقتضى هذا الحذف، وليس من باب الإيجاز والإضمار الذي قال به بعض المفسرين أو من باب التقديم والتأخير[1]. وبهذا يتبين أن الوجه الذي ذكره الرازي هو الأرجح كونه الأنسب والأليق بالنظم القرآني[3].

إن هذه التخريجات والتي قد تبدو صحيحة لغة، إلاّ أنها لا تحمل في طياتها التوجيه الكاشف عن مراد الله، ولا يكفي- كما يقول ابن القيم- في مباني كلام الله عز وجل وإيضاح معانيه مجرد الجواز النحوي والاحتمال الإعرابي، بل لابد من رعاية الفصاحة القصوى والبلاغة العليا[4] والقول بالحذف وتقدير (إِنَّ) والايجاز لا يحقق هذا، آخذين بنظر الاعتبار أن عدم التقدير أسلم من التقدير.

ومن المشاهد التي عرضتها الآية مشهد إنزال المطر واحياء الأرض به، وما فيه من المنافع والخيرات، وما ينبت في الأرض من أنواع النباتات المتباينة الكثيرة التي تظهر الإنعام الإلهي.

ولما كانت هذه الظاهرة من الآيات السماوية الباهرة، ناشئة من هذا النظام الدقيق، والتناسق العجيب، وما فيها من مظاهر التدبير، وظواهر النعمة على البشر. وما يتبعها من منافع وخيرات، كلها مسخرة لمنفعة، وداعية لتنشيط العقل، والتأمل في كنهها ومعرفة أسرارها باعتبارها مجالاً تظهر فيه حقيقة وحدانية الخالق القادر، لذا ناسب أن تختم الآية الكريمة بقوله تعالى: **(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ)** فإن للعقل هنا مجالاً للتدبر والتفكير في هذه الآيات كون تلك وظيفته من أجل الربط بين هذه الظواهر وبين مدبرها ومقدرها. وهنا تتناسب التعقيبات في الآية القرآنية مع المشاهد الكونية التي تتحدث عنها.

والآية الكريمة بينت قدرة الله في إيجاد هذه الظاهرة وما يصحبها من تغيرات، وما يتبعها من ظواهر مقرونة بالنعم الإلهية، ثم جعلها مجالاً تتجلى فيه حقيقة الوحدانية، وهذا ما تقرره الآيات التي تلتها بقوله تعالى: (وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ).

قال الرازي: (لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التي هي

---

(1) ومن النحويين و المفسرين الذين ذكروا إضمار (أن) وتقديرها (أن يريكم) وعدها من باب الإيجاز: الثعالبي في فقه اللغة وسر العربية تحقيق: مصطفى السقا (ص319)، مطبعة الحلبي القاهرة، 1314هـ - 1954 م، الزمخشري (358/3)، البيضاوي (215/2)، وابو حيان (163/7)، البروسوي(31/7)، كما عده القرطبي من باب التقديم والتأخير، ينظر: الجامع لأحكام القرآن (20/14).

الأصل الآخر، والوحدانية التي هي الأصل الأول، وأشار إليها بقوله: (وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ) يعني لا شريك له أصلاً لأن كل من في السموات وكل من في الأرض، ونفس السموات والأرض له وملكه، فكل له منقادون قانتون)[1].

وفي موضع آخر يبين القرآن الكريم قدرة الله على جعل ما يحدث في الطبيعة من ظواهر نعما وخيرات، ممزوجة بقدرته على إصابة من استحقوا الهلاك ومن يشاء من عباده، إذا اقتضت حكمته إلا يمهلهم، فالقرآن الكريم يلفت الأنظار إلى هذه الظواهرالثلاث، ظاهرة البرق-وقد مر بيانها- تلك الظاهرة التي تلازم السحب، وما يصحب هذه الظاهرة من أثر في النفس بين الخوف من الصعق، والطمع بالغيث. وظاهرة السحب المبشرات بالخيرات، ثم ظاهرة الصواعق تلك الظاهرة الطبيعية الناشئة من تركيب الكون، فيصيب بها من يشاء ويبعدها عمن يشاء، ثم يجعل ذلك مجالاً تتجلى فيه حقيقة وحدانية الخالق وربوبيته، الذي قدر على أن يحدث كل هذه الظواهر فيجعل منها ما هو جانب الرجاء والطمع، كما هو جانب الخوف.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾[2].

سبقت هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[3]، والآية في معرض الذين يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، وإنذارهم حيث لا يرد عذاب الله عنهم –إذا استحقوه بما في أنفسهم– ولا يعصمهم منه والٍ ولايناصرهم، فلما خوف العباد بإنزال ما لا مرد له أتبع بعرض هذه المشاهد التي يظل الناظر إليها في ترقب وحذر، كونها تشبه النعم والإحسان من بعض الوجوه، وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه [4]. ويحسن في هذا المقام

---

(1) مفاتيح الغيب (96/9)، ينظر: أنوار التنزيل (218/2)، الجامع لأحكام القرآن (21/14)، محاسن التأويل (595/7).
(2) سورة الرعد: 12-13.
(3) سورة الرعد: 11.
(4) ينظر: مفاتيح الغيب (20/7-21)، البحر المحيط (365/5)، في ظلال القرآن (2050/4).

الإشارة إلى أن التغيير الذي دلت عليه الآية – المشار إليها-هو من الاحسن إلى الأسوأ، وأن معنى الآيةإنّ الله لا يسلب نعمة أنعمها على الناس، حتى يغيروا ما كانوا عليه من طاعة اللهوأنه لا يغيّر ما بقوم حتى يقع التغيير منهم بالمعاصي [1] وحسبنا الإشارة إلى ذلك.

قال البيضاوي: (هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفًا) من أذاه (وَطَمَعًا) في الغيث وأنتصابها على العلة بتقدير المضاف، أي إرادة خوف وطمع أوالتأويل بالإضافة والاطماع... وقيل يخاف المطر من يضره ويطمع فيه من ينفعه (وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ) الغيم المنسحب في الهواء (ٱلثِّقَالَ) وهو جمع ثقيلة وإنما وصف به السحاب لأنه اسم جنس في معنى الجمع)[2].

ومن الظواهر التي عرضتها الآيات، ظاهرة الرعد، وهو الصوت المفرقعالمدوي. إنه أثر من آثار الناموس الكوني، الذي خلقه الله سبحانه، وكذلك الصواعق من الظواهر الطبيعية الناشئة من نظام هذا الكون، وكل هذه الظواهر بما فيها من الرعد والدعاء والصواعق، كلها ناطقة بوحدانيته سبحانه، ثم يتجه التسبيح والحمد إليه وحده من أضخم مجال في الطبيعة[3].

والظاهر من سياق الآيات أن التسبيح الوارد في الآية الكريمة من دلائل توحيده سبحانه، فقد يكون تسبيحاً حقيقياً[4] (لأن تسبيح الرعد حقيقة دلّ عليها القرآن، فنؤمن بها وإن لم نفهم تلك الأصوات، فهو تعالى لايخبر إلا بما هو حق)[5] والرعد

---

(1) وبهذا المعنى يتبين أن الاستدلال بالآية على سياق الحث على التغيير من قبل كثير من الدعاة، هو استدلال على غير مراد الله منها، وللوقوف على أقوال المفسرين في معنى الآية: ينظر: مفاتيح الغيب (17/7-20) حيث نقل إجماع المفسرين على هذا المعنى، وقال: (لا يصح غيره)، أنوار التنزيل (503/1)، الجامع لأحكام القرآن (250/9)، تفسير القرآن العظيم (500/2)، البحر المحيط (365/5)، فتح القدير، للشوكاني (69/3) ط، دار المعرفة، روح المعاني (196/13)، أضواء البيان (115/3). و الذي يؤيد ما عليه عامة المفسرين، سياق الآية نفسها، فقد ورد فيها قوله تعالى: (وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ).

(2) أنوار التنزيل (503/1).

(3) ينظر: في ظلال القرآن (2051/4).

(4) ينظر: مفاتيح الغيب (23/7)، الجامع لأحكام القرآن (251/9)، في ظلال القرآن (2051/4).

(5) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني (76/2)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. التسبيح نوعان: تسبيح للعاقل بلسان المقال ولغيره بلسان الحال. وهذا يدل على أنّ كل ما في الكون يتحرك أو "يَسْبَح" في جري سريع، منتظم، هادئ غير مضطرب، وفي ذلك دلالة على خالقها، وعلى صفاته القدسية، فهي تحمده وتثني عليه وتنزهه وتخضع له. ينظر: أسرار الكون =

يسبح فعلاً بحمد الله. كما أن كل مخلوق يسبح ويعلن حمد الخالق والثناء عليه كما يدل عليه قوله تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)[1]. وهذا من الغيب الذي حجبه الله عنا، ولا بد لنا أن نتلقاه بالتصديق والتسليم. وبهذا يكون مدلول لفظ التسبيح هو المقصود في الآية الكريمة.

لسنا ممن يعرض عن دلالة النص، ويلتفت إلى قياسات وتقديرات يمليها تحكيم العقل، كما ابتعد بعض المفسرين كالزمخشري وغيره، في تفسير تسبيح الرعد الوارد في الآية، حين قدر له محذوفا جعله: (العباد الراجين للمطر) كما جاء في تفسيره[2]، وتابعه في ذلك البيضاوي[3].

وبعد أن عرضت الآيات الكريمة هذه الظواهر جاء التعقيب بقوله تعالى (وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ) أي الكفرة والمشركون يجادلون في الله بتكذيبهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإنكار ما يصف به رب العزة من الوحدانية والتنزيه والقدرة[4].

فالواو في قوله تعالى: (وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ) لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى: (هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ)[5]. فبعد أن عرضت الآيات المشاهد التي تتجلى فيها حقيقة الوحدانية، بينت أوهام الكفرة في الجدال والخصومة.

وقد لحقت هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾[6]. والدعوة

= في القرآن، داود سلمان السعدي (259)، دار الحرف العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1420هـ-1999م.

(1) سورة الإسراء: 44.
(2) ينظر: الكشاف (381/2).
(3) ينظر: أنوار التنزيل (503/1).
(4) ينظر: مفاتيح الغيب (24/7)، أنوار التنزيل (503/1)، البحر المحيط (367/5)، في رحاب البيان القرآني (سورة الرعد) (43-44).
(5) ينظر: إرشاد العقل السليم (9/5).
(6) سورة الرعد: 14.

المذكورة في الآية تحتمل أن تكون أنه الذي يحق أن يعبد، أو أن له الدعوة المجابة. كما ذكر عدد من المفسرين، فيكون معنى قوله تعالى: (لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ) الدعاء الحق فإنه الذي يحق أن يعبد ويدعى إلى عبادته دون غيره، أو له الدعوة المجابة فإن من دعاه أجابه[1]. والأول هو المعنى الأرجح كونه يتفق مع سياق الآية، فلما ذكر تعالى جدال الكفار في الله تعالى، وكان جدالهم في إثبات آلهة معهم، ذكر تعالى أن له الدعوة الحق[2]. وهذا المعنى يتناسب مع ما قبله من عرض الظواهر الطبيعية فإن آيات التعريف بالخالق وحقيقة وحدانيته كثيراً ما يتبعه الأمر بالعبادة- وقد مر معنا-أنها من مقتضيات هذا التعريف.

وبهذا تكون هذه الآيات قد أضافت إلى سابقتها في النزول أضافات كثيرة فبعد أن ذكرت هذه الآيات ظاهرة البرق أضافت إليها ظاهرة إنشاء السحاب الثقال، وظاهرة الرعد وإرسال الصواعق، فكلها ظواهر جديدة لم تذكر هناك.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن ظاهرة البرق التي تسبق الرعد في الحقيقة، وردت قبلها في النزول في الآية السابقة سورة الروم، وحين وردت معها في سياق واحد في هذه الآيات ذكرت قبلها في نظم الآية للغرض نفسه، فكانت واقعية عرض الظواهر في القرآن الكريم في ترتيب النزول وفي ترتيب النظم. وبهذا يتبين يتبين سر تكرار هذه الظاهرة في هذا الموضع.

وبهذا يتبين أن الظواهر الطبيعية كما هي عناصرها تعد مجالاً من مجالات التعريف بالخالق، تتجلى فيه حقيقة وحدانيته، وأن عرضها منفصلة عن غيرها من المجالات هو تنويع في مجالات التعريف، كما أنه تنويع في أسلوب عرض هذه الظواهر. ثم يتبع السياق الذي عرض هذه الظواهر بالتدبر و الإعتباروالخضوع له والدعوة لعبادته سبحانه.

لذلك عقب على ظاهرة الليل والنهار بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ

(1) ينظر: أنوار التنزيل (504/1)، محاسن التأويل (276/6)، في ظلال القرآن (2052/4).
(2) ينظر: البحر المحيط (368/5)، يؤيد هذا الرأي تصوير الآية عبدة الأوثان، وتضرعهم إلى غير الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ وأنى للماء أن يستجب لمن بسط كفيه إليه ظناً منه أن الماء يصل إلى فمه دون أن يتوص إلى ذلك بإناء، لن يصل إلى فمه أبداً لأنه لا يشعر بعطشه، ولا يرى بسط كفيه إليه، ولا يسمع دعوته له، فكذلك حال الأصنام لا تحسّ بعبادتهم. ينظر: مع القرآن في إعجازه وبلاغته، عبد القادر حسين (133) مكتبة الأمانة، القاهرة، 1975م.

﴿يَسۡمَعُونَ﴾[1].

وعقب على ظاهرة البرق ونزول الماء من السماء وإحياء الأرض به بقوله تعالى:﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[2].

واتبع السياق ظاهرة الرعد وإنشاء السحاب والصواعق بقوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾[3].

---

(1) سورة يونس: 67.
(2) سورة الروم: من الآية: 24.
(3) سورة الرعد: من الآية: 14.

المبحث الرابع

تنزيه الخـــالق من اتخاذ الولد

لقد اهتم القرآن الكريم اهتماماً واضحاً، في الرد على فرية اتخاذ الله ولداً، تلك التي قال بها اليهود والنصارى، كما قال بها عرب الجاهلية.

وجعل يسخف تصوراتهم الفاسدة للإلوهية، وقد بينت في بداية هذا الفصل حالة البشرية وتراكم فساد معتقداتها عند نزول القرآن، فقد زعم اليهود أن عزيزاً ابن الله، وزعمت النصارى أن المسيح ابن الله، وزعم مشركو العرب أن الملائكة بنات الله – مع كراهيتهم للبنات – ثم عبدوا الملائكة – والأصنام – معتقدين أن لها عند الله شفاعة لا ترد، وأنهم يتقربون بها إليه سبحانه[1].

والقرآن الكريم لم يسكت عن هذه الافتراءات والتقولات، إنما راح يفندها ويتصدى لها، وقد حرص القرآن الكريم على ربط عقيدة التوحيد والتنزيه بالطبيعة ومشاهدها من عناصر وظواهر، وما فيها من حقائق تنفي هذه الفرية وتمحقها، إتماماً لمنافحته عن الوحدانية التي هي الحجر الأساس في الفكر الإسلامي ولذلك كان التركيز في المنهج القرآني على تصحيح ما علق من تصورات البشر من انحرافات وأوهام، كان منشؤها قصوراً في التصور يعجزعن إدراك الفارق الهائل بين الطبيعة الإلهية الأزلية الباقية، والطبيعة البشرية المخلوقة الفانية.

وقد جعلت هذا المبحث ملحقاً بالمباحث الماضية لعلاقته الوثيقة، فمن مظاهر عدم توحيده وعل الشركاء له نسبته إلى اتخاذ الولد.

ولم أتحدث عنه بالاستقلال لقلة المشاهد الطبيعية المقرونة بتنزيه الخالق، ولعدم وجود تفصيلات مثل غيرها من الحقائق التي عرضها القرآن الكريم.

لذلك نجد القرآن الكريم يعالج الموضوع من واقعه القريب إلى الفطرة، والواقع القريب هو المشاهد الطبيعية، التي تستجيب لها الفطرة بيسر، وهذه الاستجابة بسبب واقعية ما تشاهده في الحقيقة وفي الواقع.

إن توحيد الله وتنزيهه عن صفات المخلوقين هو لب التوحيد وأساسه، وهو الدين الحق والصراط المستقيم، الموصل إلى رضوانه تعالى وجنته. لذلك كان اهتمام القرآن الكريم به اهتماماً كبيراً.

وقد تكرر الحديث عن هذه المسألة في أكثر من سورة وآية، بطريقة قرن هذه

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن (1806/2) فما بعدها، مقومات التصور الإسلامي، (ص192) فما بعدها.

المسائل بالمشاهد، ومجال هذا الاقتران هو التنزيه باعتبارها إحدى ميادين العقيدة الإسلامية، وإحدى حقائقها الأساسية.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾[1]

في هذه الآيات الكريمة سلك القرآن الكريم أسلوباً من أساليب التأثير، تحقيقاً للغرض الهام والمقصد الخطير، ألا وهو تنزيه الخالق، ذلك الأسلوب. يتجلى في استفظاع هذه الفرية التي افتروها، ونقل هذا الاستفظاع إلى الطبيعة الجامدة، سمائها، وأرضها وجبالها.

فكانت هذه الآيات هي الموضع الأول في القرآن الكريم الذي يتصدى فيه لهذه الفرية وتنزيه الخالق بعرض مشاهد الطبيعة، وتصوير ما يعتريها من تغير وتبدل في حين ذكرت افتراءات هؤلاء في كثير من المواضع[2]. من دون أن تقترن بالمشاهد فإن رد هذه الفرية والتصدي للقائلين بها بهذا الأسلوب أكثر تأثيراً من النفي أو الإنذار المجردين، لما فيه من تأثير في الحس والوجدان.

قال الزمخشري: (فإن قلت: ما معنى انفطار السموات والأرض و خرور الجبال ؟ ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات ؟. قلت فيه وجهان: **أحدهما** أن الله سبحانه يقول كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوّه بها، لولا حلمي ووقاري وأني لا أعجل العقوبة، كما قال تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ

(1) سورة مريم الآية: 88 – 93.

(2) ينظر: الآيات: 111 من سورة الإسراء، الآية: 4 من سورة الكهف والتي جاءت متتالية في ترتيبها المصحفي، فجاء في سورة الإسراء نفي اتخاذ الولد، وفي الكهف إنذار الذين قالوا بهذه الفرية، ثم تليها سورة مريم فجاء فيها أولاً: نفي فرية اتخاذ الله ولداً في قوله تعالى: (مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) الآية: 35 ثانياً: استفظاع هذه الفرية – اتخاذ الله سبحانه الولد– هذه الكبيرة الكفرية، ونقلها إلى الطبيعة السماوية والأرضية، وبذلك يظهر وجه الإعجاز في ترتيب هذه السور الثلاث في المصحف، ومن ثم معالجتها لهذا الموضوع وهو وجه من وجوه الإعجاز يظهر فيه تكامل هذه النصوص مع بعضها وعليه فهي متكاملة الدلالة كأنها أُنزلت في وقت واحد، لأن مضامينها حقائق لا تكاليف ولا مراحل تربوية.

حَلِيمًا غَفُورًا) [1].

والثاني: أن يكون استعظاماً للكلمة، وتهويلاً من فظاعتها، وتصويراً لأثرها في الدين وهدمها لأركانه وقواعده، وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات: أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التي هي قوام العالم، ما تنفطر منه وتنشق وتخر. وفي قوله: (لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ) وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة – وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة-زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله، والتعرض لسخطه، وتنبيه على عِظم ما قالوا)[2].

وعند استحضار السياق الذي وردت فيه الآيات نجد أنها جاءت في استعراض ظواهر الكفر والشرك، فقد سبقها قوله تعالى: (وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا)[3] وأكثر المفسرين أن الآيات الكريمة تعم أقوال المشركين من العرب: الملائكة بنات الله. والمشركين من اليهود: عزير ابن الله. والمشركون من النصارى: المسيح ابن الله والرد عليهم فينتفض الكون كله لهذه المقولة المنكرة التي تنكرها فطرته، وينفر منها ضميره، وهذه الانتفاضة تشترك فيها السموات والأرض والجبال[4].

فلو صور هذا القول بصورة مادية محسوسة، لما تحملته عناصر الطبيعة الضخمة السموات والأرض والجبال على شدتها وضخامتها، لو ركب في هذه العناصر ما في الإنسان من إدراك وسمعت مثل هذا القول الفظيع، لما تحملته إجلالاً لله وتعظيماً، وغضباً من أصحاب هذا القول المنكر. وإن عناصر الطبيعة تغضب للشرك بالله من بعض البشر و الجهال.

قال ابن كثير: (يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاماً للرب وإجلالاً، لأنهن مخلوقات مؤسسات على توحيده وأنه لا إله إلا هو) [5].

والواقع أن القرآن الكريم لا يجعل للجبال ثباتاً أزاء قدرة الله وعظمته سبحانه،

---

(1) سورة فاطر: 41.
(2) الكشاف: (3/34-35)، ينظر: أنوار التنزيل (2/40)، البحر المحيط (6/206).
(3) سورة مريم: 81 – 82.
(4) ينظر: الكشاف (3/36)، مفاتيح الغيب (7/566) الجامع لأحكام القرآن (6/57)، البحر المحيط (6/205)، محاسن التأويل (7/119)، في ظلال القرآن: (2/466)، التحرير والتنوير(7/167).
(5) تفسير القرآن العظيم: (2/466) ينظر: محاسن التأويل (7/120).

بل يجعلها عرضة على الدوام للتصدع في كل أمر عظيم يعرض في الفكر البشري، كالادعاء بأن لله ولداً سبحانه.

لذا ناسب أن يأتي بعد هذه الآيات قوله تعالى: (إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا) وذلك بيان عبودية الخلائق المكلفة كلها، عبودية أهل السموات والأرض[1]، فلا يستطيع أي مخلوق أن يسلخ نفسه عن عبوديته لله تعالى: (لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا)[2] فالإلهية والعبودية تتنافيان ولا تجتمعان، ومن كان عبداً لله تعالى لا يكون إلهاً أو ابن إله قطعاً.

يلحظ مما تقدم أن الآيات عرضت مقولة أهل الشرك والأديان المحرفة كلها، واستفظاع هذه المقولة، انتفضت له الطبيعة الجامدة كلها، ثم بينت عبودية الخلائق كلها، وهذه الآيات جاءت في سورة يدور سياقها على محور التوحيد، ونفي الولد والشريك وهذا هو الموضوع الأساسي للسورة كلها[3].

وكما سلك القرآن الكريم إلى أسلوب من أساليب التأثير، في استفظاع فرية اتخاذ الله الولد فإنه سلك طريق التأثير الوجداني بإظهار عظمة الله وقدرته ونعمه، المتجلية في السموات والأرض، وما فيهما من آيات دالات على ذلك، من أجل نفي هذه الفرية، بعرض مشاهد السموات والأرض وملكيته لكل ما فيهما والتصدي لقائليها ومواجهة فريتهم وتصوراتهم بحقيقة الوحدانية، ومناقشتهم في هذه التصورات بما يشكف عما فيها من جهل.

قال تعالى: (قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[4].

وأكثر المفسرين على أن أصحاب هذا القول في هذه الآية هم المشركون من

---

(1) يقول ابن القيِّم في معرض حديثه عن أنواع العبودية وانقسلمها الى عامة وخاصة: أن هذه الآية تعني العبودية العامة(عبودية القهر والملك) التي يدخل فيها المؤمن والكافر. ينظر: مدارج السالكين (78/1)، التفسير القيم(107).

(2) سورة النساء الآية: 172.

(3) ينظر: التوحيد والتنزيه في سورة مريم، عبد الحميد محمود طهماز، (5)، دار القلم، دمشق، ط1، 1412هـ - 1992م.

(4) سورة يونس: 68.

العرب، ومنهم الطبري[1]، والرازي[2]، والقرطبي[3].

وقد رجح هذا الطاهر ابن عاشور مستدلاً بعود الضمير للآيات التي جاءت قبلها حيث قال: (فضمير (قَالُواْ) عائد إلى: (ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ) أي قال المشركون (ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ) وليس المراد من الضمير غيرهم من النصارى)[4]. وهذا التوجيه أسلم بالقائلين بالفرية، وأن سياق الآية يؤيد هذا المعنى لا غير، فضلاً عن أقوال كبار المفسرين.

لقد استرعى انتباهي أن ابن عاشور قال بعد كلامه هذا (لأن السورة مكية والقرآن المكي لم يتصد لإبطال زيغ عقائد أهل الكتاب)[5]. ومعلوم أن كثيراً من السور المكية عرضت مقولاتهم، وتصدت لإبطال عقائدهم بعرض مشاهد الطبيعة، وحسبنا دليلاً، الآيات الكريمة في هذا المبحث، والتي لا نزاع في كونها مكية، بل أن المواضع التي تصدى لها القرآن الكريم في هذا المبحث كلها مكية إذا ماستثنينا الآيات من سورة البقرة. وعليه لا نسلم لهذا القول كونه لا دليل له، ولم يقل به أحد من المفسرين.

جاء في ظلال القرآن: (كان الرد على فرية: (قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ).. هو: (سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ). تنزيهاً لذاته العلية عن مستوى هذا الظن أو الفهم أو التصور (هُوَ ٱلۡغَنِيُّ)... بكل معاني الغنى، عن الحاجات التي أسلفنا وعن سواها مما يخطر ومما لا يخطر على البال. مما يقتضي وجود الولد (لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ) فكل شيء ملكه. ولا حاجة به-سبحانه- لأن يملك بمساعدة الولد. فالولد إذن عبث. تعالى الله سبحانه عن العبث)[6].

ولما كان السياق يقتضي التأكيد أعاد "ما" فقال: (لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي

(1) ينظر: جامع البيان (302/4).
(2) ينظر: مفاتيح الغيب (280/2).
(3) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (322/8).
(4) التحرير والتنوير(229/5).
(5) المصدر نفسه(229/5)
(6) في ظلال القرآن (1806/3).

ﭐلۡأَرۡضِ) من صامت وناطق، فهو غني بملك ذلك عن أن يكون شيء منه ولداً له لأن الولد لا يملك، وعدم ملكه نقص مناف للغنى، ولعله عبر بـ "ما" لأن الغني محط نظره الصامت مع شمولها للناطق[1].

يلحظ مما تقدم أن إتباع القرآن الكريم هذا المسلك-التأثير الوجداني- بسبب أن الفرية كان منشؤها تصوراً فاسداً، فرد الفرية بمشاهد لها وجود في الواقع، وما ثلة أمام الحس، فالواقع المنظور أكثر حجة من التصور، وأكثر وقعاً في القلوب، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أن القرآن الكريم يذكر حكاية نوع من أنواع كفرهم مغاير لإدعاء شركاء لله، وهذا الرأي تنبه إليه ابن عاشور أكثر من غيره، عند تفسيره للآية الكريمة حين قال: (وفي هذا البيان إدماج بحكاية فن من فنون كفرهم مغاير لادعاء شركاء لله، لأن هذا كفر خفي في دينهم، ولأن الاستدلال على إبطاله مغاير للاستدلال على إبطال الشركاء)[2]. ولهذا نجد القرآن الكريم تصدى لرد الكفر الخفي، بما هو ظاهر للعيان وهو مشاهد الطبيعة، بغض النظر عن منشأ هذه الفرية والقائلين بها. مع التنويع في عرض هذه المشاهد.

وكما قرن القرآن الكريم نفي فرية اتخاذ الله الولد، بعرض مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية وملكيته لهما، ففي مقام آخر قرن نفي الفرية وتنزيه الخالق سبحانه بعرض هذه المشاهد وإبداعه لهما.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾[3].

---

(1) ينظر: نظم الدرر: (464/3). يعني البقاعي رحمه الله بالصامت: عناصر الطبيعة وهي السموات والأرض والناطق: ما بينهما من بني البشر والملائكة والجن.

(2) التحرير والتنوير (229/5)، فإن فرية اتخاذ الولد، غير إدعاء الشريك له، والدليل على الفرق بين الأمرين أنه تعالى ميز بينهما في قوله تعالى: ﴿ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾الإخلاص: 3-4، ينظر: مفاتيح الغيب، (90/5)

(3) سورة الأنعام: 100 – 102.

فإنه يواجه دعواهم باتخاذ شركاء لله- سبحانه- وبنوة الملائكة – بزعمهم- إنكار أصل الدعوى، وذلك بعرضه لمشهد يمثل أضخم العناصر في الطبيعة المنظورة، وهو مظهر من مظاهر القدرة وآثارها في الخلق والإبداع في مجال الطبيعة. ودلالة الوحدانية ظاهرة في هذه المشاهد، وبنظامها وتناسقها العجيب. وكل هذه المواجهة وهذه المعالجة تأتي في سياق السورة، التي يدور موضوعها الأساسي- كما سبق بيانه- في قضية العقيدة.

ففي تفسير الطبري عن قتادة: أن القائلين بهذه الفرية هم العرب واليهود، فالعرب جعلوا له البنات، واليهود جعلوا بينه وبين الجِنة نسباً[1]. وأكثر المفسرين[2] أن الآيات فيها عرض بعض عقائد المشركين من وثنيين وأهل كتاب من اليهود والنصارى يزعمون أن لله ولداً. وذكرت ضلالتين كبيرتين من الضلالات المكفرات المتعلقات بذات الله وصفاته.

الضلالة الأولى: اتخاذ المشركين شركاء لله في ألهيته، دل على هذه الظلالة المكفرة قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾[3] أي: فعبدوا الجن من دون الله، وهؤلاء الجن الذين عبدوهم هم من الشياطين، وعبادتهم لهم كانت بطاعتهم فيما كانوا يأمرونهم به، وفيما ينهونهم عنه.

الضلالة الثانية: الافتراء على الله بأن له بنين وبنات. دلّ على هذه الضلالة قول الله تعالى في الآية: ﴿وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ...﴾ أي: افتروا واختلقوا

---

(1) جامع البيان (408/3)

(2) ينظر: الزمخشري (41/2)، الرازي (91/5)، البيضاوي (314/1)، القرطبي (49/7)، ابن كثير (164/2)، القاسمي (495/4)، سيد قطب (1162/2)، ركزت في هذا المبحث على أصحاب الفرية و منشؤها للوقوف على سبب التباين في عرض المشاهد، بين عناصر الطبيعة وظواهرها، وبين الإجمال والتفصيل وعلاقته بالفرية وبالقائلين بها، فكان هذا الإسهاب مقصوداً.

(3) هذه الآية من شواهد الإعجاز التأثيري عند الجرجاني حيث قال: (ليس بخافٍ لتقدم الشركاء حسناً وروعة. ومأخذاً في القلوب. أنت لا تجد شيئاً منه إذا أخرت فقلت: (وجعلوا الجن شركاء لله). ينظر كلامه مفصلاً في: دلائل الإعجاز (282) تحقيق: محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1404هـ، وللتعرف على هذا الوجه من الإعجاز ومرحلة التأصيل العلمي له، ينظر: بيان إعجاز القرآن، الخطابي (21)، الرسالة الشافية في إعجاز القرآن، الجرجاني (122)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض (217/1) مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، شرح الشفا، نور الدين القاري، تحقيق: حسنين مخلوف (262/2 – 845)، مطبعة المدني، مصر 1014هـ، الإعجاز في دراسات السابقين، د. عبد الكريم الخطيب (68)، دار الفكر العربي، مصر، 1974م، في إعجاز القرآن، د. محمد بركات أبو علي (108) المكتبة الدولية، مؤسسة الخافقين، 1403هـ.

كذباً بأن لله بنين وبنات، زاعمين أن لله بنين وبنات، ومنها زعمهم أن الملائكة بنات الله[1].

وبعد أن بين القرآن الكريم سخف هذا التصور وقصوره، بعرض مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية، عاد بعد فترة طويلة في العهد المكي ليعالج نفس الموضوع من خلال تجريد كل حي وكل شيء من خصائص الألوهية، ويقف الكل موقف العبيد. فقد عالج الضلالة الأولى في سورة الذاريات ببيان عبودية الجن والأنس معاً كما في قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) كما عالج الضلالة الثانية في سورة الأنبياء من أجل بيان حقيقة العبودية للملائكة، قال تعالى: (وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ) فجاء ترتيب المعالجة متناسباً مع ترتيب الافتراء في نظم القرآن الكريم، وبحسب ترتيب نزول الآيات في سورها فالسابق بالنزول عالج الضلالة الأولى ثم يأتي بعدها اللاحق[2].

وبعد أن تصدى القرآن الكريم لقول هؤلاء وافتراءاتهم، بعرض هذه المشاهد، دمغ أهل هذه الفرية بالحقيقة الثابتة، وهي الوحدانية لله وبيان مقتضياتها، بقوله تعالى: (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ).

قال الزمخشري: (ذَٰلِكُمُ) إشارة الى الموصوف بما تقدم من الصفات وهذا مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة...أي ذلك الجامع لهذه الصفات فاعبدوه، على معنى أن من حصلت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه)[3]. فجاءت الآيات بعد الفرية في تقرير التوحيد والتنزيه. ثم أتبعه بقوله تعالى: (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) أي: (وهو مع تلك الصفات متولي أموركم فكلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح

(1)نظر: معارج التفكر: (359/12 - 360)، ولا خلاف بين رواية الإمام الطبري، وغيره من المفسرين، فاليهود والنصارى تشابهت أقوالهم في هذه الفرية، وسياق الآيات يحتمل أقوال هؤلاء وافتراءاتهم على الله تعالى.

(2) ولا يخفى على أحد في أن هذا التناسب في طرق المعالجة والرد على هذه الافتراءات يمثل رداً على القائلين بعدم وجود التناسب بين السور أو المانعين للمناسبة بين سور القرآن الكريم كالعز بن عبد السلام، الشوكاني ينظر: الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز (221)، دار البشائر الإسلامية، ط1، 1987م، البرهان في علوم القرآن (37/1)، فتح القدير (72/1).

(3) الكشاف (41/2)، ينظر: مفاتيح الغيب (94/5)، أنوار التنزيل (315/1).

مآربكم الدنيوية والأخروية)[1]. والتعقيب بعد هذه الآيات ربط بين العبادة الخالصة، وإفراد الألوهيةلله وحده، وكثيراً ما ينبه القرآن الكريم لهذا التلازم بين إخلاص الاعتقاد والعبادة والطاعة لله وحده وهي من مقتضيات التعريف بحقيقة وحدانيته تعالى.

فالذي يبدع هذا الوجود من العدم لا تكون به حاجة إلى الولد. والولد إنما هو امتداد الفانين، وعون الضعفاء، ولذة من لا يبدعون!. والله سبحانه وتعالى قوي لا يحتاج إلى سند، حيّ حياة أبدية سرمدية لا تنقطع..فما الداعي لطلب الولد ؟ وما الحاجة إليه ؟ ثم كيف يكون له سبحانه ولد ؟ ولم تكن له صاحبة-إي زوج- ؟ ولو كانت له صاحبة لكانت إلهة مثله...إذ أن التوالد لا يكون إلا بين المتماثلين...والله – سبحانه– منزه عن المثل والشبيه..وقوله تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ) تقرير لهذا الحكم وتوكيد له..إذ أن الخالق لكل شيء لا يناسبه ولا يماثله شيء من مخلوقاته، وإذن فلا يصح أن ينفرد بالخلق سواه[2].

ولما ذكرت الآيات كل هذه الضلالات لمشركي مكة وأهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى أقترن التنزيه في هذه الآياتب بإبداع السموات والأرض، في حين أقترن في الآية السابقة من سورة يونس بملك السموات والأرض، عندما كان الافتراء مختلفاً، بينما هنا في هذه الآيات عندما كان الافتراء مبالغاً فيه، أضافت الآيات على الإبداع لعناصر الطبيعة من السموات والأرض، بخلقه لكل شيء، وعلمه بكل شيء.

وفي مقام آخر عرض القرآن الكريم عدداً من المشاهد الطبيعية لتشمل عناصر الطبيعة وظواهرها، وإرتباط هذه الظواهر مع تلك العناصر المعروضة للأنظار والموجودة في الواقع. لتكون شاهداً على وحدانية الله، دالة على سخف هذا التصور وتهافته.

قال تعالى: ﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٤ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴾[3].

ففي فرض جدلي راح القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة يدحض فرية

---

(1) روح البيان (99/3).
(2) ينظر: التفسير القرآني للقرآن الكريم (253/7).
(3) سورة الزمر: 4 – 5.

اتخاذ الله ولداً: فالله لو أراد أن يتخذ ولداً-كما يزعم هؤلاء الضالون – لاختاره سبحانه، ولخلقه على ما يشاء، لا أن يختاره هؤلاء الضالون ولكنه– سبحانه – نزه نفسه عن أتخاذ الولد[1].

والآية بشأن الذين زعموا أن لله ولداً، وفي مقدمتهم المشركون الذين زعموا أن الملائكة أو إناث أوثانهم بنات الله[2]، ثم يعم النص كل الذين زعموا أن لله ولداً، كاليهود والنصارى[3]. وهذا ما ذهب إليه كبار المفسرين[4].

لا يبعد في ضوء هدايات سورة الزمر، وهي التي تتحدث عن كليات عامة من أصول الدين، وفيها وردت الآية موضع البحث، لا يبعد أن يراد بها مشركو مكة أيضاً إضافة الى اليهود والنصارى، فإنهم – على الرغم من الاختلاف في مقولتهم – يجمعها أنها انحرافات وأوهام دعتهم الى زعم هذه الفرية، وان تعددت صورها.

أحسب أن الآية، إذا وضعت في سياقها، أمكن فهمها، ولم يعكر على مراد الله منها ما نراه من تشابه في الانحراف ومساواة في المقالة، من المشركين واليهود والنصارى على مر العصورولم تفصّل الآية هنا هذه المقولات، لأن السياق سياق إجمال وفي فرض جدلي لتصحيح أصل التصور الفاسد عند هذه الفروق الثلاث.

فلما كانت الآية تعم كل صور الافتراء، لم يقتصر الاقتران بتنزيه الخالق على ملكه وإبداعه للسموات والأرض كما في النصوص السابقة عليها في النزول. بل راحت تعرض حشداً من آيات الله الدالة على حقيقة الوحدانية. ومن هذه الآيات المعروضة للأنظار:

- خلق السموات والأرض وفق حقائق ثابته.
- ظاهرة تكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل.
- تسخير الشمس والقمر، وإن كلاً منهما يجري إلى مدة معلومة.

وهذه كلها مشاهد ناطقة للفطرة دالة على كمال الوحدانية والتنزيه.

وهذه اللفتة إلى ملكوت السموات والأرض، وإلى ظاهرة الليل والنهار، وإلى تسخير الشمس والقمر توحي إلى الفطرة بحقيقة الألوهيةالتي لا تليق معها أن يكون هناك ولد ولا شريك، وآية الوحدانية ظاهرة في كل هذه المشاهد، وفي الناموس الذي يحكمها[5]. فبعد أن نزه نفسه عن عظيم مرتكبهم، ذكرت الآية أوضح شيء وأدل شاهد...

والآيات مع ما أضافت من مشاهد جديدة على ما سبق من مشاهد الطبيعة،

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن (3037/5).
(2) يعني الميداني رحمه الله أن المشركين يزعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله تعالى، كما في قوله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ النجم: ١٩ – ٢١.
(3) ينظر: معارج التفكر (155/12).
(4) ينظر: تفسير القرآن العظيم (46/4).
(5) ينظر: في ظلال القرآن (3038/5).

بينت حقيقة لم تذكر في النصوص السابقة عليها، وهو ظاهرة التكوير، في حين أن الآيات الكثيرة كانت تقرر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل أو الغشيان الذي عبر به في قوله تعالى: (يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ)[1]، والمعروف أن يولج بمعنى يدخل[2] والآية جاءت تقرر حقيقه من الحقائق القرآنية المادية الملحوظة –وسأقف معها قليلاً لبيان دلالتها ووجه تعلقها بالتكوير المراد في الآية-.

وقوله تعالى: (يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ) أدل على استدارة الأرض ودورانها، فإن التكوير في اللغة هو اللف على المستدير كتكوير العمامة، وهو إما أن يكون بدوران الشمس في فلكها الواسع حول الأرض وأما باستدارة الأرض حول الشمس، وهو الذي قامت الدلائل الكثيرة في علم الهيئة على رجحانه[3]. وهذا المعنى هو الذي رجّحه الإمام الطبري، إذ يقول في تفسيره لقوله تعالى: (إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ)[4]. (والصواب من القول عندنا في ذلك: أن التكوير: جمع الشيء بعضه إلى بعض، وذلك كتكوير العمامة، وهو لفها على الرأس، وكجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله (كُوِّرَتْ): جمع بعضها إلى بعض، ثم لفت فرمي بها، وإذا فعل ذلك بها ذهب ضوؤها)[5].

وهذا صريح يؤكد أن الأرض كروية، لأن كلاً من الليل والنهار يلتف على الآخر مستديراً كما تلتف العمامة حول الرأس مستديرة، فالتكوير لا يكون إلا التفافاً حول شيء كروي، فتكوير الليل على النهار إذن وتكوير النهار على الليل يصف ويصور في دقة وبلاغة أن الأرض تدور فيلتف عليها الظلام والنور متتابعين[6]. وهذا الدوران واللف ملحوظ في هدي المعنى اللغوي للتكوير.

وبهذا تكون الآيات قرنت بين عقيدة التوحيد والتنزيه وبين مشاهد الطبيعة المنظورة كما بينت حقيقة كروية الأرض التي أشارت إليها آيات اخرى في مواضع

(1) سورة الأعراف: 54، ينظر: الآيات: سورة فاطر 13، سورة لقمان 29، سورة الحديد 6، سورة آل عمران 27.
(2) ينظر: الكشاف (422/1).
(3) ينظر: تفسير المنار (454/8)، مفردات الراغب (665)، لسان العرب (156/5).
(4) سورة التكوير الآية: 1.
(5) جامع البيان (64/15). ينظر الكشاف (85/4)، مفاتيح الغيب (337/8)، أنوار التنزيل (320/2)، (320/2)، الجامع لأحكام القرآن (206/15)، البحر المحيط (399/7) روح المعاني (304/9)
(6) ينظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم (683). وآيات الله في الافاق – محمد أحمد العدوي (140) مطبعة المنار، مصر، ط11352هـ - 1933م.

اخرى من القرآن الكريم[1]. وهذا النص الأكثر صراحة في تقرير كروية الأرض، ولا يحتاج معه إلى تأويل.

وهذا التفسير يلقي بظلاله على سر التعبير القرآني في اختيار التكوير دون الإيلاج في هذه الآيات، لتكون حقيقه قرآنية ضمن هذه المشاهد تنفي هذه الفرية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى مناسبة هذه اللفظة لسياق الآيات التي وردت فيها، حيث أن (التكوير بهذا المعنى أكثر دلالة من الإيلاج على صفتي الوحدانية والقهر، وتمام القدرة وكمال الأمر)[2]. وهذا نوع من المناسبة بين أسماء الله والآيات التي ختمت بها.

إنّ الاقتران بين ظاهرة الليل والنهار، وبين تسخير الشمس والقمر، في هذه الآية يدل على أن نوعاً من الترابط موجود في الواقع.

كما أن البحث العلمي في الكون (قد أثبت الترابط بين الشمس والقمر والجريان، ومعلوم أن الجريان فيه حركة دوران الشيء حول نفسه، ومسير الشيء في مَسيرٍ. فالليل والنهار ظاهرتان لنظام سير الأرض بالنسبة إلى الشمس)[3].

وإبرازاً لهذا التلازم، وإظهاراً لواقعية هذه المشاهد في سيرها وفق النظام الذي يحكمها جاء التسخير معطوفاً على التكوير لوجود رابط بينهما دعت المناسبة إليه، يقول ابن عاشور (وعطفت جملة (وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ) على جملة (يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ) لأن ذلك التسخير مناسب لتكوير الليل على النهار وعكسه فإن ذلك التكوير من آثار ذلك التسخير)[4]. فذلك الارتباط الموجود في الواقع اقتضى هذا العطف بين المشاهد.

ومن الحقائق العلمية الدقيقة التي توصل إليها علماء الفلك في العصر الحديث حول هذه الارتباطات ودورة الأرض في المجموعة الشمسية:

دوران الأرض حول الشمس بسرعة خمسة وستين ألف ميل في الساعة وتتولد

---

(1) ينظر: الآيات: 54 من سورة الأعراف، 61 من سورة الحج.

(2) نظم الدرر (420/6). وقهار: غلاب لكل شيء. ومن الأشياء آلهتهم فهو يغلبهم، فكيف يكونون له أولياء وشركاء، ينظر: الكشاف (84/4)

(3) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل.عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (16)، دار القلم، دمشق، ط، 1409هـ، وكما استدل القرآن الكريم بالحركة التي يمثلها (الأفول)،على حدوث الكواكب، استدل عليه أيضاً (بالتسخير) وقرن هذا التسخير في هذه الآيات (بالجري) الذي هو تعبير عن السير بسرعة، وواضح أن ذلك فيه استدامه واستمرارية لهذا التسخير حين يكون الفعل مضارعاً، كما في الآية موضوع البحث. ينظر: مفاتيح الغيب (324/1).

(4) التحرير والتنوير (329/9).

من هذه الدورة الفصول الأربعة، وهي تميل أثناء دورانها حول الشمس بمقدار 5،23° لتوزيع الفصول.

وتسير الأرض مع المجموعة الشمسية كلها بمعدل عشرين ألف ميل في الساعة نحو برج الجبار، ولم يتوصل العلم الحديث إلى الآن إلى ما يترتب على هذه المسيرة من أوضاع وهيئات، ولا بد أن له ارتباطاً بنظام الكون بشكل ما[1]. وهذا دليل على واقعية القرآن في عرضه لمشاهد الطبيعة.

وفي كل يوم يكشف الإنسان عن جديد من دلائل الوحدة في تصميم هذا الكون. ويكشف عن حق ثابت في هذا التصميم لا يتقلب مع هوى، ولا ينحرف مع ميل ولا يتخلف لحظة ولا يحيد. فسبحان القائل: (سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) [2].

على هدي مما سبق يمكن القول أن القرآن والعلم يتركان أثراً واحداً من عظمة الله وتنزيهه وتمجيده، كما أن عرض الحقائق العلمية الدقيقة في ثنايا آيات العقيدة فيها دلالة واضحة، على أن الجانب العملي يأتي على هامش عقيدة التوحيد. وإن هذه الحقائق تمثل شاهداً على كمال الوحدانية، كما أنها تمثل رداً على كل صور الانحراف في كل زمان وفي كل مكان. ما دامت هذه المشاهد باقيه في نظر الإنسان وفهمه على تلك الحقائق الثابتة.

ولاسيما أن هذه الآيات وأمثالها في القرآن الكريم كان منظوراً إليها من جهة العقائد فقط، ولم يكن أحد ينظر إليها من جهة الحقائق العلمية التي تحملها هذه الآيات.

وقد تعرض القرآن الكريم في آخر موضع من السور المكية لما كانت الجاهلية تعتقد من نحو زعمهم أن الملائكة بنات الله، فراح يدحض هذه الفرية، قارناً بين تنزيه الخالق وآثار الحقيقة الإلهية في الطبيعة، مقرونة بالنعم الإلهية، في هذه الطبيعة تذكيراً لهم بهذه النعم.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَٱلَّذِى

(1) للمزيد من معرفة هذه الحقائق بالتفصيل ينظر: كتاب الكون والإعجاز العلمي للقران الكريم للدكتور منصور حسب النبي (157) وما بعدها، ط. دار لفكر العربي. كتاب الطبيعيات والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر(113) فما بعدها، ط، الدار السعودية للنشر.

(2) سورة فصلت: 53.

نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ)[1].

تعرضت هذه الآيات الكريمة لما كان يزعمه عرب الجاهلية خاصة، في هذا السياق، قولهم المزعوم أن الملائكة بنات الله، فاقترنت الآيات بمظاهر ومشاهد ربوبيته في الطبيعة المنظورة، لأنهم يؤمنون بربوبية الله عز وجل في خلقه السموات والأرض، لكنهم يجعلون له شركاء في ربوبيته بشؤون حياتهم، كالنصر، والرزق، والأمن، ومنح الذرية، ونحو ذلك[2].

والآيات وردت في تقرير ما كانوا يعترفون به، وهو اعتراف تام منهم بوصفه سبحانه بالقدرة والعلم وواضح ذلك من قوله تعالى (لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ) فكفرهم بعد ذلك إتباع ضلال على علم.

وهذا التوجيه للآيات يتفق مع منهج القرآن الكريم، في تركيزه على توحيد الربوبية في العهد المكي – كما سبق بيانه – بإعتبار أن ربوبية الله في السموات والأرض هي القدر المشترك بين المسلمين وغيرهم، لذلك نجد الآيات بدأت بذكر ذلك، من أجل محاصرة الانحرافات الاعتقادية ومواجهتها والتصدي لها، ومادتها في هذه المعالجة هي مشاهد الطبيعة.

ومن مظاهر ربوبيته في الطبيعة التي عرضتها الآيات لمشاهد متعددة ومتنوعه:

جعل الأرض مهداً أو مهاداً[3] وجعل فيها طرقاً صالحة يسلكها البشر.

إنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض الميتة التي لا نبات فيها، بإخراج النبات.

خلق الأزواج بكل أصنافها، والفلك التي هي مركب البحر، والأنعام التي هي مركب البر ووسائط لنقل الإنسان من مكان إلى مكان.

---

(1) سورة الزخرف: الآية 9 – 16.

(2) ينظر: معارج التفكر: (703/12).

(3) المهد والمهاد: الممهد الموطأ، ومهدت لك كذا هيأته وسويته، وامتهد السنام أي تسوى فصار كمهاد أو مهد. ينظر: المفردات، للأصفهاني (531)، لسان العرب(541/3) مادة "مهد".

والذي يبدو أن ذكر خلق الأزواج في هذا السياق يعد مشهداً من مشاهد الطبيعية التي تتجلى فيها حقيقة الوحدانية، يلفتنا إليها القرآن الكريم ليرد بها هذه الفرية، وهذا ما اثبتته الدراسات الحديثة، يقول صاحب كتاب (مع الله في السماء): (فنعم الخالق العظيم الذي خلق الأزواج من كل شيء... ومن الأشياء التي تحيط بنا من ماء وهواء وسحاب... وإنها لوحدة تشي بوحدة اليد المبدعة. كذلك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية. تتألف من نجمين مرتبطين يشد كلاهما الآخر، ويدران في مدار واحد كأنما يوقعان على نغمة رتيبة)[1].

ولهذا السبب وردت هذه الآية في هذا السياق ،إظهاراً لحقيقة الوحدانية، كما أن القرآن لا يكتفي بالتعبير عن المشاهد بالألفاظ الدالة عليها حسب بل أنها كما تبين، قد تفهم من القرائن وسياق الآيات. فالتزاوج بين كل شيء أمر نوّه عنه القرآن قبل أن تبرهن عنه القرائن العلمية الحديثة بقرون بعيدة.

وهذه المشاهد المذكورة في هذا السياق هي أمثلة من مظاهر ربوبيته وأثرٌ من آثارها في الطبيعة ودلالات على عظمة الله، وتنزيه عما لا يليق به من نعوت.

قال الزمخشري: (وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا) متصل بقوله(وَلَئِن سَأَلْتَهُم) أي: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءاً فوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى قوله (مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا) أن قالوا الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءاً له وبعضاً منه، كما يكون الولد بضعه من والده وجزءاً له... (لَكَفُورٌ مُّبِينٌ) لجحود للنعمة ظاهر جحوده؛ لأنّ نسبة الولد إليه كفر، والكفر أصل الكفران كله)[2].

ناسب أن يكون وصف الإنسان بعد هذه الفرية بالكفر(إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ) يدل على استنكار ما زعموه بأنه كفر شديد. والمبين الموضح كفره في أقواله

---

(1) أحمد زكي (174)، القاهرة، مطبعة الهلال، د.ت.

(2) الكشاف: (184/4)، ينظر: أنوار التنزيل (370/2)، الجامع لأحكام القرآن (57/16)، وقد اتفقت عبارات المفسرين قديماً وحديثاً بالمراد بالقائلين بهذه الفرية بأنهم عرب الجاهلية ولم أعلم بأن أحداً منهم قد خالف ذلك. وللوقوف على أقوال المفسرين ينظر: جامع البيان (584/6)، تفسير القرآن العظيم (236/3)، الجامع لأحكام القرآن (57/16)، البحر المحيط (8/8)، أضواء البيان (233/7)، روح البيان (477/8)، محاسن التأويل (270/8) تيسير الكريم الرحمن (810)، في ظلال القرآن (3177/5)، التحرير والتنوير (167/10).

الصريحة في كفر نعمة الله[1].

ومناسبة ذكر كلمة (مُّبِينٌ) في هذا الموضع دون غيره لأنهم (أبانوا عن كفرهم ومعتقدهم وأظهروه ولأن الله أيضاً أبان عن ذكر ذلك وذكره. فالله أبان عن معتقدهم، وهم أبانوا عن ذلك)[2] فكان كفرهم ظاهراً.

ومن تأمل صنيع القرآن الكريم، وجده إذا ذكر الإنسان، أتبعه بوصف ذم[3]. هذا سوى وصفه بالصفات السلبية وكثرة الجدل، وبالعجل. وحين أخبر عن تكريمه قال(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ). وذلك يشير إلى إن الله لم يكرم الإنسان – وتلك صفاته – إلا من حيث بنوته لآدم[4].

نلحظ مما تقدم أن اختلاف الفرية في الآيات وكذا اختلاف القائلين بها باعتبارها صدرت عن عرب الجاهلية، دون غيرهم، جعل المشاهد المعروضة تختلف تبعاً لذلك، فأضافت الآيات مالم يذكر هناك من مشاهد مقرونة بالنعم الإلهية ليردهم الحقيقة التي يقرون بها، والمنظورة في واقع حياتهم.

فإن مضمون السؤال في أول الآيات في قوله تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم) يرتكز على وصف الأرض، وما فيها من الطرق التي بها، وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به، والفلك في البحر، ففضل الله عليهم ظاهر، يستشعرون به، كما أنه يمثل طرق عيشهم، لكي يربطوا بين هذه النعم وبين المنعم، لا أن يجحدوا بها، ويجعلون له شركاء في ذلك.

كما أن هذا الموضع المتأخر في النزول عن المواضع السابقة، هو الذي حدا بجعل هذه المشاهد متعددة، كون النصوص المتأخرة كثيراً ما تأتي بأضافات جديدة ومشاهد جديدة، فكانت هذه الآيات هي آخر موضع يتحدث عن هذه الافتراءات في العهد المكي. وبذلك تكون النصوص السابقة من سورة يونس، وسورة الأنعام، وسورة الزمر، وسورة الزخرف قد عالجت كل الافتراءات من مشركين ويهود ونصارى [5]. كون هذه القضية تتعلق بالإنسان في كل زمان وفي كل مكان، كما

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير (177/10).
(2) من أسرار البيان القرآني (106).
(3) ينظر: الآية 34 سورة إبراهيم، الآية 67 سورة الإسراء، الآية 6 سورة العاديات، الآية 2 سورة العصر.
(4) ينظر: جواهر البيان (54)، كما تنبه لهذه المسألة – على تفاوت في عرضها -، من المفسرين الرازي، والقرطبي لكن ليس بهذه الدقة وهذا التوجيه، ينظر: مفاتيح الغيب (128/6)، الجامع لأحكام القرآن (10/9).
(5) ولا دليل لمن قال أن القرآن المكي لم يتصد لإبطال عقائد أهل الكتاب، والآيات السابقة التي تم =

تتعلق بالجاهليات كلها، التي ليست لها فترة زمنية. فكانت مادتها في المعالجة هي المشاهد الطبيعية بعناصرها وظواهرها وما فيها من حقائق ولذلك عرضت مشاهد مختلفة باختلاف الافتراء، وهذا التنويع في المجالات التي تظهر فيها آثار ومظاهر حقيقة الإلهية في هذه الطبيعة المنظورة، فيه دلالة على أن الكل يجري بمشيئته وقدرته، والكل بإبداعه، وتسخيره، والكون كله مخلوق وفق حقائق ثابته لا مجال فيه للصدفة. وأن حقيقة الوحدانية ظاهرة في هذه المشاهد.

وكما قرن القرآن الكريم نفي اتخاذ الله الولد، بإبداع الله السموات والأرض وإيجادهما على غير مثال سابق، وقرن تلك الفرية بملكية الله للسموات والأرض وهيمنته عليها، وتدبيره إياهما[1]. ففي مقام آخر جمع بين إبداع السموات والأرض، وملكيته لهما في سياق واحد.

فقال سبحانه: (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[2].

لقد توقف البيان الصريح عن معالجة الموضوع-بأسلوب التأثير- بعد النص الخامس، حتى جاء العهد المدني، وكان من افتراء اليهود والنصارى وهم سكان المدينة، من اتخاذ الله-سبحانه – من ولد، فذكر افتراء هؤلاء في أول سورة في العهد المدني. ولئن تعددت عبارات المفسرين، في بيان المراد بالقائلين بهذا الافتراء، فمنهم من قال خاص بالنصارى[3]. ومنهم من قال يعم اليهود والنصارى وأهل الجاهلية[4]. ومنهم من قال أهل الكتاب من اليهود والنصارى[5].

وإن مفتاح فهم الآية، في كل زمان ومكان، هو قوله الله تعالى: (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ) بعد تأمل ما قبلها وما بعدها، فإن هؤلاء هم أصحاب هذه الفرية، وما زالوا يعتقدون بهذا الاعتقاد المنحرف الى يومنا هذا، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يمكن الاستعانة بالسياق الخارجي وهو مكان نزول الآية، في البيئة المدنية، حين كان هؤلاء

=

دراستها في هذا المبحث تثبت غير ذلك.

(1) الآية: 68 من سورة يونس، والآيتين 100 – 101. من سورة الأنعام.
(2) سورة البقرة: الآية 116 – 117.
(3) ينظر: الطبري (414/1)، القرطبي (393/1).
(4) ينظر: الزمخشري (139/1)، البيضاوي (83/1)، ابن كثير (174/1)، الشنقيطي (101/1)، البروسوي (269/1)، القاسمي (423/1)، سيد قطب (105/1)، تفسير المنار (50/2).
(5) ينظر: البقاعي (387/1).

سكانها.

أحسب أن الآية إذا وضعت في هذا السياق، أمكن فمهما، ولم يعكر على مراد الله فيها ما نراه من انحراف العقيدة عند اليهود والنصارى على مر العصور. وهم الذين أخبر القرآن عنهم بتشابه قلوبهم في الكفر والضلال، كما في قوله تعالى: (تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يُوقِنُونَ)[1]، كما اشتبهت أقوالهم التي قالوها. يضاف إلى ذلك اقتران اليهود والنصارى في معظم الآيات، ولا سيما في هذه الآيات – موضوع البحث – وفي سياقها، مما يدل على اشتراك في المواقف المذمومة التي أعلنت العداء للاسلام في ذلك الوقت، ولا تزال هي التي تعلن العداء وتشن الحروب المتتالية على بلاد الاسلام. فإن هذا الانحراف وهذا العداء والمواقف المذمومة التي تجمع بين هاتين الفرقتين لها جذورها التاريخية[2].

فالسياق بدأ بذكر أقوالهم ومزاعمهم أنّ دخول الجنة موقوف على من كان (هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ) ثم ثنّى بحكاية ما يقوله بعضهم لبعض، فلننظر في هذه الآيات التي وردت قبل هاتين الآيتين الآنفتي الذكر مباشرة، لتبين لنا المراد بالقائلين بالافتراء ولنطمئن إليه.

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[3].

وقال تعالى: (وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ)[4].

وهذا السياق النصي الداخلي المرتبط بسابق نظم الآية فيه إشارة إلى أن الذين أخبر الله

---

(1) سورة البقرة: من الآية 118. وفي القرآن الكريم عن صفات يهود وخصالهم وأفعالهم الظاهرة والباطنة حديث طويل جداً وما في هذه الآية من صفاتهم سوى القليل، ولن نتتبع ذلك في القرآن أو في هذه الآية، فليس ذلك محل بحثنا، وإنما نقف عند الآية موضع البحث التي تبين الشرك الخفي، والانحراف في تصور الألوهية عندهم.

(2) والتاريخ القديم والحديث خير شاهد على مواقف هؤلاء العدائية، وما كان لليهود أن تقوم لهم قائمة لولا دعم أمريكا السياسي والعسكري لها، ولولا الدعم الألماني لها بالمال، ولولا الدعم الفرنسي لها بالتكنولوجيا. والواقع شاهد على أن اليهود والنصارى آذوا المسلمين ونالوا منهم، ولن يعجز المراقب للأحداث أن يسوق من الشواهد على هذا ما يؤكد هذه الحقيقة.

(3) سورة البقرة: 111.

(4) سورة البقرة: 113.

عنهم في الآية التي تعرض هذه الفرية، هم المذكورون في الآيات التي قبلها. واعتقد أن هذا هو الصحيح وإن كان بعض المفسرين على خلافه، لأن السياق يؤيد ذلك بقوة[1].

قال الزمخشري: (سُبۡحَٰنَهُۥ) تنزيه له عن ذلك وتبعيد لا (بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) هو خالقه ومالكه، من جملته الملائكة وعزير والمسيح.

(كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ) منقادون، لا يمتنع شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد... ويجوز أن يراد كلّ من جعلوه لله ولداً له قانتون مطيعون عابدون مقرون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم...(بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ) من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلهما، أي بديع سمواته وأرضه. وقيل: البديع بمعنى المبدع)[2].

ففي الآيتين الكريمتين: حكاية بأسلوب تنديدي للذين يقولون إن الله اتخذ ولداً، تنزيهاً عن ذلك، فهو الذي أبدع السموات والأرض وخلقهما من العدم على هذا النظام البديع وهو الذي يخضع له كل ما فيهما. وهو الذي يقول للشيء إذا أراده كن فيكون. فلا يكون إلا منزهاً ومستغنياً عن الولد والشريك والند[3].

ثم يأتي التعقيب على هذه المشاهد التي تظهر حقيقة الوحدانية (وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا

(1) إن المتتبع لأقوال المفسرين في هذا الموضع وفي غيره من المواضع السابقة، يلحظ اختلافهم في تعيين أصحاب هذا الافتراء، أو عدم بيانه أصلاً. والذي يبدو أن سبب ذلك يعود إلى عدم ملاحظة الوظيفة الترجيحية للسياق عند بعضهم، أو الأسلوب الذي عرضت به الآيات هذه الفرية، حيث أن جميع المواضع في هذا المبحث لم تبين أصحاب هذه المقولة ولم تسمهم. وأن جميعها بدأت بـ(وَقَالُواْ) و (وَجَعَلُواْ)، فقد أنصف القرآن الكريم من كان موحداً في هذه الفئات الثلاث، واقتصر هذه الضلالة على من قال بها فقط.

(2) الكشاف: (139/1). ومن الجدير بالذكر أن لفظة (ﮂ) لم تأت في القرآن الكريم إلا مرتين الأولى في سورة الأنعام: الآية 101، والثانية هذه الآية. والآيتان في موضوع التنزيه، فاختص هذه اللفظة في هذه المواضع دون غيرها. والسبب في ذلك أن معنى بديع كما يقول الاصفهاني: الإبداع إنشاء صنعته بلا إحتذاء وإقتداء منه وقيل ركْيةٌ ؟ بديع أي جديدة الحفر، وإذا استعمل في الله فهو إيجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ولازمان ولا مكان وليس ذلك إلا لله والبديع يقال للمبدع نحو قوله ::(بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)سورة الأنعام:101، سورة البقرة 117. المفردات (48) مادة "بدع".

(3) ينظر: التفسير الواضح (56/1).

فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) لما ذكر ما دل على الاختراع ذكر على ما دل على طواعية المخترع وسرعة تكوينه، ومعنى قضى في الآية أراد أي: إذا أراد إنشاء أمر واختراعه[1].

فإن أفعال الله تبارك وتعالى لاتقاس بأفعال المخلوقين، وما أراد الله وجوده إنما هو موجود في علمه تعالى، وإن كان معدوما في الخارج، فإذا أراد الله تعالى إبراز ذلك الموجود إلى الخارج أمره بالتكوين فتكوّن[2].

فالإيتان تنفيان العقيدتين المتلازمتين في المسيحية، بنوة السيد المسيح لله، وخلقه السموات والأرض[3]. كما تنفي عقيدة اليهود، بنوة عزير. فكان الرد على هذا الاعتقاد المنحرف والتصدي له رداً جلياً، وبينت الآيتان أن الله سبحانه قادر على أن يخلق كل شيء من غير حاجة الى أحد من العالمين، وإنما يقول للشيء (كُن فَيَكُونُ).

ولهذا السبب جمع القرآن بين إبداع الله للسموات والأرض، وملكيته لهما في سياق واحد، وقد مر معنا أن "البديع" يعني الخالق المنشئ وثم جاءت الخاتمة تبين إرادة الله تعالى وأمره بالتكوين.

فأضافت الآيات مالم يذكر في النصوص السابقة عليها في نجوم التنزيل. تبعاً لنوع الفرية المتلازمة في الديانة المسيحية وتعدد القائلين بها من اليهود والنصارى. والتصدي لها بعرض المشاهد الطبيعية. فالقرآن كان يرمي من تعدد هذه المشاهد الضخمة الكثيرة المتباينة الى تصحيح ما اشتط من ذلك الفكر المنحرف، وإلى إنقاذ الإنسان من سخف هذا التصور.

وهكذا ترابطت النصوص في القرآن الكريم كله حول هذه الجزئية من هذا الموضوع ترابطاً تاماً في معالجة هذا الموضوع، من ناحية عرض الصور المتعددة لهذه الفرية، ومن ناحية إقترانها بمشاهد الطبيعة السماوية والأرضية، وتنويع هذه المشاهد بين العناصر والظواهر. وتلوين في الأسلوب التأثيري كذلك باعتبار أن الدعوى-البنوة لله سبحانه – أتخذت لها عدة صور في عقائد الجاهليات المختلفة وبقايا الأديان المحرَّفة، فكان عرض المشاهد المقترنة بها، مشاهد مختلفة مع كل دعوى

---

(1) ينظر: البحر المحيط (534/1).
(2) ينظر: شرح العقيدة الواسطية ابن تيمية –شرح: محمد بن صالح بن عثيمين، تحقيق: سعد بن فواز الصميل (331/1). دار ابن الجوزي، ط2، 1415هـ، جواهر الأفكارومعادن الأسرار، لابن= بدران، (79)، محاسن التأويل (425/1)، وقد مر معنا أن خلق آدم استثنى من بين سائر المخلوقات، وخص بهذه الميزة العظيمة وهي من مظاهر تكريمه.
(3) ينظر: العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد بن طاهر التنير البيروتي دراسة وتحقيق: د. محمد عبد الله الشرقاوي (121)، دار الصحوة للنشر.

وكل فرية. دعت المناسبة لذكرها في سورها، كما دعت إلى تنويع المشاهد المقترنة بها. فكانت تكاملية النصوص فيما بينها من جميع النواحي.

وبهذا نجد أن القرآن الكريم لم يعالج قضية الشرك والتوحيد في عقائد مشركي العرب فحسب. إنما عالجها كذلك في عقائد أهل الكتاب المحرفة عن التوحيد الخالص من أجل نقل الإنسان نقله فكرية كبيرة، من عالم الشرك الى عالم التوحيد وهذا هو الأصل في مفهوم القرآن. من خلال عرض المشاهد الطبيعية وآثار القدرة في هذه المشاهد في الحقيقة والواقع. وبهذا الأسلوب –الاقتران– يكون القرآن الكريم قد نفى الفرية عن الله تعالى ثم أثبت خصائص الألوهية، من أجل تقرير عقيدة التوحيد للألوهية والله –سبحانه– هو المتفرد بهذه، وأن كل شيء وكل حي داخل في نطاق العبودية له سبحانه بلا شرك.

وهدف القرآن من ذلك كله تصحيح انحراف العقيدة في الله، لما يترتب على هذا الانحراف من آثار في السلوك العملي، وبيان أن الفساد العام ينشأ أبتداءً من الانحراف العقدي عن دين الله الصحيح.

الفصل الثالث

حقيقة القدرة الإلهية

الفصل الثالث
حقيقة القدرة الإلهية

مدخل..

كما عرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة وجعلها مجالاً تتجلى فيه حقيقة الوحدانية فإنه يعرض هذه المشاهد لتكون شاهداً على حقيقة القدرة الإلهية ومجالاً تتجلى فيه هذه الحقيقة، ولكن الإنسان قد ينسيه ذلك طول التكرار، وتغفله الألفة عن استشعار ذلك، لذلك حرص القرآن الكريم على أن يوجه القلوب والأنظار للتفكر في خلق الله، وتدبيره مشاهد الطبيعة التي هي أثر من آثار القدرة الشاملة التي لا يعجزها شيء قال تعالى: (تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ)[1].

والقرآن الكريم إذ يعرض هذه المشاهد يهدف إلى التعريف بهذه الحقيقة، ويرمي إلى تجديدها في النفس الإنسانية، فتحرك الأحاسيس وتستجيش الوجدانيات، وتبعث على التأمل من جديد في هذه الطبيعة المشهودة، وما فيها من عناصر وظواهر تعد مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية، وقد عرض القرآن الكريم لهذه الحقيقة التي تشهد لها الطبيعة في مواضع كثيرة، وقد نوّع في عرضه لهذه المجالات في هذه الطبيعة. ففي بعض المواضع يعرض مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية في سياق واحد، وفي مواضع أخرى يعرض مشاهد الطبيعة الأرضية خاصة، وأحياناً يعرض الظواهر الطبيعية. فكانت مباحث هذا الفصل كالآتي:

المبحث الأول: الطبيعة السماوية والأرضية.
المبحث الثاني: الطبيعة الأرضية.
المبحث الثالث: الظواهر الطبيعية.

المبحث الأول
المشاهد السماوية والأرضية

في مواضع متعددة يلفت القرآن الكريم الأنظار إلى مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية. ومن المشاهد الأرضية مشهد الماء وتنوعه بين العذب السائغ

---
(1) سورة الملك: 1.

والملحالأجاج، فهما يفترقان لا يلتقيان بينهما حاجز بتسخير الله لخدمة الإنسان. يلفتها إلى النعم المتنوعة في هذه المشاهد، كالحلية التي تؤخذ منها اللؤلؤ والمرجان، والطعام الذي هو اللحم الطري، واستخدام السفن بالسفر والتجارة، ثم يعرض مشاهد أخرى تتجلى فيها حقيقة القدرة الإلهية، مشهد الليل والنهار وإيلاج أحدهما بالآخر في نظام دقيق لا يختلف مرة ولا يضطرب ومشهد الشمس والقمر وجريانهما لوقت معلوم وأن عرض هذه المشاهد المختلفة من عناصر وظواهر يدعو للتدبر من أجل إدراك هذه الحقيقة التي أبدعت كل ذلك حقيقة قدرته تعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[1].

قال الزمخشري: (ضرب البحرين: العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر، ثم على سبيل الأستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمه وعطائه (وَمِن كُلٍّ) إي: ومن كل واحد منهما (تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا) وهو السمك (وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً) وهي اللؤلؤ والمرجان (وَتَرَى ٱلْفُلْكَ) في كل (مَوَاخِرَ) شواق للماء بجريانها يقال: مخرت السفينة الماء...(مِن فَضْلِهِۦ) من فضل الله ولم يجر له ذكر في الآية، ولكن فيما قبلها، ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه. وحرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل، كأنما قيل: لتبتغوا، ولتشكروا)[2].

ومع إجلالنا لفضل الزمخشري وعلمه فإننا لا نوافقه في تفسير الآية في قوله: (ضرب البحرين: العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر) وبمثل قوله قال البيضاوي في تفسيره[3]. إذ إن التفسير بعيد ولا دليل عليه فان سياق الآية ينافي ما

---

(1) سورة فاطر: 12-13.
(2) الكشاف (459/3).
(3) ينظر: أنوار التنزيل (269/2)، وهذا القول للبيضاوي يعد من متابعاته الكثيرة للزمخشري في هذا الموضع وفي غيره، وقد مر معنا في مواضع متعددة من هذا البحث مثل هذه المتابعات.

ذكراه، كما أن التعقيب على الآية، والآية التي لحقتها تدل دلالة واضحة على أن الآية في سياق عرض حقيقة القدرة الإلهية، التي تتجلى في هذه المشاهد التي عرضتها الآيتان. فضلاً عن أن المحققين من المفسرين لم يقولوا بذلك[1].

ومن أجل إظهار حقيقة القدرة الإلهية عرضت الآية الكريمة مشهد الماء في البحر ونفي الاستواء بين العذب والأجاج، وأنهما يفترقان من هذه الناحية ويلتقيان من ناحية السفر والتجارة، والانتفاع باللحم الطري والحلي واستخدام الماء والسفن في كليهما.

قال الرازي: (إن البحرين يستويان في الصورة ويختلفان في الماء، فإن أحدهما عذب فرات والأخر ملح أجاج، ولو كان ذلك بإيجاب لما اختلف المتساويان، ثم إنهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة، فإن اللحم الطري يوجد فيهما، والحلية تؤخذ منهما، ومن يوجد في المتشابهين اختلافا ومن المختلفين اشتباهاً لا يكون إلا قادراً مختاراً. وقوله: (وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ) إشارة إلى عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ إرادته)[2]. مع أن الآية صريحة بأن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحار العذبة والمالحة سواءَ بسواءَ، إلاّ أن بعض المفسرين قصره على البحار المالحة فقط دون العذبة، وهم معذورون في ذلك بحكم معرفتهم وقتها. فالإمام الطبري عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُوَٱلۡمَرۡجَانُ ﴾[3]. يقول: (ولا يخرج من الأنهار الحلوة حلية)[4].

ويقول ابن كثير: (والحلية إنما هي من المالح دون العذب)[5]. وقد أشار إلى هذا المعنى الزمخشري بقوله: (فإن قلت: لم قال (مِنۡهُمَا) وإنما يخرجان من الملح)؟ قلت: لما التقيا وصارا كالشيء الواحد، جاز أن يقال: يخرجان منهما، ما يقال يخرجان من البحر، ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه)[6]. والظاهر من

---

(1) ينظر: الطبري (281/6)، الرازي (228/9)، القرطبي (293/14) البروسوي (389/7) حيث قال: (واعلم أن الله تعالى ذكر هذه الآية دلالة على قدرته وبياناً لنعمته)، الخطيب الموصلي (143/7).

(2) مفاتيح الغيب (228/9) ومن الأمور المتشابهة التي لم يذكرها الرازي "رحمه الله" الفلك التي تجري في الأنهار والبحار، ينظر: روح البيان (289/7)، في ظلال القرآن (2934/5).

(3) سورة الرحمن: 22.

(4) جامع البيان (173/7).

(5) تفسير القرآن العظيم (265/4)، وعند تفسيره لقوله تعالى: (ﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟ) فسره بنفس تفسير آية الرحمن بقوله: كما قال عز وجل: ﭽﮃﮄﮅﭼ، ينظر: تفسيره (555/3).

(6) الكشاف (335/4).

كلام الزمخشري أنه جعل نسبة اللؤلؤ والمرجان في الآية الكريمة الى الماء العذب من قبيل التغليب، وقال بمثل هذا القول ابن المنير في الانتصاف، والقاسمي والخطيب الموصلي في تفسيرهما [1].

في حين نجد أن الشيخ محمد الشنقيطي يؤيد صحة خروج اللؤلؤ والمرجان من المياه العذبة كذلك. وفي هذا يقول: (واعلم أن ما ذكره الحافظ ابن كثير –رحمه الله– وغيره من أجلاء العلماء من أن قوله تعالى: (يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ) يراد به البحر المالح خاصة – دون العذب – غلط كبير لا يجوز القول به، لأنه مخالف مخالفة صريحة لكلام الله تعالى، لأن الله ذكر البحرين: المالح والعذب بقوله: (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) ثم صرّح باستخراج اللؤلؤ والمرجان منهما جميعاً بقوله: (وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)، والحلية المذكورة هي اللؤلؤ والمرجان. فقصْره على المالح مناقض للآية صريحاً كما نرى)[2]. والذي يبدو أن الذي حمل كبار المفسرين على هذا القول، ما كان شائعاً في عصرهم من استخراجها من الملح دون العذب، فقد فهموا هذه الآيات وأمثالها بما يوافق علوم عصرهم. (فليكن خروج اللؤلؤ والمرجان من النهر العذب من الآيات التي سيريها الله تعالى لعباده في الآفاق)[3].

كما تتجلى حقيقة القدرة في تسخير البحر وما فيه من النعم، وأن التعقيب بقوله تعالى: (لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) يدل دلالة واضحة، على أن المشاهد المعروضة هي مجال تتجلى فيه هذه الحقيقة المقرونة بالنعم.

قال صاحب الظلال: (لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ).. بالسفر والتجارة والانتفاع باللحم الطري والحلي واستخدام الماء والسفن في البحار والأنهار. (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، وقد يسر الله لكم أسباب الشكر وجعلها حاضرة بين أيديكم ليعينكم على الأداء)[4]. وينتقل البيان القرآني من مشهد البحار وما فيها من النعم من النعم إلى مجال آخر من

---

(1) ينظر: الانتصاف (335/4) بهامش الكشاف، محاسن التأويل (562/8) أولى ما قيل في آيات التنزيل (143/7).
(2) أضواء البيان (210/2).
(3) فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي (ص234)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط21400هـ - 1980م.
(4) في ظلال القرآن (2934/5) وهذه النعم المادية التي ذكرها سيد والمشتركة بين البحرين أشار إليها الطبري في تفسيره (281/6) والزمخشري في تفسيره (459/3).

مجالات التعريف بهذه الحقيقة مشهد الليل والنهار وإيلاج أحدهما بالأخر ومشهد الشمس وجريانهما إلى الوقت المعلوم.

قال الطبري: (يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ) الله يدخل الليل في النهار، فما نقصه من الليل أدخله في النهار فزاده فيه، والله يدخل النهار في الليل فما نقصه من النهار أدخله في الليل، قال ابن عباس: (وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ): هو انتقاص أحدهما من الأخر. قال قتادة: (وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ): زيادة هذا في نقصان هذا ونقصان هذا في زيادة هذا. (وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلࣱّ يَجۡرِي لِأَجَلࣲ مُّسَمࣰّىۚ): أجرى لكم الشمس والقمر، نعمة منه عليكم، ورحمة منه بكم، لتعلموا عدد السنين والحساب، وتعرفوا الليل والنهار، وكل منهما يجري لوقت معلوم)[1].

ثم يأتي التعقيب على هذه المشاهد المتنوعة بقوله تعالى: (ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ) تقرير حقيقة الربوبية، فالذي خلق البحرين والذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر هو (ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ) الذي لا تصلح العبادة إلا له[2]. وهي من مقتضيات التعريف الذي كانت هذه المشاهد مجالاً من مجالاته فان الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية والمالكية لما في السموات والأرض اعرفوه ووحدوه واتبعوا أمره[3].

وفي موضع آخر عرض القرآن الكريم مشاهد متنوعة في الطبيعة السماوية والأرضية مقرونة بالإنعام الإلهي، مبدوءاً بمشهد السماء وما فيها من الكواكب وما فيها من الزينة والحفظ ومشهد الأرض الممدودة وما فيها من رواسٍ وما بها من نبات وأرزاق مقدرة بمقدار معلوم تحقق فيه المنفعة، ومشهد الرياح اللواقح وإنزال الماء من السماء ثم يجعل القرآن الكريم هذه المشاهد المتنوعة مجالاً واسعاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجࣰا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنࣲ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابࣱ مُّبِينࣱ ﴿١٨﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا

(1) جامع البيان (283/6).
(2) ينظر: جامع البيان (283/6)، الكشاف (460/3)، مفاتيح الغيب (228/9) أنوار التنزيل (270/2).
(3) روح البيان (391/7).

فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾
وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾[1].

يبدأ هذا المشهد بالسماء وما فيها من البروج، وهذا المشهد يكشف عن الدقة والتقدير، كما يكشف عن حقيقة القدرة في هذا الخلق الكبير.

قال البيضاوي: (وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا) اثني عشر مختلفة الهيئات والخواص على ما دل عليه الرصد والتجربة مع بساطة السماء (وَزَيَّنَّٰهَا) بالأشكال والهيئات البهية (لِلنَّٰظِرِينَ) المعبرين المستدلين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها.

(وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ) فلا يقدر أن يصعد إليها ويوسوس إلى أهلها ويتصرف في أمرها ويطلع على أحوالها)[2].

ثم ينتقل البيان من مشهد السماء إلى مشهد الأرض التي جعلها الله مبسوطة وما عليها من رواسٍ وبيان قدرة الخالق سبحانه الذي أخرج كل نبت في هذه الأرض وفي خلقه دقة وإحكام وتقدير لايزيد أو ينقص، وقد وصفه القرآن الكريم بأنه (مَّوۡزُونٖ) ثم جعل هذا التناسق في الخلق مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية التي تعيّن كل شيء بمقدار، بحيث تتحقق فيه المنفعة التي أرادها الله لعباده. فقوله: (مَّوۡزُونٖ) وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان[3].

قال الرازي: (اختلفوا في المراد بالموزون وفيه وجوه: الأول: أن يكون المراد أنه متقدر بقدر الحاجة، وقال القاضي: وهذا الوجه أقرب لأن الله تعالى يعلم المقدار الذي يحتاج إليه الناس وينتفعون به فينبت تعالى في الأرض ذلك المقدار، ولذلك أتبعه بقوله: (وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ) لأن ذلك الرزق الذي يظهر بالنبات يكون معيشة لهم من وجهين: الأول: بحسب الأكل والأنتفاع بعينه. والثاني: أن ينتفع بالتجارة فيه، والقائلون بهذا القول قالوا:

(1) سورة الحجر: 16-22.
(2) أنوار التنزيل (547/1)
(3) ينظر: الكشاف (421/2)، البحر المحيط (438/5).

الوزن إنما يراد لمعرفة المقدار فكان إطلاق لفظ الوزن لإرادة معرفة المقدار من باب إطلاق اسم السبب على المسبب قالوا: ويتأكد ذلك أيضا بقوله تعالى: (وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ)[1]. وقوله: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)[2].

بيدا أن الاختلاف في المراد بـ(مَّوْزُونٍ) الذي أشار إليه الرازي في كلامه المتقدم يمكن أن نفهمه من سياق الآيات الكريمة، فاللاحق لها هو قوله تعالى: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ).

قال الزمخشري في تفسير الآية الكريمة (ذكر الخزائن تمثيل. والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلحة له، فضرب الخزائن مثلاً لإقتداره على كل مقدور)[3].

وقال البيضاوي: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ) أي وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده و تكوينه أضعاف ما وجد منه... (وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ) من بقاع القدرة (إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) حده الحكمة وتعلقت به المشيئة)[4].

فالآية ظاهرة الدلالة على أن كل ما انعم الله به من نعم في هذه الأرض، هو مجال تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية المطلقة، وما انعم الله به علينا لا يعد ولا يحصى، بل أنه تعالى قدرته أكثر من ذلك بأضعاف، لكنه ينزله بقدر تقتضيه الحكمة، فيتفضل الله به بالقدر المعلوم الذي تتحقق فيه المصلحة ويتم به الأنتفاع.

---

(1) سورة الرعد: (8).
(2) مفاتيح الغيب (132/7).
(3) الكشاف: (422/2) وقد عد بعض المتأخرين ذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية أو التمثيلية، ينظر: روح البيان (580/4)، محاسن التأويل (346/6)، أولى ما قيل في آيات التنزيل (104/5)، والسبب في ذلك يعود إلى أن الزمخشري يذكر التمثيل والتخييل وكأنه لا يفرق بينهما ويدعو الزمخشري في فهم الصورة البيانية إلى انصراف النفس والحس إلى أخذ الزبدة والخلاصة منها واستشعار النفس والقلب بما توحي به، غير ملتفت إلى ما عليه حال الكلمة من حقيقة أو مجاز، وهذا تفكير جيد في فهم التصوير البياني جعله الزمخشري أدق وألطف أبواب علم البيان، وأنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات، ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد حسنين أبو موسى (440)، دار الفكر العربي، د.ت، الكشاف (108/4).
(4) أنوار التنزيل (528/1).

ومن المشاهد التي تعرضها الآيات الكريمة مشهد الرياح اللواقح وإنزال الماء من السماء وجعل هذا الماء سقياً للشرب وللمواشي والضياع.

وقد أختلف العلماء في وصف الرياح بأنها لواقح، فمنهم من قال أنها لواقح للشجر و للسحاب. قال به الرازي في رواية عن الحسن وقتادة والضحاك[1]. وبمثل قوله قال القرطبي والبيضاوي في تفسيرهما[2]. وذكر الزمخشري أن الريح لاقح إذا جاءت بخير أو أنها بمعنى الملاقح أي ملقحات للأشجار[3]. في حين استبعد المتأخرون أن تكون الرياح لواقح للأشجار[4]، كون السياق هنا يشير إلى أنها لواقح بالماء دون سواه.

وسواء كان الوصف في الرياح بأنها لواقح للشجر، أو لواقح للسحاب، المهم أن القرآن الكريم يجعل هذا المشهد مجالاً تتجلي فيه حقيقة القدرة الإلهية، لذلك نجد التعقيب على مشهد الرياح والماء النازل بسببه هو قوله تعالى: (وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ) فقد (نفى عنهم ما أثبته لنفسه في قوله: (وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ) كأنه قال: نحن الخازنون للماء، على معنى نحن القادرون على خلقه في السماء وإنزاله منها، وما أنتم عليه بقادرين: دلالة على عظيم قدرته)[5].

وفي موضع آخر تحدث القرآن الكريم عن حقيقة القدرة الإلهية التي تشهد لها الطبيعة السماوية والأرضية، في ذلك المشهد الذي يصف الأرض في قبضة الله وتحت سلطانه، كما يصف السموات وما فيها من النجوم والكواكب مطويات، بفعل عظمته وكمال قدرته، والقرآن الكريم إذ يعرض هذه المشاهد يصور جانباً من حقيقة القدرة المطلقة، تلك الحقيقة التي لم يكن يعرفها المشركون حق المعرفة ولم يؤمنوا بها، وما قدروا الله حق قدره، واشركوا به بعض خلقه، وما عبدوه حق عبادته.

قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[6].

---

(1) ينظر: مفاتيح الغيب (13417).
(2) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (17/10)، أنوار التنزيل (528/1).
(3) ينظر: الكشاف (422/2).
(4) ينظر: روح البيان (581/4)، محاسن التأوليل (346/6)، في ظلال القرآن (2134/4).
(5) الكشاف: (422/2)، ينظر: أنوار التنزيل (528/1)، روح البيان (582/4)، في ظلال القرآن (2135/4)، أولى ما قيل في آيات التنزيل (104/5).
(6) سورة الزمر: 67، قد يظن البعض أن الآية الكريمة فيها دلالة على كمال قدرته تعالى، لكن =

قال ابن كثير: (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ) أي ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذي لا أعظم منه القادر على كل شيء وكل شيء تحت قدرته، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (رضي الله عنهما): هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم. فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره)[1].

فالآية الكريمة فيها حث على استشعار حقيقة القدرة الإلهية، وتنبيه على غاية عظمته وحقارة الأفعال بالنسبة إلى قدرته ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه على طريقة التصوير[2] من غير اعتبار القبضة واليمين على الحقيقة أو المجاز.

قال البيضاوي: ((وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ) تنبيه على عظمته وحقارة الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام بالإضافة إلى قدرته، ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازاً)[3]. فقبض الله سبحانه للأرض فيه إيحاء بالقدرة والإحاطة الشاملة بجميع مخلوقاته، حيث (شبّه الأرض تحت تصرف المولى سبحانه ورهن إرادته بالشيء يكون في قبضة الممسك به، فهو متمكن منه يصرفه كيف شاء، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه بطريق الاستعارة التمثيلية)[4].

=

اقترانها بالمشاهد ضعيف، لكن الأمر ليس كذلك، لأن قوله تعالى:(وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ) ورد في ثلاث مواضع في القرآن، في سورة الأنعام: الآية 91، وفي سورة الحج: الآية 74. دون عرض للمشاهد. وفي هذا الموضع تم عرض مشاهد السماء والأرض، وفي هذا دلالة على أنها مجال تتجلى فيه هذه الحقيقة. والذي يرجح هذا أن الآية جاءت بمشاهد أكثر من سابقتها في النزول، كما سيتبين لاحقاً.

(1) تفسير القرآن العظيم (61/4)، ينظر: البحر المحيط (421/7)، محاسن التأويل (183/8).

(2) يقول سيد قطب (رحمه الله): (كل ما يرد في القرآن وفي الحديث من هذه الصور والمشاهد إنما هو تقريب للحقائق التي لا يملك البشرإدراكها بغير أن توضع لهم في تعبير يدركونه، وفي صورة يتصورونها. ومنه هذا التصوير لجانب من حقيقة القدرة المطلقة، التي لا تتقيد بشكل، ولا تتحيز في حيز، ولا تتحدد بحدود)، في ظلال القرآن (3062/5).

(3) أنوار التنزيل (331/2)، ينظر: الكشاف (107/4)، البحر المحيط (422/7)، روح البيان (184/8).

(4) البيان في ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين (186)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1422هـ - 2002م، ينظر: المعاني الثانية في الاسلوب القرآني، أحمد فتحي عامر(422)، منشأة =

وقد جعل الجرجاني الكيفية التي وصفت بها الأرض والسموات في الآية الكريمة من قبل التخييل لقدرة الله تعالى، ولم يجعل القبضة ولا اليمين، على الحقيقة، ذلك أنه تعالى منزه عن الجوارح والحواس، فقال: (إن محصل المعنى على القدرة، ثم لا نستجير أن نجعل القبضة اسماً للقدرة بل نصير إلى القدرة من طريق التأويل والمثل... وكذلك حقنا أن نسلك بقوله ﴿مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ هذا المسلك)[1].

فالتصوير الوارد في الآية الكريمة من أجل تقريب حقيقة القدرة الإلهية التي لم يكن يؤمن بها المشركون المخاطبون بالآية الكريمة، فضلاً عن أنهم لم يعرفوها حق المعرفة، ومن أجل ذلك جاءت الآية الكريمة بتعبير يسير بطريقة توضيحية للحقائق، بعرض المشاهد التي يمكن إدراكها وفي صورة يتصورونها. لتصل بهم إلى معرفة هذه الحقيقة. لأن جهلهم بهذه الحقيقة وعدم الإيمان بها أدى إلى اشراكهم بالله وعبادة غيره معه. ولذلك جاء التعقيب على المشهد بقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: ما أبعد من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم، أو ما يضاف إليه من الشركاء[2].

وإذا كان التعبير الوارد في الآية لتقريب حقيقة القدرة، فإن ورود الأرض مؤكدة بـ"جَمِيعًا" بما تفيد الكلمة من عمومية في مقابلة السموات الواردة في صيغة الجمع[3]، تحقيقاً للغرض الديني، لأن المقام يتصل ببيان قدرة الله تعالى. وقد أشار إلى ذلك عدد من المفسرين ومنهم الزمخشري حيث قال: (والمراد بالأرض: الأرضون السبع، يشهد لذلك شاهدان، قوله: (جَمِيعًا) وقوله: (وَٱلسَّمَٰوَٰتُ) ولأن

=
المعارف، الاسكندرية، 1976م، والاستعارة التمثيلية: (تركيب استعمل من غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي)، علم البيان، د. عبد العزيز عتيق (192)، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1405هـ. وترجع أهمية الاستعارة في (أنها طريقة من طرائق إثبات المعنى وتأكيده، وإدعاء أنّ هذا قد أصبح ذاك دون أن يكون كذلك بالفعل)، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور (226)، المركز الثقافي العربي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1983م.

(1) أسرار البلاغة، (310).

(2) ينظر: أنوار التنزيل (331/2).

(3) في حين لم ترد الأرض في صيغة الجمع أو ما يدل على المراد منه الجمع مقابل السموات في صيغة الجمع إلا في هذا الموضع، وفي قوله تعالى: چئى ئي بج بح بخ بم بى بيچسورة الطلاق: من الآية: 12. وقد جعل الرافعي السبب في الآية الاخيرة راجع إلى التناسق الموسيقي، وعدّه من دلائل لإعجاز. ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، (264)، القاهرة، المكتبة التجارية، ط3، 1389هـ - 1969م.

الموضع موضع تفخيم وتعظيم، فهو مقتضٍ للمبالغة، ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر، ليعلم أول الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة، ولكن عن الأراضي كلهن)[1].

وبهذا التفسير يتبين أن الآية الكريمة، قد أضافت إلى سابقتها في النزول إضافات، فإنما ذكر هناك من مشهد الأرض، ذكر ههنا وأريد به الأرضون السبع، وكذلك مشهد السماء. فقد ذكرت الآية السابقة السماء الدنيا وما فيها من الزينة، وههنا ذكرت السموات كلها.

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل البناء المتناسق والمتماسك في السموات ومهد الأرض وبسطها مجالاً تتجلى فيه حقيقة الوحدانية، قد جعلها مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية، فمشهد السماء المبنية والواسعة التي تنبئ عن القدرة، ومشهد الأرض الممهدة للاستقرار عليها، وخلق كل شيء في هذه الطبيعة على قاعدة الزوجية، مجالاً من مجالات التعريف بحقيقة قدرته تعالى والتي تقتضي عبادته وحده.

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

قال البيضاوي: (﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ بقوة. (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة والموسع القادر على الإنفاق، أو لموسعون السماء أو ما بينها وبين الأرض أو الرزق. (وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا) مهدناها لتستقروا عليها. (فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ)، أي نحن)[3]. والأيدِ: تعني القوة[4]. والقوة ظاهرة في بناء السماء المتماسك والمتناسق، كما أن السعة تنبئ عن ذلك، كون الأيدِ هنا تعني القدرة كذلك[5]. فيكون المعنى: (بنيناها بقوة لا يقدر أحد مثلها)[6].

كما أن السعة التي عبر عنها القرآن الكريم ظاهرة في بناء السماء، هذا الفضاء

---

(1) الكشاف (108/4)، ينظر: مفاتيح الغيب (474/9)، أنوار التنزيل (331/2)، الجامع لأحكام القرآن (244/15)، روح البيان (183/8).
(2) سورة الذاريات: 47-49.
(3) أنوار التنزيل -(431/2).
(4) ينظر: جامع البيان (92/7) وهو قول ابن عباس (رضي الله عنهما) في رواية عن مجاهد وقتادة وابن زيد وسفيان، الكشاف (306/4)، محاسن التأويل (496/4)، صفوة التفاسير (275/3).
(5) الجامع لأحكام القرآن (48/17)، وهو قول ابن عباس (رضي الله عنهما). فيكون تأويله الأيدِ: بالقوة والقدرة.
(6) التحرير والتنوير (16/11)، ينظر: روح البيان (203/9).

الرحيب وهي حقيقة قرآنية أشارت إليها الآية الكريمة، وقد تبين في هذا العصر الكثير من الدلائل التي تثبت هذه السعة، مما لم يكن معروفاً في العصر الذي نزل فيه القرآن (عندما نخرج إلى أعماق الفضاء نستعمل وحده السنة الضوئية أي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة كاملة بسرعة ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية)[1].

وبهذه التفسيرات التي ثبتت ثبوتاً قاطعاً في علم الإنسان، لا يلتفت إلى الاحتمالات الكثيرة و التفسيرات التي لا تحتملها الآية ولا تستند إلى دليل، كتفسير السعة: بذوي سعة بخلقها وخلق ما شئنا خلقه[2]. أو بالرزق على الخلق، أو الإشارة إلى الحشر[3]، أو القوى على الإنفاق[4].

ومن أجل التعريف بحقيقة القدرة الإلهية، جاء تقديم لفظ السماء على البناء[5]، في عرض المشهد، فقدم المعمول على العامل، قال الرازي: (فما الحكمة من تقديم المفعول على الفعل ولو قال: وبنينا السماء بأيد كان أوجز ؟ نقول الصانع قبل الصنع عند الناظر في المعرفة فلما كان المقصود إثبات العلم بالصانع، قدم الدليل فقال: والسماء المزينة التي لا تشكون فيها بنيناها فاعرفونا بها إن كنتم لا تعرفوننا) [6]. فكان المقصود التقديم لهذا الغرض وهذا المقصد.

ثم بعد عرض مشهد السماء، جاء مشهد الأرض وما في بسطها واستقرارها من نعمة، ثم اتبعه بخلق كل شيء من نوعين مختلفين ذكراً وأنثى[7]، وجعل هذه المشاهد مجالاً لحقيقة قدرته التي تفرد بها سبحانه.

قال ابن عاشور: (لما اشعر قوله (فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ) بأن في ذلك نعمة على الموجودات التي على الأرض أتبع ذلك بصفة خلق تلك الموجودات لما فيه من دلالة على تفرد الله تعالى بالخلق المستلزم بتفرده بالإلهية فقال: (وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ) والزوج: الذكر والأنثى والمراد بالشيء النوع)[8].

---

(1) (1)السموات السبع (52)، ينظر: الله والعلم الحديث (25-27)، مع الله في السماء (161).
(2) (2)ينظر: جامع البيان (92/7)، الجامع لأحكام القرآن (48/17).
(3) (3)ينظر: مفاتيح الغيب (188/9)، روح البيان (203/9).
(4) (4)ينظر: الكشاف (306/4)، أنوار التنزيل (432/2).
(5) (5)يقول الجرجاني: (إن للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير) دلائل الإعجاز (189).
(6) (6)مفاتيح الغيب (187/9).
(7) لا يعبر القرآن الكريم أحياناً عن المشاهد بالألفاظ الدالة عليها، ويفهم هذا من السياق والقرائن الأخرى، ينظر: في هذا البحث (ص).
(8) التحرير والتنوير (17/11)

ثم جاء التعقيب على هذه المشاهد بقوله (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) والتذكر مستعمل في إعادة التفكير للأشياء[1]. فيحصل العلم بعد إعادة النظر بالحقيقة التي يرمي القرآن الكريم التعريف بها. فالتعقيب بالتذكير يشمل كل المشاهد المعروضة. قال الزمخشري: (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) أي فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه)[2].

ولما كان القرآن الكريم يهدف من عرض هذه المشاهد التعريف بحقيقة القدرة الإلهية وأعقبها بإعادة التفكير فيها ليحصل بها المعرفة التي تقتضي العبادة جاءت الآيات الكريمة بمقتضى هذا التعريف في قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾.

قال ابن المنير: (فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ) الفرار إلى عبادة الله فتوعد من لم يعبد الله، ثم نهى عابده أن يشرك بعبادة ربه غيره، وتوعد على ذلك. وفائدة تكرار النذارة الدلالة على أنه لا تنفع العبادة مع الإشراك، بل حكم المشرك حكم الجاحد المعطل[3]. وبهذا تكون الآيات الكريمة قد عرضت المشاهد التي عرضتها الآيات الكريمة عليها في النزول أضافت إليها إضافات، فقال في هذا الموضع (وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ) فما ذكر ههنا أكثر، وكل زوج من هذه الأزواج المذكورة يعد مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية.

وقد تتجلى حقيقة القدرة الإلهية وحقيقة العلم الإلهي في سياق واحد، وفي مجال واحد من مجالات الطبيعة، كذلك المشهد الذي يعرضه القرآن الكريم من قدرة الله في جعل السموات السبع متطابقة بعضها فوق بعض، ومن علمه بأن هذه السموات محكمة متقنة، وأن هذا الإتقان والإحكام تحدى الله به كل ناظر في خلق السموات، أن ينظر بإمعان وتدقيق، ليرى هل يجد فيها من خلل أو اختلاف، ثم تحداه أن يكرر النظر مرة أخرى، لكنه وإن كرر النظر وأعاده فإنه لا يجد عيباً ولا فطوراً، ومن قدرته سبحانه تزيين السماء الدنيا من بين هذه السموات بنجومٍ وجعلها كالمصابيح لإضاءتها.

---

(1) المصدر نفسه (17/11).
(2) ينظر: الكشاف (307/4)، روح البيان (305/9).
(3) الانتصاف (306/4-307) بهامش الكشاف، ينظر: أنوار التنزيل (431/2).

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾[1].

قال الرازي: (... فثبت أنه كونه عزيزاً غفوراً لا يمكن ثبوتها إلا بعد ثبوت القدرة والعلم التام، فلهذا السبب ذكر الله الدليل على ثبوت هاتين الصفتين في هذا المقام، ولما كان العلم بكونه تعالى قادراً متقدماً على العلم بكونه عالماً، لا جرم ذكر أولاً دلائل القدرة وثانياً دلائل العلم)[2].

وقال الطبري: (ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ) الله هو الذي خلق سبع سموات طباقاً، طبق فوق طبق، بعضها فوق بعض. (مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ): ما ترى في خلق الله في السموات والأرض من اختلاف أو اضطراب. قال قتادة: (مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ): ما ترى فيها من اختلاف)[3].

ولما كان خلق السموات وما هي عليه من الأحكام والإتقان، لا يرى الناظر إليها أي خلل أو اضطراب، جاء التعقيب على المشهد بنفي التفاوت في هذا الخلق الذي يحقق معنى التطابق، ومناسبة بعضها لبعض في النظام.

قال القاسمي: ((مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ) أي:تخالف وعدم تناسب في رعاية الحكمة، بل راعاها في كل خلقه)[4].

وقال ابن عاشور: (و جاءت جملة: مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ) تقريراً لقوله (خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ) فان نفي التفاوت يحقق معنى التطابق، أي التماثل،

---

(1) سورة الملك: (3-5).
(2) مفاتيح الغيب (581/10) يريد الرازي "رحمه الله" بذلك: الربط بين هذه الآية والآية السابقة التي ختمت بصفتين من صفات الله وهي العزيز الغفور في قوله تعالى: چيپيٺٺٿٿٿٹچفجاءت الآية بعدها تعرض مشاهد طبيعية إثباتاً لما ورد قبلها من هذين الوصفين له تعالى على طريقة القرآن في قرن المسائل الاعتقادية بالمشاهد الطبيعية.
(3) جامع البيان (361/7)، ينظر: الجامع لأحكام القرآن (184/18)، تفسير القرآن العظيم (387/5)، محاسن التأويل (189/9).
(4) محاسن التأويل (189/9).

والمعنى: ما ترى في خلق الله السموات تفاوتاً، وأصل الكلام: ما ترى فيهن ولا في خلق الرحمن من تفاوت فعبر بخلق الرحمن لتكون الجملة تذييلاً لمضمون جملة (خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ) لأن انتفاء التفاوت عما خلقه الله متحقق في خلق السموات وغيرها، أي كانت السموات طباقاً لأنها من خلق الرحمن، وليس فيما خلق الرحمن من تفاوت ومن ذلك نظام السموات)[1].

كما أن الإشارة إلى الإحكام والإتقان في خلق السموات السبع، ونفي التفاوت، الذي يتحقق فيه معنى التطابق والتناسب، يجعل هذه المشاهد مجالاً تتجلى فيه حقيقة علم الله.

قال الرازي: (اعلم أن وجه الاستدلال بهذا على كمال علم الله تعالى هو أن الحس دل على أن هذه السموات السبع، أجسام مخلوقة على وجه الإحكام والإتقان، وكل فاعل كان فعله محكماً متقناً فإنه لابد وأن يكون عالماً، فدلَ هذه الدلآلة على كونه عالماً بالمعلومات فقوله: (مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ) إشارة إلى كونها محكمة متقنة)[2].

وسواء كان الخطاب في الآيات الكريمة يحتمل أن يكون للرسولﷺأو لكل مخاطب، كما نقل عن جماعة من المفسرين[3]. أو خطاباً عاماً لغير معين، كما هو ترجيح الطاهر ابن عاشور في تفسيره[4]، المهم أن الآيات عرضت مشاهد تتجلى فيها حقيقة القدرة، وحقيقة علم الله سبحانه في مجالات الطبيعة الضخمة.

وينتقل البيان من دلالة انتفاء الخلل في خلق السموات وإلى بيان ما في إحدى السموات من إتقان الصنع، كونها أوضح دلالة على ذلك فهي نصب أعين المخاطبين ثم بيان ما فيها من المنافع.

قال البيضاوي: (﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أقرب السموات إلى الأرض (بِمَصَٰبِيحَ) بالكواكب المضيئة بالليل إضاءة السرج فيها، والتنكير للتعظيم ولا يمنع ذلك كون بعض الكواكب مركوزة في سموات فوقها، إذ التزيين بإظهارها فيها. (وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا

---

(1) التحرير والتنوير (17/12).
(2) مفاتيح الغيب (582/10).
(3) ينظر: الكشاف (437/4)، مفاتيح الغيب (582/10)، البحر المحيط (292/8)، أنوار التنزيل (509/2)، روح البيان (91/10).
(4) ينظر: التحرير والتنوير (18/12)، كما ألمح هذا المعنى ابن كثير في تفسيره، وإن لم يصرح به، حيث قال: (وقال قتادة: (ﭺﭻﭼ) هل ترى خللاً يا أبن آدم) واضح من كلامه أن الخطاب عاماً لغير معين، ينظر: تفسيره (387/5).

لِّلشَّيَٰطِينِۖ) وجعلنا لها فائدة أخرى وهي رجم أعدائكم والرجوم جمع رجم بالفتح وهو مصدر سمي به ما يرجم به بانقضاض الشهب المسببة عنها)[1]. فإن ذكر التزيين ورجم الشياطين هو اقتران للنعم الإلهية في هذا المجال من الطبيعة.

والضمير في (وَجَعَلۡنَٰهَا) راجع إلى غير مذكور، فمفسره جنس المصابيح، □ عينها؛ لأنه □يرمى بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها وقد تكون مستمدة منها[2]، فالنجوم جعلها الله أقساما ثلاثة: بعضها للزينة في السماء، وبعضها لرجم الشياطين، وبعضها يهتدى به في البر والبحر والأوقات[3]. و□ التفات في هذا المقام إلى ما قاله البيضاوي من أن بعض الكواكب مركوزه في سموات فوقها – أي السماء الدنيا-إذ التزيين بإظهارها فيها، فإن هذا التفسير □دليل له، بل هو كلام الفلاسفة وعلماء الهيئة، حيث أن ما ثبت لدى علماء العصر بوسائلهم الخاصة، أن المصابيح والزينة هي من اختصاص السماء الدنيا[4]، وهذا التفسير يؤيده ظاهرالآية. كما أن الرازي رد هذا القول، وعد مذهب الفلاسفة في هذا الباب ضعيفاً[5]. وإظهاراً لحقيقة القدرة فقد رتب القرآن الكريم هذه المشاهد وما يتبعها من المعاني والمنافع التي هي المقصد الثاني ترتيباً، فقدم آيات الله في السماء، متجلية في النجوم التي هي زينة السماء الدنيا، وبيان منافعها، ليخلص منه إلى بيان فائدة أخرى لهذه النجوم وذكر الشياطين، ليخلص منه إلى وعيدهم ووعيد من يستمع لهم.

قال ابن عاشور: (وذكر التزيين إدماج للامتنان في أثناء ا□ستد□ل، أي زيناها لكم. والمقصد: التخلص[6]، إلى ذكر الشياطين ليتخلص منه إلى وعيدهم ووعيد

---

(1) أنوار التنزيل (510/2).

(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم (388/5)، محاسن التأويل (192/9)، وعود الضمير إلى مصاحب المذكور، شكل من أشكال المصاحبة بالإستحضار الذهني، فذكر الضمير في (ﮍ) يستحضر ذهنياً. ينظر: شرح التسهيل، لابن مالك محمد بن عبد الله، تحقيق: د. عبد الرحمن السيد، و د. بدوي المختون (157/1)، دار الفكر. (د.ت)، حاشية الصبان على شرح الأشموني، محمد بن علي الصبان، تحقيق: مصطفى حسين (108/1)، دار الفكر. (د.ت).

(3) وهو قول قتادة ﷺ وفيه دفع لما ينسبه المنجمون إلى النجوم من أشياء يستميلون بها الجهال من الناس. ينظر: الجامع لأحكام القرآن (186/18)، البحر المحيط (299/8).

(4) ينظر: صفوة التفاسير (118/3)، (416/3) السماء في القرآن الكريم (278).

(5) ينظر: مفاتيح الغيب (584/10).

(6) حسن التخلص: من أساليب القرآن الكريم يتحقيق من خلاله الترابط، وتبدو المناسبة فيها من وجه، فهو إحدى صور المناسبات بين الآيات وحقيقته: (هو أن يأخذ المتكلم معنى من المعاني، فبينما هو فيه إذ أخذ معنى غيره وجعل الأول سبباً إليه فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض من غير أن يقطع المتكلم كلامه ويستأنف كلاماً، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً) الفوائد =

مستمعيهم[1].

ولذلك جاءت الآية التالية لها تبين وعيد هؤلاء، في قوله تعالى: (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ).

وبهذا يتبين أن الآيات الكريمة ذكرت الكثير من التفاصيل عن السماء وما تم ذكره في الآيات السابقة والتي كانت مقتصرة على بناء السماء، بقوله تعالى: (وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) فما ذكر هناك مجملاً، تم تفصيله ههنا.

وفي موضع آخر يعرض القرآن الكريم مشاهد متباينة في الطبيعة المنظورة، وما فيها من العناصر الثابتة المستقرة، والى الظواهر المتجددة، من أجل التعريف بحقيقة الألوهية، يلفت الأنظار إلى السموات التي يراها كل ناظر بلا عمد وما وراءها من حقيقة القدرة والعظمة، والى مشهد الأرض، وما جعل الله فيها من الرواسي والأنهار، وإلى ظاهرة الليل والنهار المتعاقبين، ثم يلفتها مرة أخرى إلى مشهد الأرض، لكنه من جانب آخر، بأنها بقاع متجاورة مختلفة، وبين ما عليها من النعم كالزروع والأعناب والنخيل، ثم يجعل القرآن هذه المشاهد مجالات تتجلى فيها حقيقة القدرة الإلهية، كونها دلالات واضحة لقوم يستعملون عقولهم، وتدعوهم إلى التفكير المتجدد في القدرة التي أبدعت كل هذه الأشياء، وأن هذه الآيات كفيلة بأن توقظ قلوبهم، وتنبه عقولهم، ليروا فيها قدرة الخالق وتدبيره.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

=

المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن القيّم (140)، مطبعة السعادة، القاهرة، ط1، 1327هـ، ينظر: البرهان في علوم القرآن (43/1). الإتقان، للسيوطي (13/2).

(1) التحرير والتنوير (21/12).

﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾[1].

لما بينت الآيات السابقة على هذه المشاهد أن القرآن حقّ، بينت هذه الآيات أن من أنزله قادرٌ على الكمال؛ فانظروا إلى مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته[2].

وابتداء الآية بلفظ الجلالة "الله" في معرض الرد على إنكار الوحي ليس غريباً ولا مفاجئاً، إنّما يلفت حسًّنا –وحس الئك المنكرين– إلى جوهر القضية، وإلى سبب الانكار. وقيام السموات مرفوعة بغير عمد حقيقة مشهودة، لكن الحس يتبلد عليها بدافع الإلف والعادة فلا يعود يأخذ منها دلالتها الحقيقة على عظمة الخالق التي لا تقف عند حد[3].

قال البيضاوي: (ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ) مبتدأ وخبر ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبر يدبر الأمر. (بِغَيۡرِ عَمَدٖ) أساطين جمع عماد كإهاب وأهب، أو عمود كأديم وأدم. (تَرَوۡنَهَا) صفة لعمد أو استشهاد برؤيتهم كذلك...(وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ) ذللهما لما أراد منهما كالحركة المستمرة على حد من السرعة ينفع في حدوث الكائنات وبقائها. (كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ) لمدة معينة يتم فيها أدواره، أو لغاية مضروبة ينقطع دونها سيره... (يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ) أمر ملكوته من الإيجاد والإعدام والحياة والإماتة وغير ذلك. (يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ) ينزلها ويبينها مفصلة أو يحدث الدلائل واحداً بعد واحد (لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ

---

(1) سورة الرعد: 2-4.

(2) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (238/9)، في ظلال القرآن (2044/4)، مقومات التصور الإسلامي (70)، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله(32).

(3) ينظر: دراسات قرآنية (151)، والواقع أن القرآن الكريم رد هذا الإنكار في مواضع منه في العهد المكي، وبأسلوب القسم، وأن الله سبحانه يقسم بمشاهد الطبيعة على حقيقة القرآن الكريم، ففي قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴾ سورة الطارق: ١١ – ١٤، قسم بالسماء التي ينزل منها الماء، وبالأرض المتصدعة المتشققة بالنبات، ثم يجعل هذا القسم إطاراً لحقيقة من حقائق القرآن، وهو أنه قول فصل بين الحق والباطل، وليس بالكلام الهزل. ينظر: مع القرآن في إعجازه وبلاغته (119)، السماء في القرآن الكريم (293 – 294)، وللوقوف على أقوال المفسرين والبلاغيين ونظرتهم إلى ما يلي الواو من مقسم به. ينظر: الإعجاز البياني ومسائل ابن الأزرق، عائشة عبد الرحمن بن الشاطئ (230)، دار المعارف، القاهرة.

رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ) لكي تتفكروا و تتحققوا كمال قدرته)[1].

وتفسير البيضاوي المتقدم لقوله تعالى (يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ) بالدلائل أولى من التفسير الأول بأن الله ينزلها ويبيّنها مفصلة -أي آيات القرآن- كون المعنى الثاني يتفق مع السياق الذي ورد فيه وإن كان بعض المفسرين على خلافه[2].

لقد أكد هذا المعنى عدد من المفسرين. يقول الرازي: (وقوله: (يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ) إشارة إلى أنه يحدث بعضها عقب بعض على سبيل التمييز والتفصيل)[3]. وبمثل قوله قال البروسوي في تفسيره[4].

وما أحسن ما قاله ابن عاشور: (إن تدبر الأمر يشمل الخلق الأول والثاني... وتفصيل الآيات يشير إلى التصرف بإقامة الأدلة والبراهين، وشأن مجموع الأمرين أن يفيد اهتداء الناس إلى اليقين... لأن النظر بالعقل في المصنوعات وتدبيرها يهدي الى ذلك، وتفصيل الآيات والأدلة ينبه العقول ويعينها على ذلك الاهتداء ويقربه)[5].

وهذا الاهتداء إلى اليقين هو من مقتضيات التعريف بحقيقة الإلوهية الذي شرعت به الآيات الكريمة، وهذا التفسير يلقي بظلاله على سر اختيار التعبير القرآني لصيغة (يُدَبِّرُ) و(يُفَصِّلُ) بالمضارع، في حين استعمل التعبير بالماضي قبله في قوله تعالى: (ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ) فعبر عن الماضي مع السموات والشمس والقمر.

لقد ألمح هذا المعنى المحقق ابن عاشور فقال: (وصيغ (يُدَبِّرُ) و (يُفَصِّلُ) بالمضارع عكس قوله: (ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ) لأن التدبير والتفصيل متجدد متكرر بتجدد تعلق القدرة بالمقدرات، وإنما رفع السموات وتسخير الشمس والقمر فقد تم واستقر دفعه واحدة)[6].

فصيغة المضارع أفادت التجدد والتكرار في مقام عرض حقيقة القدرة في مجال الطبيعة السماوية. وينتقل البيان من الطبيعة السماوية إلى الطبيعة الأرضية،

---

(1) أنوار التنزيل (500/1)، ينظر: السماء في القرآن الكريم (342).
(2) كالطبري حيث فسرها: (يبين آيات القرآن وأحكامه للناس)، ينظر: جامع البيان (517/4) والزمخشري فسرها بأنها: (آياته في كتبه المنزلة)، ينظر: الكشاف (377/2).
(3) مفاتيح الغيب (527/6).
(4) ينظر: روح البيان (432/4).
(5) التحرير والتنوير (82/6).
(6) التحرير والتنوير (83/6).

فيعرض على الأنظار مشهد الأرض الممدودة وما فيها من رواسٍ ثابتة، وأنهار جارية، والليل إذا يغشاه النهار، وأول هذه المشاهد، هذه الأرض الممدودة على امتداد البصر فقوله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ) يشعر(بأنه تعالى جعل حجم الأرض حجماً عظيماً لا يقع البصر على منتهاه، لأن الأرض لو كانت أصغر حجماً مما هي عليه لما كمل الأنتفاع به)[1].

ولا يهم ما يكون شكلها الكلي في حقيقته إذ أن مد الأرض وبسطها ليس دليلاً على عدم كرويتها كما ذهب إلى ذلك القرطبي بقوله: (في هذه الآية رد على من زعم أن الأرض كالكرة)[2] -وقد مر معنا إثبات القرآن لهذه الحقيقة- إذ هي مبسوطة ممدودة في نظرنا لنعيش عليها ويقابل مد الأرض إرساء الجبال والأنهار الجارية التي بسببها تتولد هذه الأنهار على وجه الأرض.

قال البيضاوي: ((وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ) جبالاً ثوابت من رسا الشيء إذا ثبت...(وَأَنْهَٰرًا) ضمها إلى الجبال وعلق بهما فعلاً واحداً من حيث إن الجبال أسباب لتولدها)[3].

فإن الجبال الشامخات تتجمع على قممها السحب، وتنحدر عنها مساقط الماء، وتسيل على الأرض [4].

والذي يبدو أن السبب في أن القرآن الكريم في أكثر المواضع، أينما ذكر الجبال قرن بها ذكر الأنهار أو ذكر النبات[5]. وفي هذا الموضع تم ذكرهما معاً وهو وهو تناسب ظاهر بين السبب والمسبب وقوله تعالى: (وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ).

(خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها، ثم تكاثرت

---

(1) مفاتيح الغيب (5/7).
(2) الجامع لأحكام القرآن (239/9).
(3) أنوار التنزيل (501/1).
(4) للرازي تفصيل لطيف في بيان العلاقة بين الجبال والأنهار ساق فيها الأدلة على منافع الجبال من هذا الوجه، ينظر: مفاتيح الغيب (6/7)، البحر المحيط (355/5)، تفسير جزء تبارك، محمد عبد القادر المغربي(288)، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1366هـ - 1947م، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ سورة المرسلات: 27.
(5) ينظر: سورة النحل 15، سورة النمل: 61، سورة المرسلات: 24، سورة ق: 7، سورة الرعد: 3.

بعد ذلك وتنوعت وقيل: أراد بالزوجين: الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك من الأصناف المختلفة)[1]. والاحتمال الثاني الذي ذكره الزمخشري بعيد، لأن الزوجين هنا النوعان، نوع الذكر ونوع الأنثى، وهذا القول قال به الطبري[2]. وقد مر معنا أن التزاوج بين كل شيء أمر نوّه عنه القرآن الكريم، كما دل علم الأحياء على ذلك[3].

ثم يأتي عرض ظاهرة الليل والنهار، والملحوظ في ورود هذه الظاهرة أنها وردت ضمن المشاهد الأرضية، فقد رتب القرآن الكريم هذه المشاهد ترتيباً، من أجل إظهار حقيقة القدرة الإلهية التي هي المقصد الأول، وتصوير المشهد تصويراً يعتمد على الحقيقة فظاهرة الليل والنهار كونها من أعراض الأرض وليس من أحوال السماوات عرضها القرآن الكريم ضمن مشاهد الأرض.

فقوله: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ (...جيء فيه بالمضارع لما يدل من التجديد لأن جعل الأشياء المتقدم ذكرها جعل ثابت مستمر، وأما إغشاء الليل والنهار فهو أمر متجدد كل يوم وليلة، وهذا استدلال بأعراض[4] أحوال الأرض وذكره في غاية الدقة العلمية، لأن الليل والنهار من أعراض الكرة الأرضية)[5].

ثم ينتقل البيان إلى ذكر النعم المتعددة من الجنات والزروع والنخيل في مختلف الأشكال و الطعوم و الألوان، ينبت في قطع من الأرض متجاورات ويسقى بماء واحد، وهذا الاختلاف في المنابت والألوان مع أنه يسقى بماء واحد، يجعله القرآن الكريم مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة.

قال الطبري: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾: في الأرض قطع متقاربات متدانيات، يقرب بعضها من بعضها بالجوار، وتختلف بالتفاضل، مع تجاورها وقرب بعضها من بعض، فمنها قطعة سبخة لا تنبت شيئاً في جوار قطعة طيبة تنبت وتنفع)[6].

وقال الزمخشري: (﴿قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ بقاع مختلفة، مع كونها متجاورة متلاصقة:

---

(1) الكشاف (377/2).
(2) ينظر: جامع البيان (517/4).
(3) ينظر: في هذا البحث (ص).
(4) الأعراض: "هو الموجود في موضوع، وهو ما قام بغيره، ولا يبقى زمانين"، المبين في شرح معاني ألفاظ الحُكماء، والمتكلمين، سيف الدين علي بن محمد الآمدي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي(28)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م.
(5) التحرير والتنوير (83/6).
(6) جامع البيان (520/4)، ينظر: مفاتيح الغيب (9/7).

طيبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة، وصالحة للزرع لا للشجر إلى أخرى عكسها، مع انتظامها جميعاً في جنس الأرضية. وذلك دليل على قادر مريد، موقع لأفعاله على وجه دون وجه. وكذلك الزروع والكروم والنخيل النابتة في هذه القطع، مختلفة الأجناس والأنواع، وهي تسقى بماء واحد)[1].

فإن اختلاف قطع الأرض واختلاف الثمار في الأشكال والألوان تمثل مجالات متعددة تتجلى فيها حقيقة القدرة الإلهية

يقول ابن عاشور: (وليس وصف القطع متجاورات، مقصوداً بالذات في هذا المقام إذ ليس هو محل العبرة بالآيات، بل المقصود وصف محذوف دل عليه السياق تقديره: مختلفات الألوان والمنابت، كما دل عليه قوله تعالى: (وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِۚ)، وإنما وصفت متجاورات لأن اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور اشد دلالة على القدرة العظيمة)[2]. وكما جاءت المشاهد تعرض مشاهد مختلفة في الطبيعة الأرضية، جاء التعقيب على هذه مختلفاً باختلاف هذه المشاهد المعروضة، ولذلك كان التعقيب على مد الأرض والرواسي والأنهار والثمرات (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ) والتعقيب على اختلاف بقاع الأرض و الزروع (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ) وهذا الاختلاف في التعقيب يدل على أن ما يحصل في الطبيعة الأرضية من تبدلات وظواهر ليس مرده حركات الكواكب في السماء، كما يزعم قدامى الفلاسفة، بل مرده القدرة الإلهية المتصرفة في هذا الكون، لذلك جعلها القرآن كلها مجالات تتجلى فيها حقيقة القدرة.

وفصّل الرازي القول في ذلك، وربطه بمفهوم قدامى الفلاسفة، الذين كانوا يرون، أن ما يحدث في الأرض من ظواهر وتغيرات سببه الكواكب والأفلاك، ثم راح يفند ما كانوا يزعمون، وخلص إلى أن السبب في ذلك ليس هذه الكواكب والأفلاك، بل القدرة الإلهية.

يقول الرازي: (واعلم أنه تعالى في أكثر الأمر، حيث يذكر الدلائل الموجودة في العالم السفلي يذكر عقبها: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ) أو ما يقرب منه بحسب المعنى والسبب فيه أن الفلاسفة يسندون حوادث العالم السفلي إلى الاختلافات الواقعة في الأشكال الكوكبية، فما لم تقم الدلالة على دفع هذا السؤال لا يتم المقصود، فلهذا المعنى قال: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ) كأنه تعالى يقول مجال الفكر باق

---

(1) الكشاف(378/2)، ينظر: أنوار التنزيل (501/1)، محاسن التأويل (262/6)، وللوقوف على تفاصيل تعدد مجالات الاختلاف في النباتات ودلالتها على حقيقة القدرة، ينظر: آيات الله في الآفاق (73) فما بعدها.

(2) التحرير والتنوير (85/6).

بعد و لابد بعد هذا المقام من التفكير والتأمل)[1].

وفي التعقيب الثاني مع أن المشاهد المعروضة في الآيتين هي مشاهد أرضية، قال الرازي: (أعلم أن المقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث في هذا العالم لأجل الاتصالات الفلكية، والحركات الكوكبية وتقريره من وجهين:-

الأول: أنه حصل في الأرض قطع مختلفة بالطبيعة والماهية وهي مع ذلك متجاورة، فبعضها تكون سبخة، وبعضها تكون رخوة، وبعضها تكون صلبة، وبعضها تكون منبتة، وبعضها تكون حجرية أو رملية، وبعضها تكون طيناً لزجا، ثم إنها متجاورة وتأثير الشمس وسائر الكواكب في تلك القطع على السوية فدل هذا على أن اختلافها في صفاتها بتقدير العليم القدير.

والثاني: أن القطعة الواحدة من الأرض تسقى بماء واحد فيكون تأثير الشمس فيها متساويا، ثم إن تلك الثمار تجيء مختلفة في الطعم واللون والطبيعة والخاصية حتى انك قد تأخذ عنقوداً من العنب فيكون جميع حباته حلوة نضجية إلا حبة واحدة فإنها بقيت حامضة يابسة، ونحن نعلم بالضرورة أن نسبة الطباع والأفلاك للكل على السوية، بل نقول: ههنا ما هو أعجب منه، وهو أنه يوجد في بعض أنواع الورد ما يكون أحد وجهيه في غاية الحمرة، والوجه الثاني في غاية السواد مع أن ذلك الورد يكون في غاية الرقة والنعومة فيستحيل أن يقال: وصل تأثير الشمس إلى احد طرفيه دون الثاني، وهذا يدل دلالة قطعية على أن الكل بتدبير الفاعل المختار، لا بسبب الاتصالات الفلكية وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى: (يُسۡقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فِي ٱلۡأُكُلِۚ)... وعندها يتم الدليل، ولا يبقى بعده للفكر مقام ألبتة، فلهذا السبب قال هنا: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ) لأنه لا دافع لهذه الحجة إلا أن يقال: أن هذه الحوادث السفلية حدثت لا لمؤثر ألبتة وذلك يقدح في كمال العقل، لأن العلم بافتقار الحادث إلى المحدث لما كان علماً ضرورياً كان عدم حصول هذا العلم قادحاً في كمال العقل فلهذا قال: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ) وقال في الآية المتقدمة: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ)[2].

وبهذا يتناسب التعقيب في الآية القرآنية مع مشاهد الطبيعة، ولقد تعمدت نقل

(1) مفاتيح الغيب (7/7).
(2) مفاتيح الغيب (7/8-9).

كلام الرازي على طوله، ليتبين كيف أن القرآن الكريم جعل مشاهد الطبيعة لتحقيق مقاصده وأغراضه في الرد على الأنحرافات و الأوهام التي لابست العقل البشري في كل زمان ومكان وتصحيح هذه التصورات، عن طريق التعريف بالحقائق الإلهية ومن هذه الحقائق حقيقة قدرته تعالى ليردهم إلى عبادته وحده. كون القرآن يتناول العقل من حيث وظيفته، التي هي التعقل والتفهم والتدبر، فيدعو إلى ذلك كما ينعى على من لم يستخدمه الأستخدام الصحيح من حيث سلامة المقدمات، للوصول بها إلى سلامة النتائج.

وبهذا يتبين أن هذه الآيات قد أضافت على سابقتها في النزول، و فصلت ما أجمل هناك، فالمشاهد التي عرضتها سورة الذاريات عرضت مشهد السماء، وبسط الأرض، وخلق الأشياء على قاعدة الزوجية، وسورة الملك عرضت مشهد السماء، وبينت أنها سبع سموات، وزينة السماء الدنيا، وبيان منافعها، وسورة الرعد تحدثت عن رفع السموات بغير عمد، ومد الأرض والرواسي والأنهار، والثمرات التي خلقها الله من زوجين، كما بينت ما في السموات من الشمس والقمر، ومشهد تعاقب الليل والنهار، وبهذا تبين أن الصلة واضحة والمناسبة ظاهرة بين هذه المواضع، فهي متكاملة فيما بينها وأن كل مشهد أعيد عرضه في هذه المواضع تم عرضه بطريقة مختلفة عن سابقاتها، وتم تناوله من جانب معين يختلف عن سابقه أو لاحقه في النزول إلى غير ذلك من صور التناسب ووجوهه.

المبحث الثاني

الطبيعة الأرضية

كما جعل القرآن الكريم مشاهد الطبيعية السماوية والأرضية مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية، كذلك جعل مشاهد الطبيعة الأرضية خاصة، للغرض نفسه. فمشهد الأرض وما هي عليه من البسط هي قرارٌ للإنسان يستقر عليها، ولقربها من الإنسان فهي كالفراش والمهاد، وقد جعل الله فيها من الطرق التي تسهل السير عليها، وما فيها من أنواع النباتات المختلفة، فعلى الرغم من أن الماء شيء واحد، إلا أنه تسبب في أشياء كثيرة، ثم يجعل القرآن الكريم هذه المشاهد مجالا تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية المقرونة بالنعم، وهذا المجال الذي بيّنه القرآن، ليس بآية لكل الناظرين، لكنه آية لذوي العقول المستقيمة.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾[1].

قال ابو حيان: (ولما ذكر موسى دلالته على ربوبية الله تعالى، وتم كلامه عند قوله (وَلَا يَنسَى) ذكر تعالى ما نبه به على قدرته تعالى ووحدانيته فأخبر عن نفسه بأنه تعالى هو الذي صنع كيت و كيت، وإنما ذهبنا إلى أن هذا هو كلام الله تعالى لقوله تعالى:(فَأَخْرَجْنَا)، وقوله: (كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ)، وقوله: (وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ) فيكون قوله: (فَأَخْرَجْنَا)، و (أَرَيْنَٰهُ) التفاتاً من الضمير الغائب في (جَعَلَ) و (وَسَلَكَ) إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه، ولا يكون الالتفات من قائلين)[2]

قال البيضاوي: (ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا)مرفوع صفة للرب أو خبر لمحذوف أو منصوب على المدح. وقرأ الكوفيون هنا وفي الزخرف مهداً إي كالمهد تتمهدونها، وهي مصدر سمي به، والباقون مهاداً وهم اسم ما يمهد كالفراش أو جمع مهد (وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا) وجعل لكم فيها سبلا بين الجبال والأودية والبراري

---

(1) سورة طه: 53-54.
(2) البحر المحيط: (234/6) ينظر: الانتصاف (182/4)، بهامش الكشاف.

تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها. (وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) مطراً. (فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ) عدل به عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم على الحكاية لكلام الله تعالى، تنبيهاً على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة وإيذاناً بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته)[1].

ومن النعم التي عرضتها الآية الكريمة الطرق التي جعلها الله تعالى في هذه الأرض، والنباتات المختلفة. قال ابن كثير: (وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا) أي: جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها. (وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ) أي من أنواع النباتات من زروع وثمار، ومن حامض و حلو ومر وسائر الأنواع (كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ) أي شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضراً ويبساً)[2].

والعدول عن لفظ الغيبة إلى صيغة التكلم بقوله تعالى: (فَأَخۡرَجۡنَا) من أجل إظهار حقيقة القدرة المقرونة بالنعم في هذه المشاهد، كما أن مجيء وصف النبات في الآية الكريمة بـ(شَتَّىٰ) لبيان تعدد منافعه للإنسان والأنعام.

قال الزمخشري: (﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع، لما ذكرت من الافتنان والإيذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره، وكذا عن الأجناس المتفاوتة لمشيئته، لا يمتنع شيء عن إرادته... وفيه تخصيص أيضاً بأنا نحن نقدر على مثل هذا، ولا يدخل تحت قدرة أحد. (أَزۡوَٰجٗا) أصنافاً، سميت بذلك لأنها مزدوجة ومقترنة بعضها مع بعض (شَتَّىٰ) صفة للأزواج، جمع شتيت... ويجوز أن يكون الجمع، يعني أنها شتى مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل، بعضها يصلح للناس وبعضها للبهائم)[3].

ولما كان المقصد الأول من عرض هذه المشاهد، التعريف بحقيقة الألوهية، وبيان حقيقة قدرته تعالى، وأن المنافع غير مطلوبة لذاتها، بل هي مطلوبة لكونها

---

(1) أنوار التنزيل (49/2).
(2) تفسير القرآن العظيم (160/3).
(3) الكشاف (52/3)، ينظر: مفاتيح الغيب (61/8)، الجامع لأحكام القرآن (190/11)، البحر المحيط (234/6)، روح البيان (471/5).

وسائل للتعريف بالمنعم وقدرته، وأن المجال، مجال فكر، يتجاوز الحواس إلى الوجدانيات. جاء التعقيب بقوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ). والنهى: ضد الحمق وهو من أسماء العقل[1]. فإن كل المشاهد المذكورة من جعل الأرض مهداً وسلك السبل فيها وإنزال الماء وإخراج أصناف النبات، هي مجالات تتجلى فيها هذه الحقيقة.

وهي دلالات وبراهين لأصحاب العقول السليمة، على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه، وتنهاهم عن إتباع الباطل، خص بها هؤلاء باعتبارهم المنتفعون بها[2].

كما تتجلى حقيقة القدرة الإلهية في مشهد الأرض، وإنبات الله النبات فيها، بكل أصنافه المختلفة والمتنوعة، ومع هذا التنوع فإنه يسقى بماء واحد، وما في هذه الأنواع من منافع وبهجة، فإن هذه المشاهد وما عليه من الكثرة والتنوع والحسن، هي مجالات تتجلى فيه هذه الحقيقة، وأن كل نوع من هذه الأنواع الكثيرة المتباينة يعد مجالاً من هذه المجالات.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3].

الاستفهام الذي بدأت به الآيات يبين إعراض المشركين عن الآيات المثبوثة في الطبيعة الأرضية الدالة على قدرة الله تعالى، (والهمزة للإنكار[4] التوبيخي، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام. أي: أصروا على ما هم عليه من الكفر بالله وتكذيب ما يدعوهم إلى الإيمان به عز وجل، ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة لهم عن ذلك والداعية إلى الإيمان به تعالى)[5]. فقد لفتت الآية الأنظار إلى ذكر (الْأَرْضِ) أولاً ثم كثرة ما أنبت من نبات، وأن هذا النبات يكاد يعم جميع الأرض للتنبيه على حقيقة القدرة.

قال الزمخشري: (فإن قلت ما معنى الجمع بين كَم و كُل، ولو قيل: كم أنبتنا

---

(1) ينظر: لسان العرب (167/1) مادة "عقل".
(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم (160/3)، أنوار التنزيل (50/2)، روح البيان (472/5)
(3) سورة الشعراء: 7-8.
(4) ومعنى غرض الإنكار أن تُنكر على المخاطب، وتستهجن منه ما حدث "ليتنبه حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل ويرتدع، عن فعل ما همّ به"، الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني (236/1)، المكتبة الأزهرية للتراث، ط3، 1413هـ - 1993م.
(5) روح المعاني (62/19).

فيها من زوج كريم؟ قلت: قد دل (كُلِّ) على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل، و (كَمۡ) على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة، فهذا معنى الجمع بينهما، و به نبه على كمال قدرته... فان قلت: فحين ذكر الأزواج ودل عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة، وكانت بحيث لا يحصيها إلا عالم الغيب، كيف قال: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ) وهلا قال: آيات ؟ قلت فيه وجهان: أن يكون مشاراً به إلى مصدر أنبتنا، فكأنه قال: إن في ذلك الإنبات لآية أيّ آية. وأن يراد: إن في كل واحدة من تلك الأزواج لآية)[1].

وقال البيضاوي: (أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ) أولم ينظروا إلى عجائبها. (كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ) صنف. (كَرِيمٍ) محمود كثير المنفعة، وهو صفة لكل ما يحمد ويرضى... (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ) إن في إنبات تلك الأصناف أو في كل واحد (لَأٓيَةٗۖ) على أن منبتها تام القدرة والحكمة، سابغ النعمة والرحمة)[2]. والذي يبدو أن السبب في أفراد (آية) في هذا الموضع دون غيره، من أجل إظهار حقيقة القدرة، وتعدد المجالات التي تظهر فيها هذه الحقيقة، لتشمل المذكور في الآية والمشار إليه، من مشهد الأرض وإنبات الأزواج فيها، وما فيها من المنافع والبهجة، ولا تقتصر الإشارة على مشهد دون آخر مما ذكرته الآية كما ذكر ذلك عدد من المفسرين[3].

كما أن الاختلاف في أصناف النبات وأنواعه ينبئ عن حقيقة القدرة التي أحدثته. وقد ألمح هذا المعنى المحقق ابن عاشور بقوله: (والمشار إليه بـ(ذَٰلِكَ) هي المذكور من الأرض، وإنبات الله الأزواج فيها، وما في تلك الأزواج من منافع وبهجة... وإفراد (آية) لأن في المذكور عدة أشياء في كل واحد منها آية فيكون على التوزيع)[4].

وبهذا التفسير يتبين كثرة النعم وتعددها، بحسب تعدد المجالات التي تقتضي الربط بين النعم والمنعم، واستشعار حقيقة القدرة.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن المقصود بالزوج في هذا الموضع هو النوع، أي

---

(1) الكشاف (299/2-2300)، ينظر: البحر المحيط (7/7).
(2) أنوار التنزيل (151/2)، ينظر: محاسن التأويل (469/7).
(3) ينظر: الكشاف (230/2)، مفاتيح الغيب (492/8)، تفسير القرآن العظيم (366/3)، أنوار التنزيل (151/2)، الجامع لأحكام القرآن (88/13)، روح البيان (338/6).
(4) التحرير والتنوير (102/8).

أنبتت من كل نوع كريم وليس زوجاً ذكراً وأنثى كما ذكر "سيد قطب"[1]. وعندما يكون الغرض من الزوج الذكر والأنثى يقول تعالى (زَوۡجَيۡنِ) لأن الزوجين هما النوعان، نوع الذكر والأنثى[2]. كما في قوله تعالى: (وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ)[3].

ولما كانت هذه المشاهد المتعددة هي مجالات تتجلى فيه حقيقة القدرة، التي تقترن برحمة الله ونعمه في إنبات كل هذه الأصناف وما فيها من المنافع، جاء التعقيب بعد عرضها بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

(ٱلۡعَزِيزُ) القوي القادر على إبداع الآيات، ووصف الله تعالى بالعزة، أي تمام القدرة (ٱلرَّحِيمُ) الذي يكشف عن آياته، فيؤمن بها من يهتدى قلبه[4].

وهذا التعقيب جاء متناسباً مع السياق الذي وردت فيه المشاهد، حيث سبقها قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[5]. وصف للكفار بالإعراض أولاً وبالتكذيب ثانياً وبالاستهزاء ثالثاً. ومتناسب مع المشاهد المعروضة من جهة أخرى. فإن ترتيب أسماء الله من أجل إظهار حقيقة القدرة التي تتجلى في تلك المشاهد، فتقديم ذكر (ٱلۡعَزِيزُ) على ذكر (ٱلرَّحِيمُ) لهذا الغرض، كون الموضع بيان القدرة[6].

قال الرازي: أما قوله: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ)... والمعنى أن في ذلك دلالة لمن يتفكر و يتدبر وما كان أكثرهم مؤمنين أي مع كل ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم، فأما قوله: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ) فإنما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم لأنه لو لم يقدمه لكان ربما قيل إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم، فأزال هذا

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن (2585/5).
(2) ينظر: المشاهد في القرآن الكريم (124).
(3) سورة الذاريات: 49.
(4) ينظر: في ظلال القرآن (2586/5).
(5) سورة الشعراء 5 – 6.
(6) ينظر: البحر المحيط (7/7).

الوهم بذكر العزيز القاهر، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده، فإن الرحمة إذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعاً والمراد أنهم مع كفرهم وقدرة الله على أن يجعل عقابهم لا يترك رحمتهم بما تقدم ذكره من خلق كل زوج كريم من النبات)[1].

وبهذا تكون هذه الآيات قد أضافت على سابقتها في النزول. فقد جاء في طه: (فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ) وقال ههنا:- (أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) فذكر الأزواج كلها وفي كل واحدة منها آية. فما ذكر ههنا من مجالات كان أكثر.

وفي موضع آخر يعرض القرآن الكريم مشاهد البر والبحر، فبقدرة الله تعالى تسير السفن في البحر، ليصلوا بالركوب فيها إلى أماكن تجارتهم ومطالب معيشتهم، ويلتمسون فيها من رزق الله. والقرآن الكريم حين يعرض هذه المشاهد يذكر السامعين بنعم الله عليهم بما يسره لهم من أسفار البحر والنجاة من أخطاره. كما يندد بالمشركين الذين لايستغيثون به إلا حينما يقعون في الخطر ثم يعودون إلى شركهم بعد النجاة إلى جانب البر من الغرق، كفراً بنعمة الله وفضله، كأنما هم ظنوا أن قدرة الله تعالى في البحر دون البر إذ نجاهم بجانبه، والقرآن الكريم يجعل من هذه المشاهد مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية. والتي تقتضي بطلان عبادة غير الله، ورفض عبادة غيره، وعبادته دون سواه.

قال تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾[2].

عرضت الآية الكريمة مشهد البر والبحر، فبقدرة الله تعالى يتم تسيير السفن، وبقدرته الكاملة يسوق ويجري هذه السفن في البحر، وبفضله يتيسر الأنتقال إلى أماكن التجارة وغيرها من منافع الدنيا ومصالحها.

قال الطبري: (يقول الله للمشركين: الله ربكم هو الذي يسير لكم السفن في البحر فيحملكم فيها، لتصلوا بالركوب فيها إلى أماكن تجارتكم ومطالبكم ومعايشكم،

---

(1) مفاتيح الغيب (492/8).
(2) سورة الإسراء: 66-69.

وتلتمسون فيها من رزقه... ومعنى (يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ) يجري لكم السفن ويسيرها في البحر.

وإذا نالتكم الشدة والجهد في البحر (ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ): فقدتم من تدعون من دون الله من الأنداد والآلهة فلم ينجدوكم ولم يغيثوكم، فلما دعوتم الله أغاثكم وأجاب دعائكم ونجاكم من الهول)[1].

وعرض هذه المشاهد بالجملة الأسمية في قوله تعالى: (رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ) للدلالة على الدوام والثبات. كما أن تعريف طرفي الآية للدلالة على الأنحصار، أي ربكم الذي يزجي لكم الفلك لا غيره مما تعبدونه باطلاً، وهو الذي يفعل ذلك لكم[2].

وكما أفادت الجملة الأسمية توكيد المعنى، والثبات والاستمرار، فإن الفعل المضارع (يُزۡجِى) هنا دالاً على ما يتجدد من فعل الله سبحانه في كل حين[3].

والتعقيب على المشهد بقوله (إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا) بيان للمنافع والنعم، لأن المراد من الرحمة منافع الدنيا ومصالحها، وفيه تنبيه لموقع الامتنان ليرفضوا عبادة غيره مما لا أثر له في هذه المنة[4].

ثم تنتقل الآيات من مشهد التسيير في البحر إلى مشهد الخوف الشديد منالغرق، وتصوير حالة الإنسان في التضرع إلى الله تعالى عند حصول الخوف. وحاله بعد النجاة.

قال ابن كثير: (يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين، ولهذا قال تعالى: (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ) أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى... وقوله تعالى: (فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡ) أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر وأعرضتم عن دعائه وحده لا

---

(1) جامع البيان (96/5).
(2) ينظر: التحرير والتنوير (158/6).
(3) للتعرف على دلالة الجملة الأسمية، والجملة الفعلية. ينظر: دلائل الإعجاز (115)، البرهان (66/4)، الإتقان (316/2)، التحرير والتنوير(260/9).
(4) ينظر: مفاتيح الغيب (371/7)، روح البيان (216/5)، التحرير والتنوير (159/6).

شريك له (وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا) أي سجيته هذا، ينسى النعم ويجحدها)[1].

أبرز ما يلحظ في حديث القرآن عن الاضطراب الذي يلابس الإنسان، في هذه المشاهد، بين الخوف من الغرق، والفرح عند الإنجاد منها، والدعاء عند الشدة والإيمان بالله، والعودة إلى الشرك بعد النجاة، لأنه زائغ القلب، ليس لمواقفه، اعتقا صحيح، ومعرفة لحقيقة القدرة الإلهية التي كانت وراء هذا التسيير في البحر، والإنجاء من الغرق.

عرض القرآن الكريم لهذا الاضطراب عند الإنسان في قوله تعالى: (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا).

وعلى الرغم من الاختلاف القائم بين المفسرين في تعيين المراد بالإنسان في هذه الآية، أو في مواقفه في مثيلاتها كقوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴾[2].

أقول على الرغم من هذا الاختلاف، فإن الكافر يدخل فيها دخولاً أولياً، فإن أريد هنا جنس الإنسان بعامة باعتبار أنه موسوم بكفران النعمة، وهو قول كثير من المفسرين كالرازي وابن كثير وابو حيان والبروسوي والقاسمي وسيد قطب وابن عاشور[3].

فإن الكافر أبرز أفراد النوع الإنساني في هذا المجال، لأن هذا الاعتقاد الفاسد لا يزيله إلا الإيمان بالله وإستشعار حقيقة إلوهيته، فالذين لم يؤمنوا باقون على هذا الاضطراب، وإن أريد بالإنسان في هذه الآيات الكافر خاصة، وهو ما ذهب إليه جمع من المفسرين كالطبري والقرطبي[4].

وهو قول ظاهر، حيث وصف الإنسان في الآية الأولى بأنه كفور، وهو وصف خاص، وقد يعكر صفو هذا القول أن وصف الكفور يشمل الكفر بالله، وكفران

---

(1) تفسير القرآن العظيم (54/3)، ينظر: أنوار التنزيل (577/1) فقد ذكر البيضاوي في قوله تعالى: (وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا)كالتعليل للإعراض.
(2) سورة الأنعام: 63-64.
(3) ينظر: مفاتيح الغيب (371/7)، تفسير القرآن العظيم (54/3)، البحر المحيط (57/6)، روح البيان (217/5)، محاسن التأويل (495/6)، في ظلال القرآن (2420/4)، والتحرير والتنوير(158/6).
(4) ينظر: جامع البيان (96/5)، الجامع لأحكام القرآن (253/10).

النعمة، والإنسان متلبس بالوصف الثاني، وإن كان مجيء وصف كفور على صيغة المبالغة يؤيد القول الثاني، وعلى كل فإن الكفر بالله وكفران النعمة بينهما تلازم في أغلب الحالات. سيما وأن لفظ (الكفور أستعمله القرآن لمعنيين: لجحود النعمة والكفر في الدين)[1].

ومن أجل إظهار حقيقة القدرة الإلهية جاء ذكر جانب البر، فكما جاء ذكر البحر في الآية الأولى فهو جانب، والبر جانب وذلك في قوله تعالى: (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا) فقدرة الله على أن يغيبهم في الماء وقدرته على أن يغيبهم في الأرض سواء. قال الزمخشري: (فإن قلت فما معنى ذكر الجانب؟ قلت: معناه أنّ الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب براً كان أو بحراً سبب مرصد الهلكة، وليس جانب البحر وحده مختصاً بذلك، بل إن كان الغرق في جانب البحر، ففي جانب البر ما هو مثله وهو الخسف؛ لأنه تغييب تحت التراب كما أنّ الغرق تغييب تحت الماء، فالبر والبحر عنده سيان يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر)[2].

لقد ناسب بعد عرض هذه المشاهد، أن يأتي عرض مظاهر تكريم الإنسان، بعد أن بينت الآيات السابقة تلبس الإنسان بالكفر، وأنه موسوم به، كونه لا يحسن التعامل مع مظاهر النعمة، كما لا يحسن مواجهة السراء والضراء. وهي التي عرضت لها بإيجاز بما يناسب المقام، فإن هذه الصفات يتبعها مظاهر تكريم له وإعلاء شأنه، وقد يبدو من ظاهرها أنها تعكر صفو تلك المظاهر المميزة له، لكن الأمر ليس كذلك. قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[3].

وهنا يبين القرآن الكريم أن مشاهد الطبيعة التي ذكرتها الآيات السابقة وهي البر والبحر، ليس بمعزل عن تكريم الإنسان، بل هي مظهر من مظاهر تكريمه، وإظهار لمعنى خلافته في الأرض، وإشعاره برئاسته لهذا العالم المشهود، بما يحققه له من منفعة وخير.

قال الرازي: (من المدائح المذكورة في هذه الآية قوله: (وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ

(1) المفردات، للراغب مادة "كفر".
(2) الكشاف (500/2)، ينظر: مفاتيح الغيب (371/7)، أنوار التنزيل (377/1)، التحرير والتنوير (162/6).
(3) سورة الإسراء: 70.

وَٱلۡبَحۡرِ) قال ابن عباس في البر على الخيل والبغال والحمير والإبل وفي البحر السفن، وهذا أيضاً من مؤكدات التكريم المذكورة أولاً، لأنه تعالى سخر هذه الدواب له حتى يركبها ويحمل عليها ويغزو ويقاتل ويذب عن نفسه، كذلك تسخير الله تعالى المياه والسفن وغيرها ليركبها وينقل عليها ويكتسب بها مما يختص به ابن آدم، كل ذلك مما يدل على أن الإنسان في هذا العالم كالرئيس المتبوع والملك المطاع وكل ما سواه فهو رعيته وتبع له)[1].

وقد تتجلى حقيقة القدرة الإلهية والرحمة، في سياق واحد، كذلك المشهد الذي يعرضه القرآن الكريم، مشهد البحر الذي تختلط فيه عواطف البشر بتقلبات البحر، فبقدرة الله يتم التسيير في البر والبحر، وبرحمته يتم الإنجاء من أهوالها ومخاوفها، ثم يجعل القرآن الكريم هذا التسيير وهذا الإنجاء مجالاً تتجلى فيه قدرة الله ورحمته، مشيراً إليهما في عناصر الطبيعة الأرضية وظواهرها.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[2].

سبق هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴾[3].

فلما كان هذا الكلام كلاماً كلياً لا ينكشف معناه إلا بذكر مشهد جلي واضح، جاءت هذه الآيات بعرض مشهد الطبيعة ومشهد النفس وما يصاحبها من الخوف والرعب. فكانت هذه الآيات كالمفسرة للآية التي قبلها[4]. وهذا نوع من أنواع

---

(1) مفاتيح الغيب (375/7)، ينظر: تفسير القرآن العظيم (55/3-65)، العقيدة والفطرة في الإسلام (75)، وقد أورد ابن كثير عدد من الأحاديث التي دلت على تفضيل الإنسان على غيره ثم قال: (وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة).
(2) سورة يونس: 22-23.
(3) سورة يونس: 21.
(4) ينظر: مفاتيح الغيب (232/6)، البحر المحيط (141/5)، في ظلال القرآن (1773/3).

العلاقات بين الآيات ووجه من أوجه التناسب.

يبدأ المشهد بتقرير القدرة المسيطرة على هذا الكون كله بلا شريك، فإن الله تعالى هيأ أسباب هذا السير، في البر وفي البحر على حد سواء.

قال الرازي: (... إن المسير في البحر هو الله تعالى، لأن الله تعالى هو المحدث لتلك الحركات في أجزاء السفينة، ولاشك إن إضافة الفعل إلى الفاعل هو الحقيقة. فنقول: وجب أيضاً أن يكون مسيراً لهم في البر بهذا التفسير، إذ لو كان مسيراً لهم في البر بمعنى إعطاء الآلات والأدوات لكان مجازاً بهذا الوجه، فيلزم كون اللفظ حقيقة ومجازاً دفعه واحدة، وذلك باطل)[1].

وفي هذا إشارة إلى أن المسير في الحقيقة هو الله تعالى لا الريح، فإن الريح لا يتحرك بنفسه بل له محرك إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا يتحرك في نفسه أيضاً، بل هو منزه عن ذلك وعما يضاهيه سبحانه وتعالى[2].

فالتسيير في البر والبحر يتم بقدرة الله تعالى ثم ينتقل البيان من التسيير إلى جريان الفلك في البحر، بسبب الريح الطيبة، والمواتية لهم في سيرهم، وما يصاحب هذا الجريان من الفرح بما يكون لهم من الراحة والأمان، والتمتع بمنظر البحر الجميل، ثم تقع المفاجأة وتعصف الريح، ويضطرب الفلك، ويفزع هؤلاء الناس، ويظنون أنهم اهلكوا بإحاطة الموج من كل جانب.

قال البيضاوي: (وَجَرَيْنَ بِهِم) بمن فيها، عدل عن الخطاب إلى الغيبة للمبالغة كأنه تذكره لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم. (بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) لينة الهبوب. (وَفَرِحُواْ بِهَا) بتلك الريح (جَآءَتْهَا) جواب إذا والضمير للفلك أو الريح الطيبة، بمعنى تلقتها. (رِيحٌ عَاصِفٌ) ذات عصف شديد الهبوب. (وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ) يجيء الموج منه (وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ) أهلكوا وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن أحاط به العدو)[3].

عندئذ فقط، وفي وسط هذا الهول المتلاطم، تنكشف الفطرة السليمة، وتنهض بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه: (دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ

---

(1) مفاتيح الغيب (233/6).
(2) ينظر: روح البيان (45/4).
(3) أنوار التنزيل (432/1)، ينظر: محاسن التأويل (19/6)، تفسير المنار (338/11).

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ). فإذا هدأت العاصفة، واطمأن الموج، هدأت الأنفاس اللاهثة وسكنت القلوب الطائرة... وتصل الفلك أمنة إلى الشاطئ، ويوقن الناس بالحياة، وأرجلهم على اليابسة. (فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ) هكذا بغتة ومفاجأة. أنه مشهد كامل، لم تفتنا منه حركة ولا خالجة... مشهد حادث. ولكنه مشهد نفس، ومشهد طبيعة، ومشهد نموذج بشري لطائفة كبيرة من الناس في كل جيل[1].

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل التسيير في البر والبحر مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية، والإنجاء من أهوال البحر ومخاوفه عند اشتداد الريح مجالاً لرحمته، فإنه قد جعل الإنجاء من ظلمات البر والبحر مجالاً لهذه الحقائق. وأوردهما في سياق واحد.

قال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴾[2].

فبقدرة الله يتم الإنجاء من ظلمات البر والبحر ومخاوفهما و (ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ) مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما. يقال لليوم الشديد يوم مظلم، يوم ذو كواكب إذا اشتدت ظلمته[3].

قال الرازي: (واعلم إن هذا نوع آخر من الدلائل الدالة على كمال القدرة الإلهية، وكمال الرحمة والفضل والإحسان... (ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ) مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما: يقال لليوم الشديد يوم مظلم، ويوم ذو كواكب اشتدت ظلمته حتى عادت كالليل، وحقيقة الكلام فيه أنه يشتد الأمر عليه، ويشتد عليه كيف الخروج، ويظلم عليه طريق الخلاص، ومنهم من حمله على حقيقته فقال: أما ظلمات البحر فهي أن تجتمع ظلمة الليل، وظلمة البحر وظلمة السحاب، ويضاف الرياح الصعبة والأمواج الهائلة إليها، فلم يعرفوا كيفية الخلاص وعظم الخوف، أما ظلمات البر فهي ظلمة الليل وظلمة السحاب والخوف الشديد من هجوم الأعداء والخوف الشديد من عدم الاهتداء إلى طريق الصواب، والمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله تعالى، وهذا الرجوع يحصل ظاهراً وباطناً، لأن الإنسان في هذه الحالة يعظم إخلاصه في حضرة الله تعالى، وينقطع

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن (1774/3).
(2) سورة الأنعام: 63-64.
(3) ينظر: الكشاف (26/2)، البحر المحيط (154/4)، حيث قال ابو حيان: (وأكثر المفسرين على أن الظلمات مجاز عن شدائد البر، والبحر، ومخاوفهما، وأهوالهما).

رجاؤه من كل ما سوى الله تعالى، وهو المراد من قوله: (تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً)[1].

وسواء أكانت الظلمات الواردة في الآية الكريمة معنوية مجازية كما ذكر ذلك الزمخشري والرازي وابو حيان، أم حسية حقيقية أو تشمل الجنسين معاً كما هو ترجيح السيد رشيد رضا في تفسيره[2]. وسواء كان الأمر الأول أو الثاني أو الثالث؟ فإن الآية الكريمة تعرض نموذجاً حياً من مشاهد طبيعة البشر، وأن المفهوم المرتبط بالإنجاء من ظلمات البر والبحر يبقى قائماً كما هو لا يتبدل، ويجعله القرآن الكريم مجالاً تتجلى فيه حقيقية القدرة الإلهية، كما تتجلى فيه حقيقة الرحمة، ومشيراً إليها في عنصرين من عناصر الطبيعة وظاهرة من ظواهرها.

وبهذا يتبين أن الآيات الكريمة جعلت الإنجاء من ظلمات البر والبحر مجالاً للقدرة والرحمة، وأن النفس البشرية حيثما تقع في هذه الظلمات، تدعو وتتضرع وأن الفطرة تواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها. حقيقة الألوهية القادرة في إنجائها، في حين كانت الآيات من سورة يونس والسابقة لها في النزول وفي الترتيب المصحفي، جعلت التسيير في البر والبحر مجالاً للقدرة والإنجاء من أهوال البحر عند اشتداد الريح مجالاً للرحمة، فكل من الموضعين تناول جانباً معيناً من عناصر الطبيعة، ومفهوم الإنجاء واحداً ومجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة، في حين سبق هذين الموضوعين المشاهد التي عرضتها سورة الإسراء والتي بينت قدرة الله تعالى في التسيير في البحر وقدرته على التغييب في البحر وهو الغرق، وقدرته على التغييب في البر وهو الخسف، فكانت هذه النصوص متكاملة فيما بينها.

وفي ضوء هذا تبين لنا بعض أسرار تكرار القرآن الكريم لهذه المشاهد وما يترتب عليه من دعوة القرآن إلى استشعار حقيقة القدرة الإلهية. ومدى حاجة الإنسان إلى الإيمان بهذه الحقيقة، وأثر هذا الإيمان على النفس البشرية، في إزالة ما هي عليه من الاضطراب، والصفات السلبية وإخلاص العبادة لله وحده التي هي مقتضى التعريف بهذه الحقيقة.

وشبيه بهذا في بيان نعمة جريان السفن في البحر وملابسة نعمة الله على الناس. فكلما جرت بهم الفلك في البحر كانوا ملابسين لهذه النعمة بالسلامة، يوحي بقدرة الله البالغة وينفي كل قدرة موهومة في الإنجاء من أهوال البحر عند ارتفاع

(1) مفاتيح الغيب (19/5).
(2) ينظر: تفسير المنار (337/11) ليس من أغراض هذا البحث التعرض لمثل هذه المسائل التي تتسع لإختلاف الآراء، ولا تنتهي إلى قرار، لكنها اعترضت طريقي وأنا في سياق عرض مشاهد الطبيعة التي تعد مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة.

الموج، ما ورد في سورة لقمان[1]. فهو حديث عن خلق البحر على هذه الصفة العظيمة ميسراً للأنتفاع للأسفار فيه، فجعله الله (عز وجل) قابلاً لحمل المراكب العظيمة، وجري الفلك في البحر. يجعل منه القرآن الكريم مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية في بديع الصنع، فهي تجري في البحر وفق النواميس التي أودعها الله البحر والفلك والريح، فهي تجري بنعمة الله، ومع كل هذه النعمة فإن فريقاً من الناس يتخذون موجبات الشكر دواعي كفر، فإذا ركبوا في البحر وغشيهم الموج دعوا الله لينقذهم، فلما أنقذهم من خطر البحر من الغرق إلى البر انقسموا، فمنهم مقتصد في قوله وإقراره بربه، ومنهم يجحد وينكر آيات الله عند زوال الخطر.

ولكن هذا الذي بينه القرآن الكريم، ليس آية لكل الناظرين، ولكنه آية لكل صبّار شكور، صبّار في الضراء، شكور في السراء بما يشاهدون من هذه المشاهد المعروضة للرؤية.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾[2].

قال الطبري: (... ان في جريان تلك السفن في البحر دلالة على ان الذي أجراها هو الله، ولا يفهم هذا الدليل الا كل صبار، صبر نفسه عن محارم الله، وشكور يشكر الله على نعمه.

وقد اعتبرت الآية جريان السفن في البحر دلالة لكل صبار شكور، لأن الصبر والشكر من أفعال ذوي الحجة والعقول، وهذه الآيات عبر لذوي العقول والتمييز)[3].

وقال ابن كثير: (يخبر الله تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، أي بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل السفن لما جرت، ولهذا قال: (لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ) أي قدرته (آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ

(1) جعلت هذه الآيات من سورة لقمان في هذا الموضع خلافاً لمنهجي في هذا البحث، في ترتيب الآيات حسب ترتيب النزول، لكون المواضع الثلاثة السابقة تتناول نفس الجزئية من هذا الموضوع، وكون الحاجة دعت إلى ذلك، لاستكمال جوانب الموضوع، وذلك لم يفضِ إلى خلل.
(2) سورة لقمان (31 – 32).
(3) جامع البيان: (6/143-144).

شَكُورٖ)، أي صبار الضراء شكور في الرجاء)[1].

فإن سير الفلك في البحر لا يتم إلا بحصول أمور كثيرة، ليتم هذا التسيير، وإن هذا الجري الذي عبرت عنه الآية الكريمة بـ(بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ) سمي أمراً في مواضع أخرى في قوله تعالى: (أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ)[2]، أي بتقديره ونظام خلقه. وفي قوله تعالى: (ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ)[3]. أي بتسخيره.

قال ابن عاشور: (ويتعلق (لِيُرِيَكُم) بـ(تَجۡرِي) أي تجري في البحر جرياً، علة خلقه أن يريكم الله بعض آياته، أي آياته لكم فلم يذكر متعلق الآيات لظهوره من قوله: (لِيُرِيَكُم) وجري الفلك في البحر آية من آيات القدرة في بديع الصنع أن خلق ماء البحر بنظام، وخلق الخشب بنظام، وجعل لعقول الناس نظاماً، فحصل من ذلك كله أن إمكان سير الفلك في عباب البحر)[4].

وأضاف سيد قطب إلى هذه الأمور التي يتم بها التسيير بقوله: (والفلك تجري وفق النواميس التي أودعها الله البحر والفلك والريح والأرض والسماء. فخلقه هذه الخلائق بخواصها هذه هي التي جعلت الفلك تجري في البحر ولا تغطس أو تقف. ولو اختلت تلك الخواص أي اختلال ما جرت الفلك في البحر... فهي تجري بنعمة الله وفضله)[5]. فإن تسخير كل هذه المشاهد لتكون مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية.

وتنتقل الآيات من هذه المجالات بأسلوب التخلص إلى حال الناس أمام خطر الموج، وتعري النفوس من كل ما يخادعها ويحجب حقيقة فطرتها، وفزعهم بالدعاء إلى الله مخلصين له الطاعة، لا يشركون به، ولا يدعون معه أحداً، وبعد إنقاذهم من الغرق إلى البر، ينقسمون بين المقتصد وبين جاحد لآيات الله بعد زوال الخطر.

قال البيضاوي: ((وَإِذَا غَشِيَهُم) علاهم وغطاهم. (مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ) كما يظل من

---

(1) تفسير القرآن العظيم (457/3)، ينظر: محاسن التأويل (620/7).
(2) سورة الحج: من الآية 66.
(3) سورة الجاثية: من الآية 12.
(4) التحرير والتنوير (189/8)، ينظر: محاسن التأويل (620/7).
(5) في ظلال القرآن (2797/5).

جبل أو سحاب أو غيرهما...(دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ) لزوال ما ينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد. (فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ) مقيم على الطريق الذي هو التوحيد، أو متوسط في الكفر لانزجاره بعض الانزجار (وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ) غدار فإنه نقض للعهد الفطري، أو لما كان في البحر والخطر أشد الغدر. (كَفُورٖ) للنعم)[1].

وقد اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى: (فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ) إلى عدة أقوال:

مقتصد في قوله و إقراره بربه، وهو مع ذلك يضمر الكفر[2].

المتوسط في العمل[3].

متوسط في الكفر والظلم. أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر[4].

وقد رجح ابن عاشور الاقتصاد في الكفر بدلالة السياق على ذلك بقوله: (والمقتصد: هو التوسط بين الطرفين، والمقام دليل على أن المراد الاقتصاد بالكفر لوقوع تذييله بقوله: (وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ)[5].

وبهذا تكون هذه الآيات قد خصصت الكفور بالجاحد، فإن الذي يجحد هذه الآيات هو الغدار الكفور، في حين وصفت الآيات من سورة الإسراء الإنسان بصورة عامة بأنه كفور النعمة وبأنه متلبس بهذا الوصف. فما تم تعميمه هناك وأريد به جنس الإنسان، تم تخصيصه هنا في هذا الموضع المتأخر في النزول[6]. وهو نوع من أنواع العلاقات بين آيات الموضوع الواحد، ووجه من وجوه التناسب على مستوى أكثر من سورة.

---

(1) أنوار التنزيل (231/2).
(2) جامع البيان (143/6).
(3) ينظر: تفسير القرآن العظيم (457/3).
(4) ينظر: الزمخشري (380/3)، الرازي (132/9)، البيضاوي (231/2).
(5) التحرير والتنوير (191/8)، ولذلك قال ابن كثير: (ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعد ما انعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام، والدؤوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه، والله اعلم)، تفسير القرآن العظيم (457/3).
(6) ترتيب سورة الإسراء في النزول (50) وسورة لقمان (57).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، قال في سورة الإسراء: (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ) ثم قال: (فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ) وقال ههنا: (فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ) فلما ذكر ههنا أمراً عظيماً وهو الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار، وهناك لم يذكر معاينة مثل ذلك الأمر فوصف جنس الإنسان بالكفور حيث لم يبق عنده أثر.

وفي موضع آخر عرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة الأرضية، متمثلة في نزول الماء إلى الأرض وما بينت به من نبات وما يخرج منه من الحب والثمر المتباين والمختلف حجماً وشكلاً، بين قمح وعنب ورمان، متشابه في الخلق ومختلف في الطعم، وانتقاله من حال إلى حال، وجعل هذه المشاهد المقرونة بالنعم الإلهية مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية، وآية للمؤمنين تحملهم على الشعور بهذه الحقيقة.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

عرضت الآية الكريمة أنواعا من النعم: النبات الغض الطري، والحب المتراكم، والنخيل ذات العذوف الدانيات، و الجنات المزانة بالأعناب، والزيتون، والرمان وهذا كله مع ما فيه من منافع للإنسان، فهو متصل بفكره، إذ هو مجال تتجلى فيه قدرة الله وحكمته.

قال الرازي: (اعلم أن هذا النوع من الدلائل الدالة على كمال قدرة الله تعالى ورحمته ووجوه إحسانه إلى خلقه، واعلم أن هذه الدلائل، كما إنها دلائل فهي أيضاً نعم بالغة وإحسانات كاملة، والكلام إذا كان دليلاً من بعض الوجوه، وكان إنعاماً وإحساناً من سائر الوجوه. كان تأثيره في القلب عظيماً)[2].

وسياق الآية الكريمة يعرض المراحل والأطوار التي يمر بها النبات – كما هي في صفحة الطبيعة – ويلفت إليها الأنظار في شتى أطوارها، وأشكالها وأنواعها. وكل مرحلة من هذه المراحل تعد مجالا تتجلى فيه حقيقة القدرة.

فقوله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا) هو المجال الأول لهذه الحقيقة وهي تمثل الخلق الأول لكل النبات، فالماء

---

(1) سورة الأنعام: 99.
(2) مفاتيح الغيب (82/5).

ينزل من السماء بقدرة الله، والله تعالى الذي يرسل الرياح برحمته والرياح تهب حاملة للسحاب وفق النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون.

قال البيضاوي: (وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) من السحاب أو من جانب السماء (فَأَخْرَجْنَا) على تلوين الخطاب (بِهِۦ) بالماء (نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ) نبت كل صف من النبات والمعنى: إظهار القدرة في إنبات الأنواع المختلفة المفتتنة بماء واحد)[1].

والآية الكريمة تشير إلى حقيقة قرآنية وتوضحُ معنى عملياً (وهو أن الماء يثبت البذور فتخرج أجنة النبات من دور الركود، وتخصص أجزاء منه للأوراق في إنتاج المادة الخضراء وهي اللازمة لتكوين المادة الغذائية داخل عروق النبات فتتكون البذور والثمار)[2].

كما أن تشابه النبات من ناحية واختلافه من ناحية، يعد مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة، وهذا المجال ظاهر بوضوح، فتشابه النبات في صفاته، واختلافه فيها، مشهد معروض على الأنظار، يلفت القرآن إلى هذه الظاهرة الموحية بهذه الحقيقة، فهذا النبات كله بفصائله وسلالاته – (مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ) أي: (مشتبهاً في الخلق مختلفاً في الطعم)[3].

وروى ابن كثير عن قتادة أنه: (متشابه في الورق والشكل، قريب بعضه من بعض، متخالف في الثمار شكلا وطعماً وطبعاً)[4].

وانتقال ثمار النبات من حال إلى حال، منذ أن يبدأ ازدهاره في أول الأمر، حتى يتم ازدهاره عند اكتمال نضجه، فقد نبه القرآن الكريم على هاتين الحالتين، البداية والنهاية، وجعلها مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة ومن أجل إظهار هذه الحقيقة لأنهما أغرب في الوقوع.

قال الزمخشري: (ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ) إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلاً ضعيفاً لايكاد ينتفع به. وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدره ومدبره وناقله من حال إلى

---

(1) أنوار التنزيل (312/1).
(2) المنتخب في تفسير القرآن (189)، وللوقوف على تفاصيل العملية التي تقوم بها المادة الخضراء التي أشارت إليها الآية الكريمة بكلمة (ﭛ)، التي قرر العلم أنها أصعب وأعجب عملية تقوم بها الحياة وهي عملية (التمثيل الضوئي)، ينظر: الإسلام في عصر العلم (356)، الله والعلم الحديث (75).
(3) جامع البيان (478/3).
(4) تفسير القرآن العظيم (163/2)، ينظر: البحر المحيط (194/4).

حال)[1].

وقال ابو حيان: (النظر نظر رؤية العين، ولذلك عداه بـ(إِلَىٰ)، لكن يترتب عليه الفكر، والاعتبار، والاستبصار، والاستدلال، على قدرة باهرة، تنقله من حال إلى حال. ونبه على حالين الابتداء: وهو وقت ابتداء الاثمار، والانتهاء: وهو وقت نضجه، أي كيف يخرجه ضئيلاً ضعيفاً لا يكاد ينتفع به، وكيف يعود نضيجاً مشتملاً على منافع، ونبه على هاتين الحالتين وإن كان بينهما أحوال يقع بها الاعتبار والاستبصار، لأنهما أغرب في الوقوع وأظهر في الإستدلال)[2].

وقال ابن كثير: (وقوله تعالى: (ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ) أي نضجه، قاله البراء بن عازب، والضحاك، وعطاء الخراساني، والسدي، وقتادة، وغيرهم، أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حطباً، صار عنباً ورطباً، وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى، من الألوان والأشكال والطعوم... ولهذا قال ههنا (إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ) أي دلالات، على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته)[3].

وبهذه التفسيرات التي مرت يتبين كثرة المجالات التي عرضتها الآية الاكريمة، وإن كان القرآن الكريم قد ذكر أغرب الأحوال في الانتقال من حال إلى حال، لكن هناك أحوال يمر بها النبات يقع بها الاعتبار.

---

(1) الكشاف (40/2)، ينظر: محاسن التأويل (455/4).
(2) البحر المحيط (195/4).
(3) تفسير القرآن العظيم (63/2) للرازي في تفسيره تفصيل لطيف في الحالتين التي تمر بها الثمار والتي نبه إليهما القرآن الكريم، وفصّل القول في ذلك وربطه بمفهوم قدامى الفلاسفة الذين كانوا يرون أن ما يحدث في الأرض من ظواهر وتغيرات سببه الكواكب والأفلاك، ينظر: مفاتيح الغيب (78/5).

المبحث الثالث

الظواهـر الطبيعية

كما عرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية وبيان ما فيها من العناصر لتكون مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية، فإنه يعرض الظواهر الطبيعية الناشئة من النظام الكوني للغرض ذاته، وبيان ما فيها من المنافع والنعم الإلهية.

ومن الظواهر التي يعرضها القرآن الكريم، ظاهرة الليل والنهار، فمشهد قدوم الليل والنور يختفي والظلمة تغشى مشهد متكرر يدعو إلى التأمل والتفكر، وجريان الشمس والقمر دون اختلال أو اضطراب بل في مسار ثابت، في اتساق و التئام يجعل منها القرآن الكريم مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية.

قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾[1].

فتعاقب الليل والنهار ومسيرة الشمس والقمر التي لا تخطئ نهاراً ولا ليلاً يدل على أن وراءهما قوة عليا تسيطر على الكوكبين وأن سير الشمس والقمر إلى مستقر مقدر لا يحيد عنه يشهد أن وراءهما إلهاً قادراً مدبراً.

قال ابن كثير: (يقول تعالى ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة، خلق الليل والنهار هذا بظلامه وهذا بضيائه، وجعلهما يتعاقبان ويجيء هذا فيذهب هذا، ويذهب هذا فيجيء هذا، كما قال تعالى: (يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا)[2].

ولهذا قال (عز وجل) ههنا: (وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ) أي نصرمه منه، فيذهب فيقبل الليل ولهذا قال تبارك وتعالى: (فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ)[3].

وهنا لابد من الإشارة إلى أن قول ابن كثير بأن التعبير عن ظاهرة الليل

---

(1) سورة يس 37-40.
(2) سورة الأعراف: من الآية 54.
(3) تفسير القرآن العظيم (576/3).

والنهار في هذا الموضع هي كقوله تعالى: (يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا) ليس هذا مراداً من الآية الكريمة وأن الغشيان غير السلخ كونه يعني أنه يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء-كما معنا من قبل-.

وإن للتعبير القرآني على هذا الظاهرة في الموضع تعبيراً فريداً فهو يصور النهار متلبساً بالليل ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون. وكلمة السلخ تصور للعين انحسار الضوء عن الكون فيحل محله الظلام، فهو تعبير يصور الظاهرة كما هي في الواقع[1].

وقد أشار العلوي أن في الآية استعارة محسوس لمحسوس، فالمستعار له هو ظهور النهار من الليل وظلمته، والمستعار منه هو ظهور المسلوخ من جلده وكلاهما حسي، والجامع بينهما أمر عقلي، وهو خروج هذا من هذا[2].

ومن المشاهد التي ذكرتها الآية الكريمة، لتكون مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة، حركة الشمس والقمر في الفلك فإن الله تعالى قدر هذا الكون وجعل هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب، ووضع تصميم هذا الكون على هذا النحو ليحفظه من التصادم والتصدع كما مر معنا[3].

فإن سعة هذا الفضاء تنبئ عن القدرة الباهرة كما تنبئ عنها هذه الحركة.

قال المخشري: (لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ) لحد مؤقت مقدر تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة شبه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره، أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب؛ لأنها تتقصاها مشرقاً مشرقاً، ومغرباً مغرباً حتى تبلغ أقصاها، ثم ترجع فذلك حدّها ومستقرها؛ لأنها لا تعدو لحدّ لها في مسيرها كل يوم في مرأى عيوننا وهو المغرب... (ذَٰلِكَ) الجري على ذلك التقدير والحساب الدقيق الذي تكل الفطن عن استخراجه وتتحير الأفهام في استنباطه ما هو إلا تقدير الغالب بقدرته كل مقدور)[4].

وكما أن الشمس تسير في هذا الفلك الواسع، كذلك القمر يسير بقدرة الله تعالى وهو الذي قدر له مسيره في منازل[5].

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن (2968/5).
(2) ينظر: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (335/3)، القاهرة، المقتطف، 1332هـ - 1914م الإيجاز لأسرار كتاب الطراز، (373)، جواهر البلاغة، (239).
(3) ينظر: في هذا المبحث (ص   ).
(4) الكشاف (15/3)، ينظر: محاسن التأويل (64/8).
(5) ينظر: مفاتيح الغيب (277/9)، أنوار التنزيل (282/2).

وكما أن مسيرة الشمس والقمر لا تخطئ نهاراً ولا ليلاً، فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر والليل لا يسبق النهار ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

فلا يأتي للشمس أن تخرج عن نواميسها فتلحق القمر وتدخل مداره ولا الليل يتأتى له أن يغلب النهار ويحول دون مجيئه، بل هما متعاقبان وكل من الشمس والقمر وغيرهما يسبح في فلك لا يخرج عنه[1].

كما بينت الآيات الكريمة أن الليل وراء النهار لأن النهار أسبق من الليل في دورة الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق، فالأرض في دورانها حول نفسها إنما تجري نحو النور ومن وراء النور الظلام، فالنور دائما أمام الظلام وهما معاً في حركة وجريان[2].

وتتضمن الآيات الكريمة أن المجموعة الشمسية وما حولها تتحرك في الفلك، وأن الشمس تجري إلى بعيد فيه وليس إلى قريب، إذ لا ينبغي أن تلحق القمر بالنزول إلى فلكه، وأنها تجري لمستقر لها[3].

وفي موضع آخر يعرض القرآن الكريم ظاهرة الليل والنهار، فالتعاقب والاختلاف بين الليل والنهار، بذهاب أحدهما ومجيء الآخر، في دقة عجيبة لا تختل، وفي اطراد عجيب لا يتخلف، بل يسيران وفق ناموس منتظم وتقدير محكم، شاهد حي على قدرة الله التي لاتحد، ومجال تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية، يعرضها القرآن الكريم بعد الحديث عن قدرة الله تعالى في نصر من بغي عليه.

قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[4].

يربط السياق بين قدرة الله تعالى بالنصر لمن يعاقب بمثل ما عوقب به ثم يقع عليه البغي، يربط بين هذا الوعد وبين سن الله الكونية، ومنها – إيلاج الليل والنهار وعكسه – تلك الظاهرة الطبيعية التي تشهد بقدرة الله على تحقيق وعده. فالذي قدر على وضع هذا الناموس، في دخول الليل في النهار يطول في أول الشتاء، ودخول النهار في الليل وهو يمتد عند مطلع الصيف، القادر على أن ينصر من يقع عليه

---

(1) ينظر: المنتخب في تفسير القرآن (655).
(2) ينظر: البحر المحيط (323/7)، التفسير القرآني للقران (932/3).
(3) ينظر: الله والعلم الحديث (ص146).
(4) سورة الحج: 60-61.

البغي وهو يدفع عن نفسه العدوان. بل إن تكرار هذه الظاهرة صباحاً ومساء، وصيفاً وشتاءً ينبئ عن القدرة الحكيمة التي تصرف هذا الكون وفق تلك النواميس، أكثر من القدرة على تحقيق ذلك الوعد. فالأمر أهون عليه دون شك، بل إن ذلك النصر بسبب تلك القدرة البالغة، التي من مجالاتها هذا التعاقب.

قال الزمخشري: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك النصر بسبب أنه قادر. ومن آيات قدرته البالغة أنه ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرّفهما فلا يخفى عليه ما يجري فيهما علي أيدي عباده من الخير والشر والبغي والإنصاف، وأنه ﴿سَمِيعُۢ﴾ لما يقولون ﴿بَصِيرٞ﴾ بما يفعلون. فإن قلت: ما معنى إيلاج احد الَمَلَوَيْنِ في الآخر؟ قلت: تحصيل ظلمة هذا في مكان ضياء ذاك بغيبوبة الشمس. وضياء ذاك في مكان ظلمة هذا بطلوعها... وقيل: هو زيادته في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات)[1].

وقال البيضاوي: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك النصر. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ بسبب أن الله تعالى قادر على تغليب الأمور بعضها على بعض، جار عادته على المداولة بين الأشياء المتضادة ومن ذلك إيلاج احد الَمَلَوَيْنِ في الآخر، بأن يزيد فيه ما ينقص منه، أو بتحصيل ظلمة مكان ضوء النهار بتغييب الشمس وعكس ذلك باطلاعها)[2].

وهنا لابد من الإشارة إلى العلاقة بين هذه الظاهرة وبين التعقيب على الوعد بالنصر بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ فالمناسبة ظاهرة بين هاتين الصفتين وبين المشاهد المعروضة، لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر، وقد أكد هذا المعنى عدد من المفسرين وبينوا تعلق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾... أنه دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة، لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده [3].

فجاءت الآية التي تليها تبين المجال الذي يظهر هذه القدرة. فكما أن هاتين الصفتين متناسبة مع قبلها، فهي متناسبة مع ما بعدها من عرض المشاهد.

وبعد عرض هذا المشهد الذي يعد مجالاً للتعريف بحقيقة من الحقائق الإلهية، جاء التعقيب بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ

---

(1) الكشاف (128/3)، ينظر: مفاتيح الغيب (245/8)، البحر المحيط (355/6).
(2) أنوار التنزيل (94/2)، ينظر: محاسن التأويل (285/7).
(3) ينظر: الكشاف (128/3)، مفاتيح الغيب(245/8)، أنوار التنزيل (94/2)، البحر المحيط(355/6).

ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ)[1]. فإن هذا من مقتضيات التعريف بهذه الحقيقة ومن غاياتها وهي عبادة لله الحق، وبطلان كل ما عبد من دونه.

قال ابن كثير: (﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه (وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ) أي من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل)[2]. فإن ما يفعل من عبادته هو الحق وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل. ولما كان التعقيب من مقتضيات هذه الحقيقة، وغاياتها، جاء ترتيب الآية الكريمة ينبئ عن هذه الحقيقة و إظهارها، مرغباً في مقتضاها. قال الرازي: (...أي تعلق لقوله تعالى: (وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ) بما تقدم؟ والجواب: معنى العلي القاهر المقتدر الذي لايغلب فنبه بذلك على أنه القادر على الضر والنفع دون سائر من يعبد مرغباً بذلك في عبادته زاجراً عن عبادة غيره، فأما الكبير فهو العظيم في قدرته وسلطانه، وذلك أيضاً يفيد كمال القدرة)[3].

وإذا كان القرآن الكريم يربط بين قدرة الله في نصر من بغي عليه وبين قدرته على إيلاج الليل بالنهار في العهد المكي[4]، ويجعل من هذه الظاهرة مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة، فإنه يربط بين إتاء الملك ونزعه ومعاقبة الذل والعز، وبين قدرته على معاقبة الليل والنهار وإخراج الحي من الميت وعكسه وسعة فضله ورزقه في العهد المدني، للغرض ذاته.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ

---

(1) سورة الحج: 62.
(2) تفسير القرآن العظيم (338/3).
(3) مفاتيح الغيب (246/8).
(4) أعني بذلك الموضع السابق من سورة الحج، وهي من السور المختلف فيها، مع أن كثير من المفسرين ذكروا أنها مكية كالزمخشري والرازي والبيضاوي. وتجنباً لتجاهل الرأي القائل أن الأصل في المكي والمدني أن ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني، فهو أولى ما قيل في هذه المسألة كما ذكر كبار العلماء. ينظر: البرهان (187/1)، مصاعد النظر (161/1)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (5/9)، دار الفكر، بيروت، الإتقان (23/1). إلا أنه لا يستبعد أن ثمة آيات مكية وضعت في سور مدنية، والعكس إذ أن ترتيب الآيات توقيفي، لكن الذي أريد أن أبينه أن مكان نزول الآيات في مكة وليس في المدينة وذلك واضح من خلال سياق الآيات.

مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[1].

عرض القرآن الكريم ظاهرة الليل والنهار، وظاهرة خروج الحي من الميت، ورزقه من يشاء بغير حساب لتكون مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة، فإن من قدر على هذه الأفعال قادراً على إيتاء الملك ونزعه والإعزاز والإذلال.

قال الزمخشري (...ثم ذكر قدرته الباهرة بذكر حال الليل والنهار في المعاقبة بينهما، وحال الحي والميت في إخراج أحدهما من الآخر، وعطف عليه رزقه بغير حساب دلالة على أنّ من قدر على تلك الأفعال العظيمة المحيرة للأفهام ثم قدر أن يرزق بغير حساب من يشاء من عباده، فهو قادر على أن ينزع الملك)[2].

وينتقل البيان من ظاهرة الليل و النهار وولوج أحدهما بالآخر، إلى ظاهرة خروج النبات من الأرض اليابسة، وقد فهم المفسرون أن المراد من قوله تعالى: (وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ) هو خروج النبات من الحب وبالعكس، أو خروجه من الأرض الميتة[3]. وهي من الظواهر المشهودة التي تحصل في عالم النبات.

وبعد أن عرضت الآيات هذه المشاهد بينت قدرته تعالى على أن يرزق بغير حساب على من يشاء من عباده فجاء التعقيب على الآيات بقوله تعالى: (وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ) إن خاتمة الآية تحتمل أن يكون معناها:

إن الله يرزق من يشاء من عباده رزقاً عظيماً، دون أن يحاسبه عليه، أو يسأله عنه، وهذا منتهى الكرم من الله تعالى، ويحتمل أن يراد منها أن الله يرزق من يشاء من عباده رزقاً كثيراً لا حصر له ولا عد.

وتحتمل كذلك أن الله تعالى المتصرف المطلق في الكون، فهو سبحانه يرزق من يشاء من عباده دون أن يحاسبه أحد من خلقه على هذا التصرف، لأنه لا يُسأل عما يفعل.

وتحتمل كذلك أن الله يرزق من يشاء من عباده دونما تقتير أو محاسبة لنفسه خشية نفاذ ما عنده[4].

---

(1) سورة آل عمران: 26 – 27.
(2) الكشاف (169/1)، ينظر: أنوار التنزيل (154/1).
(3) ينظر: مفاتيح الغيب (191/3)، روح البيان (24/2).
(4) ينظر: النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز (117)، دار السعادة، القاهرة، ط1، 1960م.

وهذه المعاني جميعها تتناسب مع الآية السابقة، والتي بينت أنه تعالى: (مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ) أي يملك جنس الملك فيتصرف فيه تصرّف الملاك فيما يملكون، فإنه تعالى: (مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ) على الإطلاق[1].

والأفعال المضارعة في الجمل الفعلية في هذه الآيات دالة على ما يتجدد من فعل الله سبحانه وتعالى في كل حين.

وبهذا يتبين أن الآيات الكريمة أضافت على ظاهرة الليل والنهار، ظاهرة إخراج النبات من الأرض الميتة، وقدرته على أن يرزق بغير حساب، كون السورة مدنية [2]، والسور المدنية غالباً ما تأتي بمشاهد أكثر، في حين اقتصر الموضع السابق على ذكر ظاهرة الليل والنهار.

وبهذا يتبين أن الآيات الكريمة السابقة من سورة يس وسورة الحج، و سورة آل عمران عرضت مشهد الليل والنهار ليكون مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية. فالآيات الكريمة من سورة يس عرضت ظاهرة الليل والنهار، وعبرت عن ذلك بالسلخ الذي يعني خروج النهار من الليل، وصورت المشهد تصويراً يعتمد على الحقيقة، وجعلت من ذلك المشهد آية ترتبط بالفكر، وإن كان طريقها الحواس، ثم عرضت معها مشهد الشمس والقمر وجريانهما، وأشارت إلى سعة الفلك الذي يجريان فيه.

والآيات الكريمة من سورة الحج، عرضت المشهد نفسه الذي عرضته الآيات السابقة، لكنها اقتصرت على ذكر هذه الظاهرة، وعبرت عنه في هذا الموضع بالإلاج الذي يعني دخول الليل في النهار وعكسه، ولم يكن للشمس والقمر ذكر فيها، وربط السياق بين هذه الظاهرة، وبين قدرة الله في نصر من بغي عليه، مما يوحي بأن ذلك النصر هو إحدى هذه السنن التي لا تتخلف، فكانت كالمقابلة بين الوعد بالنصر وبين هذه الظاهرة.

والآيات الكريمة من سورة آل عمران، عرضت المشهد الذي عرضته المواضع السابقة، ثم عرضت معه مشهد إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، وقدرة الله تعالى على أن يرزق من يشاء بغير حساب، وربط السياق بين هذه الظواهر وبين قدرة الله في إيتاء الملك ونزعه والإعزاز والإذلال.

---

(1) ينظر: الكشاف (268/1)، مفاتيح الغيب (186/3-187)، روح البيان (23/2).

(2) السورة مدنية باتفاق العلماء والمفسرين، ومكان نزولها في المدينة في عام الأحزاب، وما ذكره الواحدي والزمخشري والرازي أنها نزلت في فتح مكة لم يصح، ينظر: أسباب النزول (102)، الكشاف (268/3)، مفاتيح الغيب (186/3)، وقد رد ابن حجر العسقلاني هذا الحديث، حيث قال: (ولم أجد له إسناداً) ينظر: الكافِ الشافِ في تخريج أحاديث الكشاف، ضبط وتوثيق: أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي (268/3) بهامش الكشاف.

ومع أن القضية واحدة ومجال العرض واحد إلا أن القرآن الكريم اتبع أسلوبا مختلفاً في هذه المواضع الثلاثة، ونوّع في طريقة عرضه وتناوله لهذه الظاهرة. فكانت هذه النصوص متكاملة فيما بينها حول هذه الظاهرة.

ثم يتبع السياق الذي عرض هذه الظواهر، بالإشارة إلى صفات الله تعالى، أو بيان حقيقة إلهيته الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وبيان أن كل ما عبد من دونه تعالى باطل، أو النهي عن موالاة الكافرين، والتحذير من سخط الله تعالى لمن يوالي أعدائه.

لذلك عقب على ظاهرة النهار متلبساً بالليل ونزعه، وجريان الشمس، بقوله تعالى: (وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ)[1].

وأتبع السياق ظاهرة إيلاج الليل بالنهار وعكسه بقوله تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ)[2].

وعقب على ظاهرة إيلاج الليل وعكسه، وإخراج الحي من الميت، ورزق الله لمن يشاء بغير حساب، بقوله تعالى: (لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ)[3].

فكان التعقيب على هذه الظواهر مختلفاً في هذه المواضع، تبعاً لاختلاف المشاهد التي تم عرضها، فضلاً عن اختلاف الأسلوب الذي تم به عرض الظواهر.

---

(1) سورة يس: 38.
(2) سورة الحج: 30.
(3) سورة آل عمران: 28.

الفصل الرابع

حقيقة العلم الإلهي

الفصل الرابع

حقيقة العلم الإلهي

مدخل..

كما جعل القرآن الكريم مشاهد الطبيعة مجالاً تتجلى فيه حقيقة وجوده ووحدانيته وتنزيهه وقدرته، كذلك جعل هذه المشاهد من السماء والأرض وما ينتج عنهما من ظواهر، ومشهد والبر والبحر مجالاً تتجلى فيه حقيقة العلم الإلهي.

وكما عبر القرآن الكريم عن علم الله وإحاطته بالكليات والجزيئات، وبأساليب مختلفة، وصور متباينة، بصورة نظرية، كقوله تعالى: (وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ)[1]. كذلك جعل سعة علم الله وإحاطته بالظاهر والباطن، وبالسماء والأرض...ومشاهد الطبيعة وما فيها من الإحكام والإتقان مجالاً تتجلى فيه حقيقة علم الله وشمول هذا العلم لكل ما في هذه الطبيعة المشهودة، كقوله تعالى: (أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ)[2].

وقد نوّع القرآن الكريم في عرضه لهذه المجالات، ففي مواضع منه يعرض مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية مقرونة بعلم الله بأحوال الناس وشؤونهم وأعمالهم، في حين نجده في مواضع أخرى يعرض مشاهد الطبيعة الأرضية وما فيها من بر وبحر، وما عليها من نبات رطب أو يابس، وما في هذه الأرض من حركة الحياة الصاعدة إلى سطحها المتمثلة في حبوب النبات الموجودة في الأرض، وما يخرج منها من الشجر والنبات. ما في جوفها، فإن الله يعلمها ومحيط بها.

فكانت مباحث هذا الفصل بحسب المجالات التي تظهر فيها هذه الحقيقة كالآتي:

---

(1) سورة البقرة: من الآية: 231.
(2) سورة المجادلة: 7.

المبحث الأول: الطبيعة السماوية والأرضية.
المبحث الثاني: الطبيعة الأرضية.
المبحث الثالث: الظواهر الطبيعية.

المبحث الأول

الطبيعة السماوية والأرضية

يعرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية، ويجعل منها مجالاً تتجلى فيه حقيقة العلم الإلهي، والله تعالى لايغيب عن علمه شيء، وما من شيء إلاّ وقد علمه الله تعالى وأحاط به، فالغائب والمشهود بالنسبة إلى علمه تعالى على السواء، وإن كان شديد الغيبوبة والخفاء، بل أن المغيبات الموجود منها والمعدوم في دائرة علمه، واستوى في علمه وجودها وعدمها.

قال تعالى:﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[1].

يربط السياق بين علم الله تعالى بما يخفيه الناس في أنفسهم ويسترونه، وما يعلنونه فإن السر والعلن داخل في علم الله تعالى، وبين علمه بكل ما يغيب في السماء والأرض، فالذي يعلم بكل ما في هذا الكون يتأكد أنه يعلم ما يخفي الإنسان وما يعلن، وأن الله تعالى مطلع على أقواله وأفعاله وإن اجتهد في الخفاء.

قال ابن كثير: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) أي يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر... ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة. وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه، فقال تعالى: (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ) قال ابن عباس: يعني وما من شيء)[2].

وقد جاء ترتيب الآية الكريمة ترتيبا تنبئ عن حقيقة العلم الإلهي وسعته وإحاطته بالخفاء والعلن، فجاء تقديم ما هو خفي على ما هو ظاهر مشهود.

قال الرازي: (...أنه قدم ما تكنه صدورهم على ما يعلنون من العلم والسبب أن ما تكنه صدورهم هو الدواعي والمقصود، وهي أسباب لما يعلنون، وهي أفعالالجوارح، والعلم بالعلة علة للعلم بالمعلول، فهذا هو السبب في ذلك التقديم)[3] ويمكن أن يكون ذكر ما يعلنون من أجل توسيع دائرة العلم للتنبيه على أنهما سواء

---

(1) سورة النمل: 74-75

(2) تفسير القرآن العظيم (278/2).

(3) مفاتيح الغيب (570/8)، ينظر: البحر المحيط (90/7).

بالنسبة إلى العلم الإلهي، وهذه من المعاني الثانوية التي يفيض بها النص ويحتملها والله أعلم.

كما أن مجيء الآية الكريمة بالأسلوب الخبري، من أجل إظهار حقيقة العلم الإلهي، ففي الخبر تقرير لعلم الله الشامل الكامل الذي لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض، وتنبيه للمخاطبين من غفلتهم، ولذلك جاء الخبر خالٍ من التأكيد[1]، لأنّ الله تعالى يخاطب قوماً لا يعلمون شيئاً عن الحكم الذي تضمنه الخبر، وهو حقيقة علمه تعالى. كما أن اختيار لفظه (غَآئِبَةٍ) مع مشاهد السماء والأرض من أجل إظهار هذه الحقيقة.

وقد أشار الزمخشري إلى ذلك بقوله: (سمي الشيء الذي يغيب ويخفى: غائبة وخافية، فكانت التاء فيها بمنزلتها في العافية و العاقبة. ونظائرهما: النطيحة، والرمية، والذبيحة: في أنها أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة؛ كالراوية في قولهم: ويل للشاعر من راوية السوء، كأنه قال: وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله وأحاط به)[2] ومن هنا يتبين سر التعبير القرآني بـ(غائبة) دون (شيء) التي هي في معناها-كما مر معنا في تفسير ابن عباس رضي الله عنهما المتقدم – فكانت الأولى قد أدت معنى أقوى و أدق في الدلالة على حقيقة العلم الإلهي.

وإنّ تنكير لفظ (كتاب) يساهم في إظهار هذه الحقيقة الثابتة والتي لا تقبل التغيير والتبديل، ويستدعي إثارة الذهن حول ماهيته (والكتاب يعبر به عن علم الله استعير له الكتاب لما فيه من التحقق وعدم قبول التغيير. ويجوز أن يكون مخلوقاً غيبياً يسجّل فيه ما سيحدث)[3].

وفي موضع آخر عرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية، من أجل أن تكون مجالاً تتجلى فيه حقيقة العلم الإلهي، والله عز وجل محيط بكل مضمر وظاهر، الذي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات والأرض، بل حتى لو كانت اصغر من الذرة أو أكبر، فإن ذلك محصورٌ

---

(1) تختلف صور الكلام في التعبير الخبري باختلاف حال المخاطب، فنراه حيناً مجرداً من أدوات التوكيد عندما يكون المخاطب خالي الذهن من مضمون الخبر، ويسمى هذا النوع "ابتدائياً" ونراه حيناً مؤكداً بمؤكد واحد حين يكون المخاطب في حالة تردد وشك في مضمون الخبر، ويسمى هذا النوع "طلبياً"، وأحياناً نراه مؤكداً بأكثر من مؤكد، حين يكون المخاطب في حالة إنكار، ويسمى هذا النوع "إنكارياً". ينظر: فن البلاغة، عبد القادر حسن(88) عالم الكتب، بيروت ط21405هـ - 1984 م.

(2) الكشاف (289/3)، ينظر: البحر المحيط (91/7).

(3) التحرير والتنوير (30/9).

في علم الله تعالى، فالقرآن يقول، والحديث عن علم الله تعالى فيما يكون للنبيﷺمن شأن من أعمال البر وما يتلو من قرآن:

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

قال ابن كثير: (يخبر تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) أنه يعلم أحواله و أحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات والأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين)[2].

فالذي علمه بما في الأرض والسماء، ولو كان في حجم الذرة أو صغر منها، مما يزيد تأكيداً أنه يعلم في شأن نبيه ﷺ، كما يعلم سبحانه أعمال العباد. وأن حكم الأمرين واحد، وكل ذلك داخل في علمه.

قال الرازي: (فان قيل: (إِذْ) ههنا بمعنى حين، فيصير تقدير الكلام إلا كنا عليكم شهوداً حين تفيضون فيه، وشهادة الله تعالى عبارة عن علمه، فيلزم منه أن يقال أنه تعالى ما علم الأشياء إلا عند وجودها وذلك باطل.

قلنا: هذا السؤال بناء على أن شهادة الله تعالى عبارة عن علمه، وهذا ممنوع، فان الشهادة لا تكون إلا عند وجود المشهود عليه، وأما العلم، فلا يمتنع تقدمه على الشيء، والدليل عليه أن الرسول عليه السلام، لو أخبرنا عن زيد أن يأكل غداً كنا من قبل حصول تلك الحالة عالمين بها ولا نوصف بكوننا شاهدين لها. واعلم أن حاصل هذه الكلمات أنه لا يخرج عن علم الله شيء، ثم أنه تعالى أكد هذا الكلام زيادة تأكيد، فقال: (وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)[3].

أبرز ما يلحظ في هذه المشاهد التي عرضتها الآية الكريمة تقديم الأرض على السماء خلافاً لما هو غالب في أسلوب القرآن الكريم، في تقديم السموات على

(1) سورة يونس: 61.
(2) تفسير القران العظيم (420/2).
(3) مفاتيح الغيب (273/6).

الأرض، لما لها من أهمية وتفاصيل في التكوين والإنشاء[1]، الذي كان من موجبات هذا التقديم. ويبدو أن تقديم الأرض في هذا الموضع يعود إلى الاقتران بين إحاطة علم الله تعالى بما في هذه المشاهد وبين علمه بشؤون أهل الأرض. وقد أشار إلى ذلك عدد من المفسرين ومنهم الزمخشري حين قال: (فان قلت لم قدّمت الأرض على السماء، بخلاف قوله: في سورة سبأ (لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ)[2] ؟ قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، لكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم، ووصل بذلك قوله لا يعزب عنه، لاءم ذلك أن قدّم الأرض على السماء، على أنّ العطف بالواو حكمه حكم التثنية)[3].

وكما جعلت الآية الكريمة المشاهد المعروضة مجالاً تتجلى فيه حقيقة العلم الإلهي، فإنها كذلك تمثل رداً على قول الفلاسفة بأن الله غير عالم بالجزئيات [4].

وفي موضع آخر بين القرآن الكريم أن علم الله تعالى وقدرته وسلطانه تشمل عناصر الطبيعة الضخمة، السماء البعيدة وما فيها، والأرض القريبة وما عليها، وذلك في قوله: (وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ)[5].

والتعبير دال على أن كل شيء في الطبيعة المنظورة هو مجال تتجلى فيه حقيقة علم الله، وشمول علم الله تعالى وسلطانه وهيمنته له.

قال الزمخشري: (فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ): متعلق بمعنى اسم الله، كأنه قيل وهو المعبود فيها ومنه قوله (وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ)[6]. أو هو المعروف بالإلهية، أو المتوحد بالإلهية فيهما. أو هو الذي يقال له: -الله–فيهما– لا يشرك به في هذا الاسم ويجوز أن يكون (ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ) خبر بعد خبر، على معنى: أنه الله وأنه في السموات والأرض بمعنى: أنه عالم بما فيهما لا يخفى عليه منه شيء)[7].

وقال البيضاوي: (...بمعنى أنه سبحانه لكمال علمه بما فيهما كأنه فيهما، ويعلم

---

(1) ينظر: التبيان في علم البيان (150).
(2) سورة سبأ: 3.
(3) الكشاف (264/2)، ينظر: مفاتيح الغيب (6 /274)، أنوار التنزيل (440/1)، أولى ما قيل في آيات التنزيل (206/4).
(4) للوقوف على تفاصيل هذه المسألة. ينظر: مفاتيح الغيب (6 /274– 275)
(5) سورة الأنعام: 3.
(6) سورة الزخرف: 84.
(7) الكشاف (6/2)

سركم وجهركم بيان وتقرير له وليس متعلقاً بالمصدر لأن صفته لا تتقدم عليه. (وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ) من خير أو شر فيثيب عليه ويعاقب)[1].

ويبدو أن المجسمة قد وجدت في مثل هذه الآية سبيلا للقول بالتلابس، واعتبار الخالق سبحانه مستقراً في السموات. قال ابن كثير: (أختلف مفسروا هذه الآية على أقوال، بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية[2]. الأول القائلين، تعالى عن قولهم علواً كبيراً، بأنه في كل مكان، حيث حملوا الآية على ذلك)[3]. وإنما الآية الكريمة كما أسلفت تدل على سعة علم الله وشموله، وسعة سلطانه وهيمنته.

قال الرازي: (... قلنا: المقصود من هذه الآية بيان كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات، فان الآيتين المتقدمتين يدلان على كمال القدرة، وهذه الآية تدل على كمال العلم وحينئذ يكمل العلم بالصفات المعتبرة في حصول الإلهية)[4]. ثم انبرى يرد على فكرة الأخذ بظاهر الآية، لما في ذلك من وصف الإله بصفات لا تليق به من تجسيم وتشبيه وحلول[5]. كون الأخذ بظاهر الآية هو السبب في التشبيه والتجسيم، والأخذ بالظاهر لا يسوغ دائماً في كلام الله كله.

وقد بين ابو حيان: (أن الآية الكريمة تدل على كمال علم الله وإحاطته بالكليات والجزيئات حين قال: (لما تقدم ما يدل على القدرة التامة والاختيار، ذكر ما يدل على العلم التام، فكان التنبيه على هذه الأوصاف دلالة على كونه قادراً مختاراً، عالماً بالكليات والجزيئات)[6]. وكان ابن عطية من قبل، يرى أن في الآية دليلاً على إحاطة إحاطة الله واستيلائه [7].

كما عبر القرآن الكريم عن علم الله بالجزيئات وبإحاطته بأعمال العباد، ولو كانت متناهية في الصغر، كحبة خردل في صخرة في الأرض، أو كانت أبعد من ذلك في السماء. ثم يجعل هذه المشاهد مجالاً تتجلى فيه تتجلى فيه صفات الله تعالى من دقة العلم وسعة القدرة، التي وردت على لسان لقمان الحكيم إذ قال لابنه مبيناً له

---

(1) أنوار التنزيل (293/1).
(2) الجهمية: فرقة منسوبة إلى زعيمها المعروف "الجهم بن صفوان" لهم عقائد زائفة منها التجسيم، ونفي الصفات، وإنكار رؤية الله في الجنة، والقول بخلق القران، والجبر. ينظر: الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي (199)، دار الجيل بيروت، 1408هـ - 1987م. جهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي، خالد العلي (61) فما بعدها بغداد، المكتبة الأهلية، 1965 م.
(3) تفسير القرآن العظيم (128/2)، ينظر: محاسن التأويل (319/4).
(4) مفاتيح الغيب (481/4).
(5) نظر: المصدر نفسه (481/4–482).
(6) البحر المحيط (77/4).
(7) المصدر نفسه (4/ 77).

هذه الحقيقة.

قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾[1].

قال الزمخشري: (أي: إن كانت مثلاً في الصغر والقماءة كحبة الخردل، فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي (يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ) يوم القيامة فيحاسب بها عاملها (إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ) يتوصل علمه إلى كل خفيّ (خَبِيرٞ) عالم بكنهه. وعن قتادة: لطيف باستخراجها، خبير بمستقرها)[2].

وقال البيضاوي: (يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ) أي أن الخصلة من الإحسان أو الإساءة إن تلك مثلاً في الصغر كحبة الخردل. (فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ) في أخفى مكان وأحرزه كجوف صخرة أو أعلاه كمحدب السموات أو أسلفه كمقعر الأرض. (يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ) يحضرها فيحاسب عليها. (إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ) يصل علمه إلى كل خفي. (خَبِيرٞ) عالم بكنهه)[3].

ولما كان علمه تعالى مطلقاً، يحيط بكل شيء كبيراً كان أو صغيراً، جاء التعبير في الآية دالٌ على هذه الحقيقة، مشيرٌ إلى اتساع دائرة عمله، فعبر المشهد عن التناهي في الصغر والخفاء، والبعد أو الشتات، والحجاب والإظهار.

وقوله: (إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ) إشارة إلى الصغر وقوله: (فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ) إشارة إلى الحجاب وقوله: (أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ) إشارة إلى الظلمات فإن جوف الأرض أظلم الأماكن وقوله: (يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ) أبلغ من القائل يعلمها الله لأن من يظهر له الشيء ولم

---

(1) سورة لقمان: 16.

(2) الكشاف (374/3)، ينظر: مفاتيح الغيب (120/9)، الانتصاف (374/3) بهامش الكشاف، وقد عد ابن المنير عرض المشهد في الآية من البديع الذي يسمى التتميم، يعني أنه تم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها من الصخرة. البحر المحيط (183/7)، محاسن التأويل (616/7).

(3) أنوار التنزيل (616/7).

يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله من العلم دون حال من يظهر له الشيء ويظهره لغيره[1].

وبعد أن بين لقمان الحكيم لابنه هذه الحقيقة من عظمة الله ودقة علمه وسعة قدرته، أمره بالإنابة إليه والتوجه لعباته، وذلك في قوله تعالى: (يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ)[2]، فأمر بما يلزمه من مقتضى هذا التعريف، وهو الصلاة وهي العبادة لوجه الله مخلصاً، والتمسك بما يرضاه من الأخلاق والآداب العالية، والأمر بالصبر من بين الفضائل ثم جاءت خاتمة الآية تبين أن كل هذه الأعمال المذكورة في الآية، هي من الأمور الواجبة المقطوعة (إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ) مما عزمه الله من الأمور، أي: قطعه قطع إيجاب وإلزام[3].

وبهذا يتبين أن الآية الكريمة قد أضافت على سابقتها في النزول، فما ذكر هناك مشهد السماء والأرض وما ذكر ههنا من مشاهد أكثر.

وفي موضع آخر عرض القرآن الكريم مشاهد السماء والأرض، بأسلوب خبري، يبين فيه الصورة الرائعة الواسعة المدى تقرير لحقيقة علم الله تعالى، وعبر عن علمه تعالى بأحوال موجودات الأرض، وخص منها (مَا يَلِجُ) و(وَمَا يَخۡرُجُ) دون ما يدب على سطحها، لأن الذي يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها يعلم كذلك ما يدب عليها، وعبر عن علمه تعالى بأحوال موجودات السماء، وخص منها (وَمَا يَنزِلُ) و(يَعۡرُجُ) دون ما يجول في أرجائها: لأن الذي يعلم ما ينزل من السماء وما يعرج فيها يعلم كذلك في أجوائها و فضائها من كائنات مختلفة.

قال تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴾[4].

عرضت هذه المشاهد في مطلع السورة، بعد بيان أحقيته بالحمد والثناء لأنه

---

(1) ينظر: مفاتيح الغيب (121/9)، البحر المحيط (183/7).
(2) سورة لقمان: 17.
(3) ينظر: الكشاف (375/3 – 376)، مفاتيح الغيب (221/9)، أولى ما قيل في آيات التنزيل (72/7).
(4) سورة سبأ: 2.

مالك السموات والأرض ومدير لهما، والتي ختمت بقوله تعالى: (وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ). ثم جاءت الآية تبين ما ورد في خاتمة الآية قبلها من هذين الوصفين له تعالى، بعرض هذه المشاهد.

الحكيم الذي يفعل كل ما يفعل بحكمة، ويدبر أمر الوجود الوجود كله بحكمة... الخبير الذي يعلم بكل شيء، وبكل أمر، وبكل تدبير علماً كاملاً شاملاً عميقاً يحيط بالأمور. ثم يكشف صفحة من صحائف علم الله، ومجالها الأرض والسماء[1].

والأسلوب الخبري في هذه الآية يكشف للمخاطبين عن العلم المطلق لله – سبحانه وتعالى– لجميع الموجودات في هذه الطبيعة، وما هو ليس من الطبيعة.

قال الزمخشري: (مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ) من الغيث.. ومن الكنوز و الدفائن و الأقوات، وجميع ما هي له كفات (وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا) من الشجر والنبات، وماء العيون، والقلة والدواب، وغير ذلك (وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ) من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق و الأرزاق والملائكة وأنواع البركات والمقادير، كما قال تعالى: (وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ)[2]. (وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا) من الملائكة و أعمال العباد)[3].

والآية الكريمة شملت جميع ما في هذه الطبيعة وما يحدث فيها وما يذهب منها، ولم يفلت عنها من ذلك شيء، جل من هذا كلامه، وذاك علمه ونظامه[4].

وأن ترتيب هذه المشاهد في هذه الآية جاء مطابقاً لما هي عليه في الواقع وفي الحقيقة لذلك (قدم ما يلج في الأرض على ما ينزل من السماء، لأن الحبة تبذر أولاً ثم تسقى ثانياً)[5].

كما أن استعمال التعبير للأفعال المضارعة دون غيرها يفيد استمرارية علم الله تعالى لجميع الأحداث التي عرضتها الآية، وفيها كذلك استشعار لحقيقة علمه تعالى من خلال استشعار ظلال هذه الأفعال، لما فيها من من الحركات والمشاهد والمعاني الشيء الكثير (ويقف الإنسان أمام هذه الصفحة المعروضة في كلمات قليلة، فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء والحركات، والأحجام، والأشكال، والصور،

---

(1) ينظر: في ظلال القرآن (2891/5)، أولى ما قيل في آيات التنزيل (118/7).
(2) سورة الذاريات: 22.
(3) الكشاف: (431/3) ينظر: أنوار التنزيل (455/2)، البحر المحيط (248/7)، محاسن التأويل (8/ 6).
(4) ينظر: أولى ما قيل في آيات التنزيل (118/1).
(5) مفاتيح الغيب (9/ 192).

والمعاني، والهيئات، لا يصمد لها الخيال!)[1]. كما أن تكرار لفظ (مَا) فيه دلالة على شمولية علمه – سبحانه – فهي دالة على عموم المخلوقات.

ولما كانت الآية عامة لما في الطبيعة، وما هو ليس منها، جاءت الخاتمة بعد هذه المشاهد بقوله تعالى: (وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ) رحيم بالإنزال حيث ينزل الرزق من السماء، غفور عندما تعرج إليه الأرواح و الأعمال، فرحم أولاً بالإنزال وغفر ثانياً عند العروج [2].

كما أنها تفيد الحث على طلب الرحمة والمغفرة لاسيما وأن أعمالهم ترفع إلى السماء، وفيها كذلك تعريف للمشركين أن يتوبوا عن شركهم، فتغفر لهم ذنوبهم، بعد معرفة هذه الحقيقة والإيمان بها، فإن سبب إمهاله لهؤلاء المشركين المعارضين لأنه (ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ).

وبهذا تكون الآية الكريمة تكون قد أضافت إلى سابقتها في النزول، وهي سورة لقمان[3]، فما ذكر هناك من مجالات خاص بالطبيعة، وما ذكر ههنا عام يكشف عن علمه تعالى بما هو في الطبيعة، وما هو ليس منها، بقوله تعالى: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) فما ذكر ههنا من مشاهد أكثر.

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل موجودات السماء والأرض مجالاً تتجلى فيه حقيقة العلم الإلهي، فإنه في موضع آخر عرض مشاهد السموات السبع المتطابقة، ونفى عن نظامها وإتقانها التخالف وعدم التناسب، في السموات وفي غيرها مما خلق الله تعالى ثم جعل منها مجالاً تتجلى فيه حقيقة قدرته وعلمه وأوردهما في سياق واحد.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾[4].

سبق عرض هذه المشاهد قوله تعالى: (ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ

(1) في ظلال القرآن (2891/5).
(2) ينظر: مفاتيح الغيب (9/ 192)، أنوار التنزيل (55/2).
(3) ترتيب سورة لقمان في النزول (57) و سورة سبأ (58).
(4) سورة الملك: 3 – 5.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ والتي ختمت بصفتين من صفات الله تعالى، فجاءت الآيات بعدها بعرض هذه المشاهد إثباتاً لما ورد قبلها من هذين الوصفين.

قال الرازي: (...فثبت أنه كونه عزيزاً غفوراً لايمكن ثبوتها إلاّ بعد ثبوت القدرة والعلم التام، فلهذا السبب ذكر الله الدليل على ثبوت هاتين الصفتين في هذا المقام، ولما كان العلم بكونه تعالى قادراً متقدماً على العلم بكونه عالماً، لاجرم ذكر اولاً دلائل القدرة وثانياً دلائل العلم)[1].

وقد فهم كبار المفسرين من التعقيب على المشاهد في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ بأنه نفي عدم التطابق والتناسب في كل ما خلق الله ومنه مشاهد الطبيعة المنظورة، والتي يتحقق فيها معنى التطابق، ومناسبة بعضها لبعض في النظام.

قال الطبري: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ الله هو الذي سبع سموات طباقاً، طبقاً فوق طبق، بعضها فوق بعض. ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾: ما ترى في خلق الله في السموات والأرض من اختلاف أو اضطراب)[2].

وقد فصّل القول في هذا الطاهر ابن عاشور كعادته، حيث قال: (وجاءت جملة: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ تقريراً لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ فإن نفي التفاوت يحقق معنى التطابق، أي التماثل، والمعنى: ما ترى في خلق الله السموات تفاوتاً، وأصل الكلام: ما ترى فيهن ولا في خلق الرحمن من تفاوت فعبر بخلق الرحمن لتكون الجملة تذييلاً لمضمون جملة ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ لأن انتفاء التفاوت عما خلقه الله متحقق في خلق السموات وغيرها، أي كانت السموات طباقاً لأنها من خلق الرحمن، وليس فيما خلق الرحمن من تفاوت ومن ذلك نظام السموات)[3].

كما أن الإشارة إلى الإتقان والنظام في هذه المشاهد، ونفي التفاوت، يجعل هذه المشاهد مجالاً تتجلى فيه حقيقة علم الله تعالى.

---

(1) مفاتيح الغيب (581/10).
(2) جامع البيان (361/7)، ينظر: الجامع لأحكام القرآن (184/18)، تفسير القرآن العظيم (387/5)، محاسن التأويل (189/9)، أولى ما قيل في آيات التنزيل (68/9).
(3) التحرير والتنوير (17/12).

قال الرازي: (اعلم أن وجه الاستدلال بهذا على كمال علم الله تعالى هو أن الحس دل على أن هذه السموات السبع، أجسام مخلوقة على وجه الإحكام والإتقان، وكل فاعل كان فعله محكماً متقناً فإنه لابد وأن يكون عالماً، فدل بهذه الدلالة على كونه عالماً بالمعلومات)[1]. ثم بين بعد ذلك دلالة قوله تعالى: (وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ) على حقيقة علمه تعالى، حيث قال: (اعلم أن هذا الدليل الثاني على كونه تعالى قادراً عالماً، وذلك لأن هذه الكواكب نظراً إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار خاص، وموضع معين، وسير معين، تدل على أن صانعها قادراً، ونظراً إلى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد من كونها زينة لأهل الدنيا، وسبباً لانتفاعهم بها، تدل على أن صانعها عالم)[2].

وإذا كان القرآن الكريم قد فصّل في العهد المكي في المجالات التي تتجلى فيها حقيقة العلم الإلهي، لكنه لم يبين شيئاً عن علمه بأعمال العباد سوى أنه ذكره إجمالاً أو مقروناً مع غيره من المشاهد، فإنه في العهد المدني قد بين مجالات علمه بعباده، فإنه كما يعلم بأعمالهم كذلك يعلم الأماكن والأزمنة، فالجميع في علمه سواء.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[3].

قال ابن كثير: (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ) أي يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر (وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا) من نبات وزرع وثمار... وقوله تعالى: (وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ) أي من الأمطار. والثلوج والبرد والأقدار. والأحكام مع الملائكة الكرام. وقوله تعالى: (وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ) أي الملائكة والأعمال. وقوله تعالى: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ) أي رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين ما كنتم من بر أو بحر، في ليل أو نهار، في البيوت أو في القفار، الجميع في علمه على السواء وتحت بصره وسمعه فيسمع

---

(1) مفاتيح الغيب (582/10).
(2) مفاتيح الغيب (583/10).
(3) سورة الحديد: 3

كلامكم ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم)[1].

فالذي يعلم بأحوال موجودات الأرض، وموجودات السماء وأجوائها، فإنه يعلم بأعمال عباده وأماكنهم وسرهم وعلانيتهم.

قال الخطيب الموصلي: (...ثم أجمل سلطانه على ذلك الكون، بيان إحاطة علمه فيه واطلاعه على مخافيه فقال (يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ) فقد استوعبت هذه الجملة جميع الموجودات على الإطلاق. ثم زاد بيان دقة علمه سبحانه بقوله (وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ) وهذا تمثيل لإحاطة ودقة علمه تعالى بهم وبشؤونهم وتصوير له، قرره بقوله: (وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ) لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، ويجازي عليها بالإحسان حسناً وبالإساءة سوءاً)[2].

فلما قال تعالى: (وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ) ناسب أنه يقدم العمل على البصر في خاتمة الآية فقال تعالى: (وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ) فإن في هذا دلالة على أنه معهم. يضاف إلى ذلك أن الآيات ذكرت عملهم بعد ذلك. قال تعالى: (وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ)[3] فكانت تأسيساً لأمر آت، فناسب تقديم العمل[4].

وشبيه بهذا في بيان هذه الحقيقة العظيمة في العهد المدني، وجعل مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية وما فيهما مجالاً من مجالات التعريف بحقيقة علمه تعالى، ما ورد في سورة المجادلة. قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾[5].

سبق عرض هذه المشاهد قوله تعالى: (يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ

---

(1) تفسير القرآن العظيم (296/4)، ينظر: محاسن التأويل (9/ 27).
(2) أولى ما قيل في آيات التنزيل (207/8)، ينظر: روح البيان (416/9).
(3) سورة الحديد: من الآية: 7.
(4) من أسرار البيان القرآني (133).
(5) سورة المجادلة: 7.

أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ) فلما بينت الآية الكريمة إحاطة علمه تعالى بجميع الأعمال من الكمية والكيفية، والزمان والمكان لأنه عالم بالجزئيات، لا يغيب عنه أمر من الأمور[1]. جاءت الآية بعدها تعرض مشاهد الطبيعة التي تؤكد بيان كونه عالماً بالمعلومات.

وابتداء الآية الكريمة بالاستفهام التقريري الدّال على سعة علم الله سبحانه وتعالى، وإحاطته بموجودات الكون.

وقد اتفقت عبارات المفسرين[2] بأن الخطاب في الآية للمنافقين (لإشعارهم بعلم الله بما يتناجون، وأنه مُطْلع رسوله ﷺ على دخيلتهم، ليكفوا عن الكيد للمسلمين) [3]. ويمكن أن تكون الآية لكل من يستحق الخطاب[4].

وفي قوله "أَلَمْ تَرَ " من الرؤية العلمية؛ لأن علم الله يدرك بالعقل. قال الرازي: (قال ابن عباس: (أَلَمْ تَرَ) أي: ألم تعلم وأقول هذا حق لأن كونه تعالى عالماً بالأشياء لا يرى، ولكنه معلوم بواسطة الدلائل، وإنما أطلق لفظ الرؤية على هذا العلم، لأن الدليل على كونه عالماً، هو أن أفعاله محكمة منتسقة منتظمة، وكل من كانت أفعاله كذلك فهو عالم.

أما المقدمة الأولى: فمحسوسة مشاهدة في عجائب السموات والأرض وتركيبات النبات والحيوان.

أما المقدمة الثانية: فبديهية، ولما كان الدليل الدال على كونه تعالى كذلك ظاهراً لاجرم بلغ هذا العلم والاستدلال أعلى درجات الظهور والجلاء، وصار جارياً مجرى المحسوس المشاهد، فلذلك أطلق لفظ الرؤية فقال: (أَلَمْ تَرَ)[5].

وفي قوله تعالى: (أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ) جملة خبرية تشمل على حقيقة عظيمة لذا فقد أكدت بحرف التأكيد "أَنَّ" والجملة الأسمية[6]، وأختيار الفعل

(1) ينظر: الكشاف (368/4)، مفاتيح الغيب (488/10)، أنوار التنزيل (474/2)، روح البيان (469/9)، أولى ما قيل في آيات التنزيل (7/9).

(2) ينظر: الكشاف (368/4)، مفاتيح الغيب (490/10)، أنوار التنزيل (475/2)، أولى ما قيل في آيات التنزيل (8/9)، التحرير والتنوير (25/29).

(3) التحرير والتنوير (25/29)

(4) ينظر: روح البيان (469/9).

(5) مفاتيح الغيب (489/10).

(6) كون الخطاب للمنافقين، وهؤلاء في حالة إنكار، فأمام شدة إغفالهم لهذه الحقيقة وإنكارهم لها اشتد التأكيد في الخبر فجاء مؤكداً بمؤكدين، للتعرف على أحوال الخبر "أضرب الخبر" =

المضارع "يَعْلَمُ" لشمول علم الله واستمراريته في كل زمان ومكان.

=
وأغراضه، ينظر: علم المعاني (50)، فن البلاغة (88)

المبحث الثاني

الطبيعة الأرضية

كما جعل القرآن الكريم المشاهد السماوية والأرضية مجالاً تتجلى فيه حقيقة العلم الإلهي، كذلك جعل مشاهد الطبيعة الأرضية خاصة، للغرض ذاته. ولعل أبرزها، ذلك المشهد الذي يجمع الطبيعة الأرضية كلها، ويتمثل في البر والبحر، والرطب واليابس، والكبير والصغير، ثم يجعل منها القرآن الكريم مجالاً تتجلى فيه هذه الحقيقة.

قال تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾[1].

ففي الآية الكريمة تقرير لحقيقة العلم الإلهي وأن مفاتح الغيب بيد الله لا يعلمها إلا هو، وقد أحاط علمه بكل صغيرة وكبيرة ودقيقة وجليلة في الأرض والبر والبحر والظلمات، كما أنها عرضت ألواناً شتى من علم الله الشامل المحيط الذي لا يعزب عنه شيء في الزمان والمكان، وفي البر والبحر وفي جوف الأرض وفي طباق البحر، من حي وميت، ويابس ورطب.

قال رشيد رضا في تفسيره الآية الكريمة: (وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ)... وعلمه تعالى في البر والبحر من علم الشهادة، المقابل لعلم الغيب، على أن أكثر ما في خفايا البر والبحر، غائب عن علم أكثر الخلق، وإن كان في نفسه موجوداً، يمكن أن يعلمه الباحث منهم عنه... (وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا) أي وما تسقط من ورقة ما من نجم أو شجر إلا يعلمها لإحاطة علمه بالجزئيات كلها. (وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ) أي وما تسقط من حبة بفعل فاعل مختار في ظلمات الأرض كالحب الذي يلقيه الزراع... أو بغير فاعل، كالذي يسقط من النبات في شقوقها وأخاديها، وما يسقط من رطب ولا يابس من الثمار ونحوها إلا في كتاب مبين)[2].

---

(1) سورة الأنعام: 59.
(2) تفسير المنار (457/7).

فإن تخصيص البر والبحر، لأنها مما يقعان تحت حواسنا، وقوعاً دائماً متصلاً، ومع هذا فإنهما مما هو غيب عنا، إذ كل ما نعلم من أمرهما، هو قليل إلى ما لا نعلم... ثم إن هذا العلم الذي نعلمه هو جهل بالنسبة لعلم الله، الذي يعلم حقائق الأشياء، وما أودعه من أسرار، أما علمنا فهو واقف عند ظواهرها، ولا ينفذ إلى الصميم من أعماقها[1].

كما أن التعبير في الآية بأسلوب التصوير، عن طريق المحسوسات من أجل إظهار حقيقة العلم الإلهي، وتقريب المعاني من أذهان الناس، الذين لا تؤثر فيهم المسائل العقلية المحضة، والتصورات التجريدية.

قال الرازي: (... والحق سبحانه لما كان عالماً بجميع المعلومات عبر عن هذا المعنى بالعبارة المذكورة... ثم أعلم أن ههنا دقيقة أخرى، وهي: أن القضايا العقلية المحضة يصعب تحصيل العلم بها على سبيل التمام والكمال، إلا للعقلاء الكاملين الذين تعودوا الإعراض عن قضايا الخيال وأَلِفوا استحضار المعقولات المجردة، ومثل هذا الإنسان يكون كالنادر، وقوله: (وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ) قضية عقلية محضة مجردة فالإنسان الذي يقوى عقله على الإحاطة بمعنى هذه الحقيقة نادراً جداً. والقرآن إنما أنزل لينتفع به جميع الخلق. فههنا طريق آخر وهو أن من ذكر القضية العقلية المحضة المجردة، فإذا أراد إيصالها إلى عقل كل أحد ذكر لها مثالاً من الأمور المحسوسة الداخلة تحت القضية العقلية ليصير ذلك المعقول بمعاونة هذا المثال المحسوس مفهوماً لكل أحد، والأمر في هذه الآية ورد على هذا القانون، لأنه قال أولاً: (وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ) ثم أكد هذا المعقول الكلي المجرد بجزئي محسوس فقال: (وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ) وذلك لأن أحد أقسام معلومات الله هو جميع دواب البر، والبحر، والحس، والخيال قد وقف على عظمة أحوال البر والبحر، فذكر هذا المحسوس يكشف عن حقيقة عظمة ذلك المعقول)[2].

وبهذا التفسير يتبين كيف سلك القرآن الكريم هذا الأسلوب الرائع من أجل إظهار هذه الحقيقة.

وإذا كان القرآن الكريم قد عرض مشاهد الطبيعة الأرضية، وذكر عناصر هذه الطبيعة إجمالاً، فإنه في موضع آخر فصّل في هذه العناصر تفصيلاً دقيقاً إظهاراً لحقيقة العلم الإلهي الذي لا حدود له، ثم يجعل من هذه المشاهد مجالاً تتجلى فيه هذه

(1) ينظر: التفسير القرآني للقرآن (201/4)
(2) مفاتيح الغيب (10/5-11)، ينظر: في ظلال القرآن (249/3).

الحقيقة.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

إن العدول عن صيغة الجمع إلى صيغة المفرد، من أجل إظهار هذه الحقيقة التي سيق الكلام من أجلها، وهي حقيقة علمه تعالى، فإن مجيء لفظ (شَجَرَةٍ) مفردة، ولم تجيء مجموعة، لهذا السبب. وفي هذا يقول الزمخشري: (فإن قلت: لم قيل: (مِن شَجَرَةٍ) على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر ؟ قلت: أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة، حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلاماً)[2].

كما أن جمع لفظ (بحر) جمع قلة، لقوله: (أَبْحُرٍ) من أجل إظهار هذه الحقيقة ولأن المقام يتصل ببيان قدرة الله، وعظم عمله الذي لا يحد، ففيه إشعار بأن هذا القليل لايفى بالإحاطة بكلمات الله لتكتب به، فكيف بالكثير منها منها، وقد أشار البيضاوي إلى ذلك فقال: (وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ)... وإيثار جمع القلة للإشعار بأنّ ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير)[3].

فيكون معنى الآية: لو أن أشجار الأرض أقلام، والبحر ممدود بسبعة أبحر، وكتبت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله، ما نفدت، ونفدت الأقلام، والمداد الذي في البحر[4].

وبعد هذا العرض لهذا المشاهد جاء التعقيب بقوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) أي كامل القدرة فيكون له مقدورات لا نهاية لها، وحكيم كامل العلم ففي علمه مالا نهاية[5].

وبهذا يتبين أن هذه الآية قد فصلت ما ذكر في الآية السابقة، فما ذكر هناك من البحر وأوراق الشجر، تم تفصيله ههنا، وبيان إحاطة علم الله بالجزئيات الفائتة للحصر كمداد البحر وأغصان الشجر.

وشبيه بهذا في بيان حقيقة علمه تعالى، وإحاطته بكل شيء، ما ورد في سورة

---

(1) سورة لقمان: 27
(2) الكشاف: (379/3)، ينظر: مفاتيح الغيب (128/9)، البحر المحيط (186/7).
(3) أنوار التنزيل (230/2)
(4) ينظر: البحر المحيط (187/7)، تفسير القرآن العظيم (456/3).
(5) ينظر: مفاتيح الغيب (129/9)، البحر المحيط (187/7).

الكهف، فهو حديث عن هذه الحقيقة، فلو كتبت كلمات علم الله وكان البحر مداداً لها لنفذ قبل أن تنفذ الكلمات، فإن البحار كيفما كانت في الاتساع والعظمة فهي متناهية وعلم الله تعالى غير متناهي. فالقرآن الكريم لم يكتف، من أجل إظهار حقيقة العلم الإلهي بالمجالات التي يعرضها في بيان الحقائق الإلهية المتقدمة، وإنما يعرض مجالات أدق وجزيئات أذق وجزيئات أكثر كونها فائتة في الحصر فهو يخبر الرسول ﷺإلى بيان هذه الحقيقة للناس.

قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾[1].

قال ابن كثير: (يقول تعالى: قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه، لنفذ البحر قبل أن يفرغ ذلك (وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ) أي بمثل البحر آخر، ثم آخر وهلم جراً بحور تمد ويكتب بها لما نفذت كلمات الله... وقال الربيع بن أنس / إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها)[2].

وقال ابو حيان: (قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ) أي ماء البحر مداداً، وهو ما يمد به الدواة من البحر، وما يمد به السراج من السليط، ويقال السماء مداد الأرض (لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي) أي: مَعَدَّاً لكتب كلمات ربي وهو علمه وحكمته، وكتب بذلك المداد (لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ) أي فني ماءه الذي هو المداد (قَبۡلَ أَن تَنفَدَ) الكلمات لأن كلماته تعالى لا يمكن نفادها لأنها لا تتناهى والبحر ينفد لأنه متناه ضرورة)[3]. ومن أجل إظهار حقيقة علمه تعالى فقد جاء في الآية الكريمة إظهار (ٱلۡبَحۡرُ) وهو المجال الذي تتجلى فيه هذه الحقيقة و (الكلمات) التي تعني هذه الحقيقة. قال أبو السعود: (وإظهار (ٱلۡبَحۡرُ) و(الكلمات) في موضع الإضمار، لزيادة التقرير)[4]، كما أن إضافة (الكلمات) إلى اسم الرب، المضاف إلى ضميره ﷺ في الموضعين، فيه تفخيم المضاف وتشريف المضاف إليه[5].

---

(1) سورة الكهف: 109.
(2) تفسير القرآن العظيم (111/3)، ينظر: محاسن التأويل (84/5).
(3) البحر المحيط (159/6-160).
(4) إرشاد العقل السليم (215/5).
(5) ينظر: المصدر نفسه (251/5).

المبحث الثالث

الظواهر الطبيعية

كما عرض القرآن الكريم مشاهد الطبيعة السماوية والأرضية معاً ومشاهد الطبيعة الأرضية خاصة، وجعلها وجعلها وجالاص تتجلى فيه حقيقة العلم الإلهي، فإنه يعرض الظواهر الطبيعية الناتجة عن هذه العناصر للغرض ذاته، ويربط بينها وبين علمه تعالى بالظاهر والمضمر.

وإذا كان القرآن الكريم قد جعل مشهد خروج النهار من الليل ليحل محله الظلام، المعبر عنه بالسلخ وجريان الشمس والقمر مجالاً تتجلى فيه حقيقة القدرة الإلهية فإنه جعل مشهد الليل وهو يطول فيدخل في جسم النهار والنهار وهو يطول فيدخل في جسم الليل فيزداد وينقص كل منهما، ومشهد الشمس والقمر مسخران في فلكيهما يجريان في حدود مرسومة إلى وقت محدد، مجالاً تتجلى فيه حقيقة علمه تعالى، التي لا يحتاج إدراكها إلى أكثر من رؤية هذه الظاهرة، لأن الله وحده هو الذي أنشأ هذا النظام وحفظه بقدرته وعلمه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[1].

فالله سبحانه هو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل بقدرته وسعة علمه، ومعنى يولج يدخل[2].

إي يدخل الظلام في مكان النور، كما يدخل النور مكان الظلام. فهما يتبادلان المكان لدوران الأرض حول نفسها[3].

---

(1) سورة لقمان: (29-30).
(2) ينظر: الكشاف (422/1)، أنوار التنزيل (154/1).
(3) ومما يؤيد هذا الذي ذكرت أن: (من المشاهدات التي أدلى بها رجل الفضاء الروسي (جارجيان) بعد دورانه حول الأرض: أنه شاهد (تعاقباً سريعاً) للظلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحوري حول الشمس)، الإسلام يتحدى (مدخل علمي إلى الإيمان)، وحيد الدين خان، (213) تعريب ظفر الإسلام خان ومراجعة وتحقيق: عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1، 1970م.

قال الطبري: (يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ)، حيث يزيد من ساعات الليل في ساعات النهار (وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ)، حيث يزيد من ساعات النهار في الليل (وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى)، وسخر الله الشمس والقمر لمصالح ومنافع خلقه وكل منهما يجري بأمر الله إلى وقت معلوم)[1]. والخطاب في الآية الكريمة موجه إلى غير معين، وإن كان قد خصه بعض المفسرين كالطبري[2]. بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ومنهم من جعله يحتمل الوجهين[3] والأول أقرب لوجود قرائن تدل على هذا المعنى:-

الأولى: قوله تعالى في خاتمة الآية الكريمة: (وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ) والمقصود به المشركون[4]. يضاف إلى ذلك أن العمل جاء مقدماً على صفته تعالى (خَبِيرٞ) لأن السياق يربط بين مجالات علمه تعالى في الظواهر الطبيعية، وبين الإنسان وعمله[5]. وكما أن المشرك داخل في جنس الإنسان، كذلك عمله داخل في علم الله تعالى.

والثانية: قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وأبي بكر عن عاصم بالتاء في قوله تعالى: (وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ) في الآية التي تليها، فيكون المراد به المشركين[6]. والرد عليهم في إشراكهم به، بعد أن عرضت الآية السابقة التعريف بحقيقة علمه وقدرته تعالى في مجال الظواهر الطبيعية. فإن للقراءات دوراً في ترجيح هذا المعنى.

قال الزمخشري: (كل واحد من الشمس والقمر يجري في فلكه ويقطعه إلى وقت معلوم: الشمس إلى آخر السنة، والقمر إلى آخر الشهر، وعن الحسن: الأجل

---

(1) جامع البيان (142/6).
(2) المصدر نفسه (142/6).
(3) ينظر: مفاتيح الغيب (130/9).
(4) ينظر: روح البيان (117/7)، التحرير والنوير (185/8).
(5) للوقوف على الأسباب التي اقتضت تقديم العمل على الخبرة وبالعكس في المواضع التي ذكرا فيهما. ينظر: من أسرار البيان القرآني (135/133).
(6) ينظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، للشيخ أحمد بن محمد البنا، تحقيق: د. شعبان محمد اسماعيل (364/2)، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1428هـ 2007م، كما ذكر هذه القراءة البيضاوي في تفسيره، وابن عاشور، ينظر: أنوار التنزيل (231/2)، التحرير والتنوير (186/8).

المسمى: يوم القيامة لأنه لا ينقطع جريانهما إلا حينئذ. دلّ أيضاً بالليل والنهار وتعاقبهما وزيادتهما ونقصانهما وجري النيرين في فلكيهما كل ذلك على تقدير وحساب، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق: على عظم قدرته وحكمته)[1].

قال الخطيب الموصلي: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ) فيزداد وينقص كل منهما تبعاً لحركة الأرض السنوية في فلكها وميلها عن محورها. وذلك النظام البديع الدال على علم الله العظيم وحكمته البالغة وإتقانه السديد (وَ) بهذا النظام (وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) ينتهي به عمر الكون وتقوم قيامته)[2].

ولئن تعددت عبارات المفسرين في جريان الشمس والقمر و المراد من قوله تعالى: (كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى) فمنهم من فسره إلى يوم القيامة[3].

ومنهم من جعله يحتمل المعنى الأول، ويحتمل إلى غاية محدودة، وإلى منتهى معلوم الشمس إلى آخر السنة والقمر آخر الشهر[4]، وهذا الأخير هو الأقرب لوجود أحاديث كثيرة تدل على هذا المعنى وهو الذي مال إليه ابو حيانوابن كثير[5].

وبعد أن عرضت الآية الكريمة هذه المشاهد من دورة الليل والنهار وعلاقة هذه الدورة بالشمس والقمر وجريانهما المنتظم، الذي تتجلي فيه حقيقة العلم الإلهي جاء التعقيب عليها بحقيقة الألوهية (ومع حقيقة إيلاج الليل والنهار في الليل، وحقيقة تسخير الشمس والقمر وهما حقيقتان بارزتان – حقيقة أخرى مثلها يقررها معها في آية واحدة: (وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)... وهكذا تبرز هذه الحقيقة الغيبية، إلى جانب الحقائق الكونية. حقيقة مثلها، ذات إرتباط بها وثيق.

ثم يعقب على هذه الحقائق الثلاث بالحقيقة الكبرى التي تقوم عليها الحقائق جميعاً. الحقيقة الأولى التي تنبثق منها الحقائق جميعاً...(ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا

---

(1) الكشاف (379/3)، ينظر: مفاتيح الغيب (130/9)، أنوار التنزيل (231/2).
(2) أولى ما قيل في آيات التنزيل (77/7).
(3) ينظر: جامع البيان (142/6)، روح البيان (117/7)، محاسن التأويل (619/7) أولى ما قيل في آيات التنزيل (77/7).
(4) ينظر: الكشاف (379/3)، أنوار التنزيل (31/2)، تفسير القرآن العظيم (458/3)، وهو قول الحسن، الجامع لأحكام القرآن، التحرير والتنوير (185/1).
(5) ينظر: تفسير القرآن العظيم (457/3)، البحر المحيط (188/7).

يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ)[1].

قال البيضاوي: ((ذَٰلِكَ) إشارة إلى الذي ذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص الباري بها (بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ) بسبب أنه الثابت في ذاته الواجب في جميع جهاته، أو الثابت إلهيته. (وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ) المعدوم في حد ذاته لأنه لا يوجد ولا يتصف إلا بجعله أو الباطل إلهيته...(وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ) مترفع عن كل شيء ومتسلط عليه)[2].

وبهذا التفسير يتبين أن اسم الإشارة (ذَٰلِكَ) يشير إلى كل المذكور في الآية السابقة من إيلاج الليل في النهار وعكسه وتسخير الشمس والقمر، وحقيقة علم الله تعالى بجميع الأشياء، وهي جميعها مجالات تتجلى فيها حقيقة علمه وحكمته.

وإذا كان القرآن الكريم قد عرض ظاهرة إيلاج الليل بالنهار وعكسه، وربط بينها وبين حقيقة قدرة الله وسعة علمه وإحاطته بالأعمال الظاهرة في العهد المكي، فإنه يعرض هذه الظاهرة ويربط بينها وبين هذه الحقائق، وإحاطة علمه بالمضمر وما تكنه الصدور في العهد المدني.

قال تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[3].

قال الخطيب الموصلي: (يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ) وذلك بالنظام الذي أودعه في حركة الأرض السنوية واليومية، وميلها على مركزها وفيه تنبيه على آثار نعم الله وقدرته وحكمه البالغة. ثم أعاد ما يتضمن التهديد، بعد إثبات قدرته، مبالغة في تحقيق دقة إنجازه فقال (وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ) أي بمكنوناتها، وفيه بيان لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه)[4].

فقوله تعالى: (وَهُوَ عَلِيمُۢ) أي: مبالغ في العلم (بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ) اي: بمكنوناتها اللازمة لها من الأسرار والمعتقدات وذلك أغمض ما يكون[5].

(1) في ظلال القرآن (2796/5).
(2) أنوار التنزيل (231/2)، ينظر: مفاتيح الغيب (131/9)، روح البيان (117/7).
(3) سورة الحديد: 6.
(4) أولى ما قيل في آيات التنزيل (208/8).
(5) ينظر: روح البيان

وبعد هذا البيان لحقيقة علمه تعالى بما يضمرون، جاء الأمر بالإيمان بالله ورسوله، والأمر بالإنفاق في قوله تعالى: (ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ)[1].

قال الرازي: (وقوله تعالى: (ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ) اعلم أنه تعالى لما ذكر أنواعاً من الدلائل على التوحيد والعلم والقدرة، أتبعها بالتكاليف وبدأ بالأمر بالله ورسوله)[2].

وبهذا يتبين أن هذا الموضع المتأخر في النزول، كشف عن صفحة من صحائف علم الله أكثر من سابقه في سورة لقمان، فالموضع السابق بين تعلق علمه تعالى بعمل المشركين في قوله تعالى: (وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ) و ههنا بين تعلق علمه تعالى بما ارتبط بالمجموع[3] في قوله تعالى: (وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ) فجاء الوصف مطلقاً غير مقيد، فما ذكر ههنا أكثر،وبهذا ننتهي من الفصل الرابع الذي عرضت فيه حقيقة العلم الإلهي التي جعل القرآن الكريم مشاهد الطبيعة بعناصرها وظواهرها. مجالات تتجلى فيه هذه الحقيقة. وبه ينتهي بحثنا عن (اقتران الحقائق الإلهية بالمشاهد الطبيعية في القرآن الكريم – دراسة موضوعية).

---

(1) سورة الحديد: 7.
(2) مفاتيح الغيب (451/10)، روح البيان (419/9)، أولى ما قيل في آيات التنزيل (209/8)
(3) للوقوف على استعمال القرآن الكريم صفة "العليم" ووجه تعلقها بسابقها أو لاحقها، ينظر: من أسرار البيان القرآني (35 – 36).

الخاتمة

خرجت من دراستي (اقتران الحقائق الإلهية بالمشاهد الطبيعية في القرآن الكريم – دراسة موضوعية) بالنتائج الآتية:-

لم يكن حديث القرآن عن المشاهد مقصوداً لذاته، وإنما كان وسيلة لتحقيق أهدافه ومقاصده وهي التعريف بالخالق وبحقيقة وجوده، ووحدانيته، وقدرته، وعلمه وحكمته، عن طريق التأمل في ملكوت السموات والأرض، ولذلك اقترنت المشاهد غالباً بالألفاظ الدالة على الحواس والتفكير كالنظر، الرؤية، والسماع، والإبصار، وجملة ما يقرره القرآن الكريم عن هذه المشاهد المعروضة أنها مسخرة للإنسان، يفيد منها بمقدار ما يتأمل، ويبحث عن أسرارها وعجائبها.

إن منهج القرآن في التعريف بهذه الحقائق كثيراً ما يتبعها بالأمر بالعبادة على مستوى السياق الواحد، أو على مستوى الآية، كونها الغاية من التعريف ومن مقتضياته، وفي بعض المواضع التي يكثر فيها التفصيل في عرض المشاهد يكون مسبوقاً بالأمر بالعبادة ومتبوعاً به أيضاً.

وفي هذا دلالة على أن القرآن الكريم لم يفرّق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، بل يجعل إفراد الله تعالى بالعبادة هو الغاية من إفراده في الخلق وفي الملك، وهذا الأمر ملحوظ في جميع الحقائق التي تم عرضها، يجده المتتبع واضحاً جلياً، ففي عرضه لحقيقة الوحدانية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] وفي حقيقة التنزيه، قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[2]. وفي حقيقة القدرة، قال تعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن

(1) سورة يونس: 3.
(2) سورة الأنعام: 101-102.

قِطۡمِيرٍ ﴾[1]. وفي حقيقة العلم الإلهي، قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[2].

وإن توحيد الألوهية هو الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب، وهو متضمن توحيد الربوبية، قال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[3].

جعل القرآن الكريم أضخم ما في الطبيعة من عناصر وهما السموات والأرض مجالاً تتجلى فيه الحقائق الإلهية، كما جعل أيضاً عناصر الطبيعة وظواهرها كالليل والنهار، والماء والسحاب، والزرع والشجر وقد لوّن هذه المجالات وبأساليب مختلفة، للوصول إلى تحقيق أهدافه وغاياته، ففي عرضه لحقيقة الوحدانية مثلاً تم بأساليب متنوعة ومشاهد متباينة وهي: السماء، والأرض، والماء، والجبال، والنبات، والليل و النهار، والبرق، والرعد.

إن دراسة هذه المشاهد بحسب ترتيب النزول تتحقق فيه صور المناسبة بين هذه المواضع من خلال التفصيل بعد الإجمال أو التعميم بعد التخصيص أو التوضيح بعد الإبهام وكثيراً ما يكون النص المتأخر يأتي بمشاهد أكثر، وهذا على مستوى أكثر من سورة، أما على مستوى السورة الواحدة، نجد هذه الصور، تتحقق في المشاهد من خلال الإجمال والتفصيل وغيرها. فإن للتفصيل بعد الإجمال، أو الإيضاح بعد الإبهام، أثراً في النفس؛ وذلك لأن المعنى يظهر بصورتين مختلفتين: الأولى: مبهمة مجملة، والثانية: موضحة فيتمكن فيها خير تمكن وأفضله، هذا من ناحية، وتكمل لذة العلم به من ناحية أخرى. وعلى مستوى الموضع الواحد كالمقابلة، والسبب والمسبب، وحسن التخلص، والتأكيد، والتفسير بعد الإبهام، وعطف الجملة على الجملة.

عرض القرآن الكريم للظواهر الطبيعية بشكل لافت، من خلال استعمال مفردات خاصة، ففي ظاهرة الليل والنهار استخدام لفظ: "خلق"، "يغشى"، "يولج"، "ويكور"، "اختلاف"، "يقلب"، "نسلخ"، ففيها من التعبير التصويري الذي يؤثر في النفس تجاه قدرة الله تعالى واستشعار هذه الحقيقة.

---

(1) سورة فاطر: 12-13.
(2) سورة لقمان: 16-17.
(3) سورة يوسف: 108.

إن الألفاظ في المشاهد الطبيعية تتميز بدقة اختيار ومطابقتها للمعنى، فالأفعال تستعمل دقيقة الدلالة، فالمضارع منها يدل على التجدد والاستمرار، أو استحضار المشاهد وتقريبها، وتساهم في إبراز الحقائق التي يرمي إليها القرآن، كما إن استعمال الألفاظ مجموعة تارة ومفردة أخرى، أو إيثار جمع القلة، وكذلك التعريف والتنكير أو العدول عن صيغة الغيبة إلى التكلم. كل ذلك لأجل إظهار هذه الحقائق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله الذي وفقني وأنعم عليّ بإنجاز هذا البحث، لعله يسهم في التعرف إلى كتاب الله الخالد.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإبداع الإلهي بين الجمال والجلال، هاله مجحوب خضر، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1، 2006.
- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، للشيخ أحمد بن محمد البنا الدمياطي، تحقيق: د. شعبان محمد اسماعيل، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1428هـ-2007م.
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1427 هـ، 2006 م.
- آثار ظلام الليل وضوء النهار على النبات، أ.د. قطب عامر فرغلي، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في تركيا، دار جياد للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 1432هـ-2011م.
- الإحكام في أصول الأحكام، سيف الدين بن علي بن محمد الآمدي، مكتبة صبيح، 1347هـ.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، بهامش إتحاف السادة المتقين، دار الفكر، بيروت.
- الاختلاف في المخلوقات ووحدة الخالق في سورة فاطر، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، ط1، 1412هـ -1992م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، تحقيق: محمد يوسف و علي عبد المنعم، مكتبة الخانجي، مصر، 1369هـ-1950م.
- أساس البلاغة، محمود بن عمر الزمخشري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1985م.
- أسباب النزول، أبو الحسن علي الواحدي، تحقيق، رضوان جامع رضوان، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط1، 1417 هـ-1996 م.
- أسرار الكون في القرآن، داود سلمان السعدي، دار الحرف العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1420هـ-1999م.
- أسرار لبلاغة في علم البيان، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تصحيح: محمد رشيد رضا، القاهرة، دار المنار، ط5، 1372 هـ.
- الإسلام في عصر العلم، محمد الغمراوي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1978م.
- الإسلام والأوضاع الاقتصادية، الشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط5، 1318هـ-1961م.
- الإسلام والطب الحديث، عبد العزيز إسماعيل، مكتبة الاعتماد القاهرة، 1357هـ.
- الإسلام يتحدى (مدخل علمي إلى الإيمان)، وحيد الدين خان، تعريب: ظفر الإسلام خان، ومراجعة وتحقيق: عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1، 1970م.
- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، عز الدين بن عبد السلام، دار البشائر الإسلامية، ط1، 1987م.

- أصول السر خسي، أبو سهل السرخسي، تحقيق: أبو الوفا الأفغاني، دار المعرفة، بيروت.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشقنقيطي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، منشورات المجمع الفقهي الإسلامي، جدة، دار الفوائد للنشر والتوزيع.
- أضواء بلاغية على جزء الذاريات، عبد القادر حسين، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 1998م.
- الإعجاز البياني ومسائل ابن الإزرق، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة، 1391هـ-1971م.
- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، 1374هـ-1954م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة التجارية، القاهرة، 1389هـ-1969م.
- الإعجاز في دراسات السابقين، د. عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، مصر، 1394هـ-1974م.
- الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، مكتبة الشرق الجديد، بغداد.
- الأمثال القرآنية القياسية، د. عبد الله عبد الرحمن الجربوع، مكتبة الملك عهد الوطنية، المدنية المنورة، ط1، 1424هـ-2003م.
- الأمثال في القرآن، محمد بن أبي بكر ابن القيّم، تحقيق: ابو حذيفة، إبراهيم بن محمد (32)، مكتبة الصحابة، مصر، ط1، 1406هـ-1986م.
- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، للقاضي أحمد بن محمد بن المنير الأسكندري، بهامش الكشاف
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 5، 2011 م
- الآيات العلمية في القرآن الكريم، عبد الرزاق نوفل، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، (ب. ت).
- آيات الله في الآفاق، محمد أحمد العدوي، مطبعة المنار، مصر، ط 1، 1352هـ- 1933م.
- الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الأعجاز (من العلوم المعنوية والأسرار القرآنية) يحي بن حمزة العلوي، تحقيق: بن عيسى باطاهر، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط 1، 2007 م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، المكتبة الأزنهرية للتراث، ط3، 1413هـ-1991م.
- الإيمان، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، خرج أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، أشرف عليه: زهير الشاويش المكتب الإسلامي، ط5، 416هـ-1996م.
- البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1428هـ-2007م.
- بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر ابن القيّم، دار الفكر، بيروت.
- بديع القرآن، أبو محمد بن ابي الأصبع، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1957م.
- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، محمد بن علي بن عبد الواحد ابن الزملكاني الأنصاري، تحقيق: د. خديجة الحديثي وأحمد مطلوب، 1394 هـ-1974م.

- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ط1، 1427هـ، 2006م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1383هـ.
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد حسنين أبو موسى، دار الفكر العربي.
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الأردن، 2002م.
- بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في أعجاز القرآن) الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، 1955 م.
- البيان القرآني، د. محمد رجب البيومي، طباعة مجمع البحوث، القاهرة، 1971 م.
- البيان ضوء أساليب القرآن، عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، 1422هـ-2002م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: د. عبد المنعم خليل إبراهيم، أستاذ كريم سيد محمد محمود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1433 هـ-2012 م.
- تأويل ثلاث آيات متشابهات، د. أحمد حسن فرحات، دار عمار، الأردن، ط1، 1420هـ.
- التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر ابن القيّم، تحقيق: طه يوسف شاهين، القاهرة، دار الطباعة المحمدية، 1388هـ-1968م.
- التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، محمد بن علي بن عبد الواحد ابن الزملكاني تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1383هـ- 1964م.
- التحرير والتنوير، الشيخ محمد بن طاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر.
- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جُزي الكلبي الغرناطي، دار الفكر.
- التصوير الفني في القرآن، سيدإبراهيم قطب، القاهرة، دار المعارف، 1386هـ-1966م.
- التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ط1، 1989م.
- التعريفات، أبي الحسن بن محمد الجرجاني، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2009م.
- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، عبد العظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1420هـ-1999م.
- التفسير العلمي للآيات القرآنية، د. حنفي أحمد، دار المعارف، مصر.
- تفسير القرآن الحكيم (المنار)، محمد رشيد رضا، دار المنار، القاهرة، ط4، 1373هـ1954م.
- تفسير القرآن العظيم، الحافظ عماد الدين إسماعيل ابن كثير الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1420هـ-2000م.
- تفسير القرآن العظيم المسمى: أولى ما قيل في آيات التنزيل، رشيد الخطيب الموصلي، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1392هـ-1972م.
- التفسير القرآني للقرآن الكريم، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، 1967م.
- التفسير القيّم، محمد بن أبي بكر ابن القيّم، جمعه أويس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكة المكرمة، مطبعة السنة المحمدية، 1949م.
- التفسير الواضح، محمد محمود حجازي، القاهرة، مطبعة الاستقلال، 1392هـ-1972م.

- تفسير جزء تبارك، محمد عبد القادر المغربي و المطبعة الأميرية، القاهرة، ط1، 1366هـ1947 م
- تفسير جزء عمّ، الشيخ محمد عبده، القاهرة، مطابع الشعب، 1903 م.
- تفسير سورة الفرقان، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، ط1، 1412هـ-1992م.
- تفسير سورة لقمان، عبد الهادي الأراشيكي، المكتبة الإسلامية، ديار بكر، (ب. ت).
- تلخيص البيان في مجازات القرآن، للشريف الرضي محمد بن طاهر، تحقيق: محمد عبد الغني حسن، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1375هـ-1955م.
- التلويح على التوضيح، سعد الدين بن عمر بن عبد الله التفتازاني، مطبعة صبيح 1377هـ-1957م.
- التمهيد، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1407هـ-1987م.
- التوحيد والتنزيه في سورة مريم، عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق ط1، 1412هـ-1992م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الشيخ عبد الرحمن السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1433هـ-2012م
- ثلاثة الأصول وأدلتهما، محمد عبد الوهاب، الرياض مؤسسة النور (د.ت).
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تقريب وتهذيب: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، ط 1، 2009 م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، 1408هـ-1988م.
- الجامع الصحيح، مسلم بن حجاج النيسابوري، حققه وأشرف على إخراجه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الجامع الصحيح، محمد إسماعيل البخاري، دار المعرفة، بيروت.
- الجامع لأحكام القرآن، لابي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1430هـ-2009 م.
- جماليات اللغة وغنى دلالاتها، محمد صادق حسن عبد الله، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1993م
- جهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي، خالد العلي، بغداد، المكتبة الأهلية، 1965م.
- جواهر الأفكار ومعادن الأسرار، عبد القادر بن أحمد بن بدران، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1420هـ.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1435هـ-2014م.
- جواهر البيان في تناسب سور القرآن، للشيخ صديق الغماري، دار الكتب، بيروت، ط2، 1406 هـ-1986م.
- حاشية الصبان على شرح الأشموني، محمد بن علي الصبان، ضبطه مصطفى حسين، دار الفكر، (ب.ت).
- حقائق علمية في القرآن الكريم، دكتور زغلول راغب محمد النّجار، دار المعرفة، بيروت، ط22، 2006م.
- الخلافة في الأرض، أ.د أحمد حسن فرحات، دار عمار للنشر، عمان، 2002 م.

- درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط1، 1401هـ -1981م.
- دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق، بيروت، 1400 هـ 1980 م.
- درة الغوص في أوهام الخواص، لأبي محمد قاسم بن علي الحريري، مكتبة المثنى، بغداد.
- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، محمد عبد الرحمن الراوي، الرياض، مكتبة الرشد، ط 3، 1411هـ -1991م.
- دفع إيهام الاضطراب، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر، بيروت.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1404هـ.
- الرسالة الشافية في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله و محمد زغلول سلام، مصر 1955م.
- ركائز الإيمان بين العقل والقلب، الشيخ محمد الغزالي، دار القلم للنشر، ط5، 1426هـ، 2005م.
- الرواية والاستشهاد باللغة، د. محمد عيد، عالم الكتب، بيروت، 1966م.
- روح البيان، الشيخ إسماعيل حقي البروسوي، تحقيق: الشيخ أحمد عبيد وعناية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت
- روضة الناظرلابن قدامة، وشرحها نزهه الخاطر العاطر، عبد القادر بن أحمد بن بدران، مكتبة المعارف، الرياض، ط2، 1404هـ-1984م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن اي بكر ابن القيّم، مكتبة الحلبي، القاهرة، 1390هـ -1970م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، تحقيق: أحمد محمد شاكر، شركة بيت الأفكار الدولية، بيروت، 2004م.
- سورة الرحمن و قصار سور، شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، 1370هـ-1971م.
- السيف الحاد في الرد على من أخذ بحديث الآحاد في مسائل الاعتقاد، سعيد بن مبروك القنوبي، مطابع النهظة، عمان، ط3، 1418هـ.
- شرح الأصول الخمسة، القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المعتزلي، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1384هـ- 1965م.
- شرح التسهيل، ابن مالك محمد بن عبد الله، تحقيق: د. عبد الرحمن السيد، د. بدوي المختوم، دار الفكر، (ب.ت).
- شرح الشفا، نور الدين القاري، تحقيق: حسنين مخلوف، مطبعة المدني، مصر1394هـ-1974م.
- شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، شرحه: محمد بن صالح بن عثمين، تحقيق: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، ط 2، 1415هـ.
- الشريعة، الآجري، تحقيق: محمد حامد الفقي، أنصار السنة النبوية، لاهور، باكستان.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامهما، أبو الحسن أحمد ابن الفارس، تحقيق وتقديم: مصطفى الشوّيمي، مؤسسة بدران للطنباعة والنشر، بيروت، 1382هـ-1963م.
- الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: د. أميل بديع يعقوب، د. محمد نبيل طريفي، ط1، دار الكتب، بيروت، 1420هـ -1999 م.
- صراع مع الملاحدة حتى العظم، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط1، 1394هـ-1974م.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الفكر للطباعة والننشر والتوزيع، بيروت، (ب.ت).
- صلوات على الشاطئ، أحمد الشرباصي، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1951 م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1983.
- الطبيعة في القرآن الكريم، د. كاصد ياسر الزيدي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للطباعة والنشر، بغداد، 1980م.
- الطبيعيات والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر، ط1، دار السعودية للنشر.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، دار المقتطف، القاهرة، 1332هـ-1914م.
- العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد بن طاهر التنير البيروتي، دراسة وتحقيق: د. محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة للنشر.
- العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، ط 16، 1433هـ-2012م.
- عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، د. محمد أحمد ملكاوي، رسالة ماجستير طبعت في المملكة العربية السعودية، دار ابن تيمية، ط1، 1405هـ-1985م.
- العقيدة والفطرة في الإسلام، صابر طعيمة، دار الجبل، بيروت، ط1، 1398هـ-11978م.
- علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1405هـ-1985م.
- العلم يدعو إلى الإيمان، أ. كريسي موريس، ترجمة محمود صالح الفلكي، ط6، القاهرة، دار النهضة، 1971 م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.
- الفرق بين الفرق، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي البغدادي، دار الجيل، بيروت، 1408هـ-1987م.
- الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، تحقيق: عماد زكي الباري، المكتبة التوفيقية (د.ت).
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، الإمام أبو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري، دار الندوة الجديدة، بيروت
- فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك، دار الفكر، بيروت، ط3، 1968م.
- فقه اللغة وسر العربية، أبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1314 هـ-1954 م

- فكرة إعجاز القرآن، نعيم الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط2، 1400هـ -1980م.
- فن البلاغة، عبد القادر حسن، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1405هـ-1984م.
- الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان، محمد بن أبي بكر ابن القيّم، مطبعة السعادة، القاهرة، ط1، 1327هـ.
- في أصول النحو، سعيد الأفغاني، دنار الفكر، بيروت.
- في إعجاز القرآن، د. محمد بركات أبو علي، المكتبة الدولية، مؤسسة الخافقين، 1403هـ-1984م.
- في رحاب البيان القرآني (سورة الرعد) محمد السعدي فرهود، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط 1، 1398 هـ -1978 م.
- في ظلال القرآن، سيد إبراهيم قطب، دار الشروق، ط 37، 1429 هـ-2008م.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني المصري، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1430هـ-2009م.
- القرآن والعلم، محمد جمال الدين الفندي، دار المعرفة، القاهرة، ط1، 1968م.
- القرآن يتجلى في عصر العلم، الشيخ نزيه القميحا، مراجعة وتحقيق: السيد نزار فضل الله، دار الهادي، ط1، 1417هـ-1997م.
- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ط2، دار القلم، ط2، دمشق، 1409هـ.
- قواعد الترجيح عند المفسرين، للدكتور حسين بن علي الحربي، دار القاسم، الرياض، ط1، 1417م.
- الكافِ الشافِ في تخريج أحاديث الكشاف، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، ضبط وتوثيق: أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، بهامش الكشاف.
- كتاب الإيمان الوسط، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد، المكتبة العصرية، لبنان، ط1، 2009م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2012.
- الكون والإعجاز العلمي للقرآن الكريم، د. منصور حسب النبي، دار الفكر العربي.
- لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط 1، 1426 هـ-2005 م
- لسان العرب، أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، ط1، 1410هـ-1990م.
- الله والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل، الناشرون العرب، القاهرة، 1971 م.
- الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الامريكيين، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، ط3، (د.ت).
- اللهجات العربية في القراءات القرآنية، د. عبده الراجحي، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1420هـ.
- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، محمد بن أحمد السفاريني، دار الخاني، الرياض، ط 3، 1411هـ-1991م.136
- المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين، سيف الدين بن علي بن محمد الآمدي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م.

- المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر، ضياء الدين نصر الله بن محمد ابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، القاهرة، نهضة مصر، 1959 م
- مجلة الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة النبوية، العدد الاول، مقال للدكتور باحفظ الله بعنوان "والجبال أوتاد"، مكة المكرمة، صفر 1416 هـ.
- مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصي النجدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1418هـ .
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: أحمد بن علي، حمدي صبيح، دار الحديث، القاهرة، 1424 هـ-2003 م.
- المحرر الوجيز في كتاب الله العزيز، القاضي ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد محمد الشافعي، دار الكتب العلمية، ط 1، 1413 هـ-1992 م.
- المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن اسماعيل بن سيده، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1421 هـ-2000م.
- محيط المحيط، بطرس البستاني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1998 م.
- مختصر تفسير ابن كثير، الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1410هـ-1999م.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله بن احمد بن محمود النسفي، دار مصر للطباعة، ط 1، 1971 م.
- مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط1، 1404هـ-1983م.
- مدخل إلى موقف القرآن من العلم، د. عماد الدين خليل، مطبعة الزهراء، الموصل، ط2، 1985م.
- مدراج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر ابن القيّم، صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2004م.
- المستصفى في علم الأصول، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، مطبعة مصطفى محمد، ط2، 1356هـ.
- المشاهد في القرآن الكريم "دراسة تحليلية وصفية" رسالة دكتوراه ،حامد صادق قنيبي، جامعة الأزهر، مكتبة المنار، الاردن، ط1، 1984.
- مصاعد النظر للأشراف على مقاصد السور، برهان الدين أبي الحسن البقاعي إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: د. عبد السميع محمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، ط 1، 1408 هـ-1987م.
- المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ، جمال الدين بن فرج عبد الرحمن ابن الجوزي، تحقيق د. حاتم الضامن، بيرت، ط 3، 1418هـ-1998م .
- مع القرآن في إعجازه وبلاغته، عبد القادر حسين، مكتبة الأمانة – القاهرة، 1975م.
- مع الله في السماء، أحمد زكي، القاهرة، مطبعة الهلال.
- معارج التفكر ودقائق التدبر، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط1، 2007 م.
- معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، مروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط 3، 1413 هـ-1992 م.
- المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، أحمد فتحي عامر، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1396هـ-1976م.

- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الثقافة العربية (ب.ت).
- المعجزة الكبرى، الشيخ محمد أبور زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1970م.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، إعداد وتحقيق: مكتب دار إحياء التراث، بيروت، ط1، 1429هـ-2008م.
- مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ-1983م.
- مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الحسين بن محمد بن الفضل الراغب الأصفهاني، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط3، 2008 م.
- المقابلة في القرآن الكريم، بن عيسى با طاهر، دار عمار، الأردن، ط1، 2000م.
- مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط2، 1420 هـ-1999 م.
- مقدمة في فلسفة التربة الإسلامية، حسن إبراهيم عبد الله، الرياض، دار عالم الكتب، 1405هـ.
- مقومات التصور الإسلامي، سيد إبراهيم قطب، دار الشروق، ط7، 2010 م.
- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابهة اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط3، 2011 م.
- الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني الشافعي، تصحيح و تعليق: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1413هـ.
- من أسرار البيان القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار الفكر ناشرون، عمان، ط1، 1430هـ-2009م.
- من الخالق.. الله أم الصدفة ؟ رشدي مدبولي حسن، مكتبة الزهراء، القاهرة، 1974 م.
- من آيات الإعجاز العلمي: السماء في القرآن، زغول راغب محمد النّجار، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1427هـ-2007م.
- من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، نهضة، مصر، القاهرة، ط 3، (ب. ت).
- من موضوعات سور القرآن الكريم–سورة الأعراف– عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم، دمشق، ط1، 1412 هـ-1992 م.
- المنتخب في تفسير القرآن، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط 5، 1395 هـ-1975 م.
- منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، القاهرة، دار القلم، د.ت
- موارد الضمآن إلى زوائد ابن حبان، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- المواقف في علم الكلام، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الآيجي الشافعي، عالم الكتب، بيروت، ب.ت.
- ناسخ القرآن العزيز ومنسوخة، هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم شرف الدين البارزي، تحقيق: د. حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1418 هـ-1998 م.
- الناسخ والمنسوخ، قتادة بن دعامة السدوسي، تحقيق د. حاتم الضامن، بيرت، ط3، 1418 هـ-1998 م.
- الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة بن نصر المقري، تحقيق: زهير الشاويش ومحمد كنعان، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1404هـ.

- النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، دار السعادة، القاهرة، ط1، 1960م.
- نظرات في القرآن، الشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط1، 1383هـ-1962م.
- نظم الدررفي تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ-1995م.
- النكت في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول، القاهرة، دار المعارف، 1955م.
- الوحدة الموضوعية في سورة الأنعام، رسالة دكتوراه، د. عباس عوض الله عباس، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان.